ديوان العرب تقدم لكم:

هدية التراب

رواية

أمينة عابد

رفعت ثريا وسادة أختها الصغرى حياة، وجلست على طرف السرير الذي اعتادت أختها أن تنام فيه، ضمت الوسادةإلى صدرها، وشمتها بعمق وهي تتذكرها في ذلك الصباح البعيد وتسأل نفسها: «أكانت تلعب مع أحلامها، مثلما كانت تلعب مع لعبتها أحلام التي صنعتها لها في يوم خلا؟» فقد أخبرتها حياة في ذلك الصباح أنها كانت تتحول في منامها إلى نحلة برتقالية منقطة بالأسود، فينبت هدبان من رأسها وينبثق جناحان شفافان من جانبيها، فتقف على تويجة زهرة بيضاء، وتنظر إلى العالم الواسع أمامها، فترى حمرة شقائق النعمان تزين بساطاً أخضرَ من حقول القمح المترامية على مدى النظر والمتحدة في نهايتها مع زرقة السماء وبياض السحب. تريد أن تطير وتلحق برفيقاتها اللواتي غادرن الخلية قبلها وينتظرنها محلقات في أشعة الشمس الوهاجة، لكنها لا تستطيع رؤيتهن وتمييزهن بوضوح، لأن الأشعة القوية تغشي بصرها، ويصلها صوت أمها أيضاً وهي توقظها من نومها لترسلها إلى مدرستها.
فتحت حياة عينيها، وألقت نظرة عبر غشاوتهما باتجاه الساعة المعلقة على الحائط المقابل، وعادت إلى إغلاقهما من جديد وهي تخبئ رأسها تحت لحافها وتقول:
- تأخر الوقت، وستضربني المعلمة، كما فعلت في الأسبوع الماضي.
كانت تخاف من عقوبة تأخرها عن المدرسة، وترغب في تجنب ما حدث معها قبل بضعة أيام عندما ركضت عبر الساحة الكبيرة للحاق بآخر طالب يدخل الصف، وسمَّر صوت المعلمة قدميها على الأرض، واخترق طبلتي أذنيها رعداً جال عبر جسدها وعاد إلى الخروج من مساماته رعباً ضمّخ وجهها بالشحوب، وأطرف عينيها طرفات متتالية. ووقفت المعلمة قبالتها تفرغ عليها قهرها الأزلي، وتبرهن على أنها هي التي تمسك بزمام الأمور، وتأمر وتنهى، وعلى الجميع المثول لأحكامها وشرائعها. فنفّثت عن قهرها، وحاولت نقله إلى قلب الطالبة الصغيرة عبر كل ضربة عصا على يدها.

أقنعت حياة بالذهاب وعدم الغياب عن دروسها، فقد قالت:
- سأذهب معك يا حياة، وأقول للمعلمة أن ماما هي التي تأخرت في النوم، ولم توقظك في الوقت المناسب.

كانت حياة تصدقها، فما من مرة وعدت وأخلفت وعدها، وما من مرة كذبت عليها وقالت غير الحقيقة. ودَّعتْ حياة عالم أحلامها الصغير، واعدة بالعودة إليه في الليلة المقبلة لتبدأ من حيث أُجبرت على التوقف: ستطير إلى رفيقاتها، وتتنقل معهن من زهرة إلى أخرى لتشم رحيقها، وتأخذ خلاصته، وتعود إلى الخلية لتنتج عسلها، فقد كان باستطاعتها استدعاء الأحلام التي ترغب فيها، فكانت تقول: «سأحلم بقطف الأزهار لأصنع منها أطواقاً وأساور» فتحلم بذلك، وتقول: «سأذهب هذه الليلة إلى شاطئ البحر، وأبني قلاعاً رملية، وأركب الموج، وألعب مع الأسماك» فتفعل ذلك في حلمها.
غسلت وجهها طاردة بقايا النوم التي كانت تطبق أجفانها، ثم لبست صدريتها التي تحولها إلى رقم يشبه كل الأرقام التي تلبس الصدرية ذاتها وهي تقول مثل كل يوم: «منظر عصفورة تدخل قفصاً حديدياً» وتستأنف مثل كل يوم: «بضع ساعات وسأكسر القفص. »
جلست على الأرض، وأسندت ظهرها إلى ساقي أمها الجالسة على الكرسي، ثم أمالت رأسها إلى الوراء، وأراحته على ركبتي أمها وهي تعطيها المشط وربطة الشعر لتربطه لها ذنب حصان جامح يحلم بفك القيود والانطلاق في البراري اللامتناهية. وأسرعت بعد ذلك تجلس إلى طاولة الفطور، وتسحب طبق العسل إليها وهي تفكر بصوت عالٍ:
- سأطير هذه الليلة من زهرة إلى زهرة، وأنتج كل ما آكله الآن.

خرجت مع حياة من البيت، وأمسكت يدها وهي تقول مازحة:

- إنني أخاف عليك أن تضيعي في زحام الشارع يا حياة.
لكن حياة حررت يدها وهي تجيب:
- لا يا ثريا، لن أضيع فأنا أذهب وحدي إلى المدرسة كل يوم. وإن ضعت، فإنني سأعرف طريقي إلى البيت، كما تعرف النحلة طريقها إلى خليتها.
كانت المدرسة ما تزال مغلقة وكان الطلاب والطالبات يحتشدون أمام بوابتها السوداء الكبيرة، فهتفت حياة تقول بابتسامة عريضة على وجهها:
- انظري يا ثريا، إن المدرسة لم تفتح بعد.
- هل تريدين أن أنتظر معك إلى أن يفتح آذان المدرسة البوابة؟
- لا، اذهبي إلى البيت وأنا سأنتظر مع رفيقاتي.
قالت حياة ذلك وركضت تنضم إلى رفيقاتها الواقفات أمام البوابة الكبيرة.

رجعت أدراجها باطمئنان وقد أضاءت ابتسامة أختها الصغرى دربها. وعندما وصلت إلى البيت، خرج العم طاهر من غرفة أبيها وهو يريد أن يقول شيئاً ما دون أن يستطيع، وكأن صوته ضاع في متاهات داخله دون أن يعثر على دربه المعتاد. لقد خرج صوته أخيراً بحةً وهو يقول:
- إنا لله وإنا إليه راجعون.

اخترقت بحة صوته أذنيها، وجالت في داخلها على شكل صدى متكرر دون أن تدرك معنى ما قاله، فهي كانت قد سمعت بموت جدها، لكنها لم تكن تتذكره، فتخيلت أنه مات في زمن موغل في القدم. وكان أبوها وأمها يسافران إلى القرية في بعض الأحيان لتعزية أناس لا تعرفهم، فاعتقدت أن الموت يزور الآخرين فقط، ولم تفكر لحظة واحدة في أنه قد يزورهم هم أيضاً.
وقفت في فتحة الباب، ومدَّت نظرها نحو والدها، فرأته مغطىً ببطانيته حتى عنقه وذقنه تستريح عليها، مغلقاً عينيه وكأنه غارق في نوم عميق بعد نهار مجهد. كانت قد دخلت غرفته قبل أن توصل حياة إلى المدرسة، ورأته نائماً في سريره، فوضعت شفتيها على جبينه، ثم خدها على شفتيه في انتظار جوابه. وبعد أن فتح عينيه وأجاب بقبلة على خدها جلست على حافة السرير، ووضعت رأسها على صدره، فشعرت بيده تربت على ظهرها وبصوته يدغدغ قلبها وهو يقول:
- أحبكم دائماً.
لم يكن وجهه قد تغير عما رأته قبل قليل. قبلته من جبينه، ووضعت خدها على شفتيه وانتظرت جوابه دون جدوى، فأزاحت الغطاء عنه لتسهِّل عليه القيام من نومه، كانت يداه تستريحان على صدره، وأصابع يده اليمنى مضمومة إلى كفه ما عدا إصبع الشهادة. فكرت في أنه ربما ينام نوماً أعمق مما تظن، فهزَّته من كتفه وهي تقول:
- استيقظ يا بابا، لقد حان وقت دوائك.
لكنه لم يحرك ساكناً، ولم يبالِ بالبرد الذي هاجمه من فوق البطانية.

قالت لها حياة بعد ذلك الوقت بكثير:
- عندما عدت من المدرسة في ذلك اليوم، ورأيت الناس الواقفين أمام الباب وعلى السلّم، تذكرت شذرة من منامي الذي رأيت فيه رفيقاتي النحلات يلمعن محلقات في الفضاء الرحب، لكن شذرة منامي اختفت سريعاً عندما فكرت في أن المكان هناك كان يختلف عن المكان هنا، وأن المحلقات هناك كن يختلفن عن الواقفين هنا مثل فزاعات طيور في منتصف حقلٍ مظلم... وعندما دخلت غرفة بابا، ورأيت فراشاً ممدوداً على الأرض مكان سريره وهو مستلق فيه ومغطىً بالبطّانية، ورأيت ماما جالسة عند رأسه تبكي بصمت، ورأيتك جالسة على الطرف المقابل ساندة رأسك على

يديك وتجهشين بالبكاء، ورأيت أحمد مستنداً إلى خزانة الملابس ومخبئاً يديه وراء ظهره ويحدق في البطانية بعيون دامعة، عندما رأت هذا المشهد شعرت بشيء ينكسر في داخلي ولن يعود كما كان.

فقالت:
- أما أنا فأتذكر من ذلك اليوم مشهداً أكثر من كل ما عداه من المشاهد، فقد أصبح صورة محفورة في ذاكرتي لن أنساها ما حييت، حتى لقد تمنيت كثيراً أن أكون رسامة، فقط لأرسم تلك الصورة.
سألت حياة:
- أخبريني يا ثريا، ما هي الصورة التي حُفرت في ذاكرتك ولن تنسيها أبداً؟
فأجابت:
- صورة فتاة تبلغ الرابعة عشرة من العمر جالسة بجانب والد ميت وقد استحال ظهرها مصباً لدموع أخيها البالغ من العمر الثانية عشرة، واستحال حضنها ملاذاً لرأس أختها الصغرى ذات العشر سنوات، حتى لقد فكرت في أن أطلب من رياض رسمها، لكن شيئاً قوياً في داخلي منعني من ذلك.

نُقل جثمان والدهم إلى بيت العم طاهر في القرية وطُهر وزُين لرحلته الأبدية. كان الناس قد اجتمعوا من كل حدب وصوب، ومشوا بخطوات وقورة وراء النعش وهو يُنقل على أكتاف الرجال صوب ساحة القرية لتأدية صلاة الميت، ثم صوب مكان رقوده الأبدي. لقد تحول بيت العم طاهر في الأيام التالية إلى مهرجان حزين يزوره المعزّون، فيذكرهم صوت القرآن بما سيؤولون إليه، ويحثهم على إعادة حساباتهم قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه مال ولا ولد.
ظنت أن أباها ما يزال يرقد في غرفته عندما عادوا إلى البيت، فاتجهت صوب الغرفة وفتحت بابها، كانت خزانة الملابس البنية ما تزال واقفة كما وقفت طوال السنوات الماضية، والخزانتان الصغيرتان ما تزالان تسندان الحائط المقابل، لكن السرير الكبير الذي كان يحتل منتصف الغرفة، منذ أن فتحت عينيها على الدنيا، كان قد اختفى من مكانه. استندت إلى الباب تنظر إلى الفراغ علّ سماءً تمطره، أو أرضاً تنشق عنه وتعيده إلى مكانه. ووقفت على ذلك الوضع إلى أن اجتازتها أمها سامية إلى داخل الغرفة ودعتها ودعت أحمد وحياة إلى الجلوس بجانبها على الكنبة الواقفة في زاوية الغرفة، وقالت بعد أن جلسوا بجانبها:
- إن سنة الحياة أن يولد ناس ويموت ناس آخرون. نحن جمعياً نحب بابا، ولكن الحياة لا تتوقف عند موته، ويجب علينا أن نعيش كما كنا نعيش عندما كان موجوداً بيننا.
فسألتها حياة بعينين دامعتين وشفتين مرتجفتين:
- هل ستموتين أنت أيضاً وتتركينا وحدنا، كما فعل بابا؟
- لا أحد يعرف متى سيموت، لكن صحتي جيدة وأنا لست امرأة عجوزاً ولا أظن أنني سأموت في الوقت القريب.
- لكن بابا لم يكن عجوزاً أيضاً، فلماذا مات إذن؟
- هذه هي مشيئة الله عز وجل يا حياة.
استيقظت حياة خائفة في منتصف تلك الليلة، وركضت إلى غرفة أمها، واندست في حضنها وهي تجهش بالبكاء وتطلب منها:
- عديني بأنك لن تموتي، ولن تتركينني.
فضمتها أمها إلى صدرها بعيون نصف مفتوحة، ووعدت:
- لن أموت، ولن أتركك.
عادوا إلى مدارسهم وحياتهم الطبيعية وهم يشعرون بفقدان والدهم، لكنهم كانوا يتجنبون الحديث عن موته ويتكلمون عنه وكأنهم يتكلمون عن شخص مسافر سيعود إليهم بعد حين. كانت حياة تلعب وتضحك وتذهب إلى المدرسة في النهار ولا يبدو عليها أنها تعاني من أية مشكلة، لكنها كانت تخاف أن تنام وحدها في سريرها وتصر على أن تنام

في حضن أمها، وإن حدث ونامت في سريرها، قامت في الليل وذهبت إلى غرفة أمها تندس في حضنها وهي تبكي أشد البكاء وتطلب منها أن لا تتركها وحدها. مضت أيامهم على هذا النحو إلى أن جاءت أربعينية والدهم، فجاء العم طاهر وأخذهم من جديد إلى القرية. وعندما انتهت مراسم الأربعينية وغادر الضيوف في نهاية المساء، أكد العم طاهر مسؤوليته تجاه زوجة أخيه وأولاده، فقد قال:

- إن من واجبي أن ألبي كل احتياجاتكم ولا أدعكم تحتاجون أي شيء، إنني مسؤول عنكم كما أنا مسؤول عن أسرتي تماماً.

فصفعت زوجته سميرة في تلك اللحظة كتف ابنتها هيفين التي كانت تأكل من صحن لبن، ودلقت اللبن على نفسها، فتحول إلى نهر أبيض شق طريقه عبر صدرها، وتجمَّع في حضنها بركة بيضاء، وبعد أن صفعتها خرجت بها من الغرفة. كان هاجسٌ يلازم سميرة أن زوجها سيتزوج عليها، عقاباً لها على إنجاب ثلاث بنات وعدم إنجاب صبي.

غادرت مع أمها وأخيها إلى غرفة الجدة، وتركوا حياة النائمة في غرفة جلوس عمها. لقد أخبرتها حياة فيما بعد أنها استيقظت على صوت زوجة عمها وهي تقول لزوجها:

- قل لها غداً أن تذهب مع أولادها إلى بيتها.

- هل جُننت؟ كيف لي أن أطرد أرملة أخي وأولاده من بيتي؟

- أنا لا أقول اطردها، وإنما اطلب لها سيارة أجرة لتوصلها إلى بيتها، فنحن قمنا بواجبنا على أكمل وجه، لقد فتحنا بيتنا للعزاء وتحملنا كل المصاريف وها هي مراسم الأربعينية قد انتهت، فماذا عساها تفعل هنا عشرة أيام أخرى.

- وكيف عرفت أنها ستبقى عشرة أيام؟

- إنني سمعتها تقول ذلك لأمك.

- فلتبقى عشرة شهور إن أرادت، فأي ضير في بقائها؟

- إنني لن أنتظر إلى أن توقعك في حبالها فتتزوجها.

فردَّ عليها العم طاهر مستغرباً أشد الاستغراب:

- هل تتخيلين أنني أستطيع أن أحضن امرأة حضنها أخي من قبل وأنجبت منه أطفالاً؟! يجب أن تعلمي أنها أصبحت أختاً لي منذ أن تزوجت المرحوم عدنان، ومتى استطعت أن أتزوج أختي التي هي من أبي وأمي، سأستطيع أن أتزوجها هي أيضاً!

- إنها تبحث عن عريس، ولن أتركها تخطفك مني. فهي إن كانت تريد أن تربي أولادها، لما قلّمت حواجبها، ولما تزينت بهذا الشكل، وكفن زوجها ما يزال ندياً.

أدار العم طاهر ظهره لها وهو يقول:

- كفاك كلاماً! واذهبي إلى غرفتك، واتركيني أنام هنا.

لكنها لم ترغب في الذهاب إلى النوم إلا بعد أن تقول كل ما لديها:

- لقد ولّى زمن الحب الفروسي يا عزيزي. لقد مضى زمن بقاء الزوجة على ذكرى زوجها الغائب أو الميت إلى غير رجعة. من السهل على المرء أن يعد شريك حياته بأنه سيظل على ذكراه إن مات، لكن الكلام شيء والحقيقة شيء آخر. نحن في زمن جديد، في زمن أنت في حضني فأنا... طبعاً لا يعجبك هذا الكلام، قالت ذلك لزوجها عندما قام وترك الغرفة.

بقيت كلماتها تدق في أذني حياة ساعات طويلة، مثل طبل مزعج. وعندما دخلت عالم النوم، رأت في منامها أنها تعود من المدرسة، وترى أمها راقدة في فراش أبيها ومغطاة بنفس البطانية، فتناديها، فتقوم أمها من فراش الموت، وتختفي مثل الظل الذي يختفي مع غروب الشمس. وعندما فتحت عينيها، سمعت نفسها ما تزال تنادي أمها وهي تبكي

وترتعش، فخرجت من غرفة عمها، وركضت عبر أرض الدار إلى غرفة الجدة. ودخلت سرير أمها، وخبأت نفسها في حضنها، وأرادت أن تحكي لها عن خوفها، لكن أمها أغلقت فمها بصدرها واعدة أن تسمع لمخاوفها في الصباح.

عادت من آخر امتحان لها من امتحانات المرحلة الإعدادية. فرِحة بقدوم العطلة الصيفية، أخرجت كتبها ودفاترها من خزانتها، وراحت ترميها في الهواء، الواحدة تلوَ الأخرى، وتراقبها بانتشاء تتساقط متناثرة في كل أنحاء الغرفة. ثم أشعلت آلة التسجيل، وأمسكت يد حياة ورقصت معها سعيدة منتشية بانتهائها من كتابة الوظائف وحفظ الدروس وباستقبالها عطلة الصيف دون هموم الدراسة ومتاعبها. تركت حياة لرقصها، وتوجهت بخطوات راقصة إلى غرفة أمها لتدعوها إلى المشاركة بفرحتها، فازدادت فرحتها، عندما رأت أمها جالسة أمام المرآة تلون شفتيها بأحمر الشفاه لاعتقادها أنها تتزين ابتهاجاً لبهجتها، لكنها شعرت بقشعريرة أزاحت الفرحة من وجهها وقلبها، عندما أمسكتها أمها من يدها، وأجلستها بالقرب منها وهي تقول:
- تعالي يا ثريا، فأنا أريد أن أتحدث معك في موضوع يهمني.
فنظرت إلى وجه أمها التي قالت:
- تقدم شخص لخطبتي قبل شهرين، وأنا وافقت.
أحدثت تلك الكلمات القليلة زلزالاً هزَّ صرح فرحتها، وجعله يتداعى فوق رأسها مخلفاً غباراً كتم أنفاسها، فانكمشت رئتاها وهما تتوقان إلى رشقة هواء تخرجهما من انكماشهما المفاجئ.
أكملت أمها بارتياح مَن تخلص من قنبلة موقوته حملها وقتاً طويلاً:
- عندما طلبني للزواج، وافقت، لكنني لم أرضَ إخباركم إلى أن تقدمي آخر امتحان لك.
نظرت إلى وجه أمها المزيَّن. استنشقت بعضاً من الهواء الملوث، فعادت الحياة إلى بعضٍ من خلايا رئتيها، فسألتها:
- ونحن ماذا سيحدث لنا؟
أدارت أمها رأسها متجنبة النظر في عينيها:
- أنتم ستعيشون في بيت عمكم في القرية. أريد منك أن تقنعي أخاك وأختك بزواجي.
عادت رئتاها إلى وضع شبه طبيعي بعد أن وجدتا بصيص أمل زودهما ببعض من الهواء النقي وهي تفكر في أنها قد تجعل أمها تغيّر رأيها وتبقى معهم، إلا أنها اكتشفت أنه كان بصيصاً كاذباً، عندما قالت أمها:
- أنت ما زلت صغيرة، ولا تفهمين الحياة بعد.
فقالت تذكِّر أمها:
- إن زوجة عمي تنزعج من مجرد زيارتنا لهم، فكيف ستقبل بإقامتنا عندها في نفس البيت؟
فأجابت أمها بنزق:
- ستعيشون في غرفة جدتكم، فهي مسؤولة عنكم أيضاً، وغرفتها معزولة عن البيت، ولا داعي إلى أن تذهبوا إلى بيت سميرة.

حاولت بدموعها استجداء عواطف أمها وإقناعها بحاجتهم إليها، حتى لقد انحنت على يدها تقبلها توسلاً، لكن أمها سحبت يدها ومسحتها من الدموع التي نزلت عليها، وحاولت بدورها أن تخفي دموعها التي لطخت ماكياج وجهها وأن تصّم أذنيها عن توسلات ابنتها، فأشاحت وجهها عنها وهي تقول:
- عندما تكبرين غداً، ستفهمين وتعذرين. لقد طلبتُ من عمك أن يؤجر هذا البيت لينفق إيجاره عليكم، سيكفيكم مع إيجار بيت القرية وإيراد الزيتون.
لم تسمع جملة أمها الأخيرة، فقامت من مكانها واتجهت نحو الباب، والتفتت نحو أمها قبل أن تغلق الباب وقالت:
- مهما كبرت لن أفهم ولن أعذر. أنت ترميننا إلى عالم الضياع، ولا تتركين أمامنا خياراً إلا أن نودعك عالم النسيان، ونعدُّك أنك لحقت بأبينا.

وعادت إلى غرفتها حيث كانت حياة ما تزال ترقص على أنغام الموسيقا، وتلتقط أثناء رقصها الكتب والدفاتر المنثورة، وتطيّرها في الهواء من جديد، لكنها أسرعت إلى إطفاء آلة التسجيل والجلوس قبالتها على حافة السرير وقد انتقل التجهم إلى وجهها مثل مرض معدي، وسألتها بشفاه مرتجفة:
- لماذا تبكين يا ثريا؟
لم تجب، فقد كانت تتجول بين أنقاض صرحها، غير مصدقة آثار الزلزال الذي ضرب روحها وسواها بالأرض.

أخبرتها أخيراً بما سمعته من أمها. فدخلت حياة قوقعتها محاولة الاختباء تجنباً لضربة تالية أو ربما استجماعاً لقوتها واستعداداً للهجوم. خرجت حياة من قوقعتها بعد برهة من الزمن، وهاجمت:
- أنت تكذبين... ماما وعدتني بأنها لن تتركنا أبداً.
وركضت إلى أمها التي أغدقت بالحنان عليها طوال سنواتها الإحدى عشرة، وسهرت على سريرها أثناء مرضها، وشفتها من حمّاها ببرودة دمعها. وشربت المرارة وحولتها في داخلها إلى حلاوة سقتها عبر حلمتي صدرها. وأعادتها أثناء هبات ريح مفاجئة إلى رحمها ومنحتها الدفء عبر مشيمة اصطنعتها من ذرات روحها إلى أن اعتقدت الصغيرة أن أمها ستمحي نفسها من أجل سعادتها، وأن حبها لها أكبر من كل حب، وأعمق من كل عاطفة.
لكن تلك الأم تحولت في تلك الساعة إلى جدار مقدس لا يسمع نداءات الحاجّة إليه، ولا يبالي بتمسّحها به، ولا بدموع التوبة الهاطلة فوقه، ولا بالوعود التي تأخذها على نفسها بأنها لن تأثم مرة أخرى، وستعمل بأوامرها، وتجتنب نواهيها، وتستيقظ في الصباح وحدها ولن تتأخر عن مدرستها دون أن تتلقى جواباً شافياً، فشعرت بأنها واقفة أمام امرأة غريبة لا تمت بأية صلة لأمها. لم تصدق شعورها، وعاندته، وتوسلت من جديد إليها:
- خذينا معك إذن.
- لا أستطيع.
عادت حياة يائسة إلى غرفتها، ورأت أحمد يحدق في الأرض ويحاول قول شيء ما، لكن كلماته كانت تهيم على وجهها وتتيه في متاهات نفسه دون أن تعثر على دربها المعتاد.

دعت الله أن يجعل ليلتهم عقيماً لا يولد لها صباح، وأن يحولها إلى ليلة سرمدية يعيش فيها أربعتهم في بيتهم الدافئ الذي يحميهم من صقيع الشتاء وقيظ الصيف، إلا أن دعوتها لم تستجاب، فقد دخلت ليلتهم مخاضاً عسيراً منتظرة خروج الصباح من رحمها. تحول الجنين إلى طير صغير كبر بمرور الدقائق والساعات إلى أن أصبح طيراً جارحاً، فخرج من العتمة، وحط على سفينتهم، وحمل ربّانها بين براثنه، وطار باتجاه الرحم الذي خرج منه للتو. فغرقت سفينتهم وغاصت نحو الأعماق، وتركتهم وسط يمٍ دون أي شاطئ أو جزيرة في الأفق. كان صباحهم ذاك يختلف عن كل الصباحات التي دعتهم لفتح أعينهم وطردت بقايا النوم من أجفانهم، فهم لم يعرفوا هل كانوا قد أغلقوا أجفانهم أم لا، فليلتهم لم تشبه لياليهم السابقة، مثلما لم يشبه صباحهم صباحاتهم السابقة. كان أصعب من صباح رحيل والدهم، فقد ناموا ليلتها على الأقل، وحلموا مثل كل ليلة، لأنهم لم يكونوا يعرفون ماذا يخبئ الصباح لهم، لكنهم في تلك الليلة كانوا يعرفون ماذا سيأخذ منهم صباحهم.

بقيت حياة تعتقد طوال تلك الليلة أن عدم رغبتها في الذهاب إلى المدرسة وتأخرها في الاستيقاظ من النوم في الصباح هما السبب الذي أغضب أمها فقررت أن تتركهم وترحل عنهم، وبقيت تلوم نفسها على تصرفها وتحلف أغلظ الأيمان أنها ستترك عاداتها السيئة من أجل أن ترضى عليها أمها وتبقى معهم. وفي صباح اليوم التالي ذهبت إلى أمها لتؤكد لها ذلك، ففتحت باب غرفتها بهدوء ومشت على رؤوس أصابعها ووقفت بخضوع واستسلام قربها وكأنها

ارتكبت في حقها خطأً فظيعاً وجاءت تتوسل لأن تغفر لها خطأها وتصفح عنها، فقد قالت بصوت ناشج نادم وهي تميل رأسها إلى طرف:

- أرجوك يا ماما أن لا تزعلي مني. أقسم لك أنني سأحب المدرسة كثيراً وسأستيقظ في الصباح قبل الجميع، أرجوك أن تبقي معنا.

أغلقت أمها خزانة الملابس ووضعت قميصها في الحقيبة المفتوحة الموضوعة على السرير، ثم قرفصت أمام حياة وضمتها إلى صدرها ثم أبعدتها عن حضنها ونظرت في عينيها وهي تقول:

- لا يمكن أن أزعل منك يا حياة، فأنت لم تفعلي أي شيء يزعلني.

- ولكن لماذا تريدين أن ترحلي؟

- عندما تكبرين غداً، ستعرفين السبب.

فرجعت حياة مشوشة الفكر إلى غرفة الجلوس حيث الحقائب الكبيرة المصفوفة عند الباب الخارجي. وجلست بجانب أحمد على الكنبة لا تفهم مما يحدث شيئاً. خرجت أمهم بآخر حقيبة من غرفتها وأغلقت بابها وجلست هي أيضاً بضع لحظات على الكنبة الأخرى تحدق في الأرض وتنتظر أخاها إلى أن ينتهي من تحميل الحقائب في السيارة الواقفة عند مدخل البناية. وقامت من مكانها عندما جاءت لحظة الرحيل، فضمت حياة إلى حضنها وقبلتها وهي تقول:

- سأشتاق إليك كثيراً يا حياة.

- أرجوك يا ماما لا تذهبي. أرجوك، ابقي هنا.

- يجب علي أن أذهب.

أجابت أمها بذلك ثم اتجهت إلى أحمد وطوقت رأسه بيديها وهمت أن تأخذه هو أيضاً في حضنها وتقبله، إلا أنه انتزع نفسه من بين يديها بحركة غاضبة وألقى عليها نظرة لوم وعتاب دون أن يقول شيئاً ثم هرول إلى غرفته وصفق الباب تصفيقاً قوياً. فاتجهت أمها إليها وقبلتها من وجهها وقالت لها:

- عندما تكبرين ستفهمين وتعذرين يا ثريا.

واتجهت إلى الباب الخارجي وغادرت. ففتح أحمد باب غرفته وعاد إلى مكانه وتهاوى على الكنبة بجانب حياة الباكية وتدحرجت دموع كبيرة من عينيه لأول مرة منذ أن سمع بخبر زواج أمه في البارحة.

ذهبت تجلس بين حياة وأحمد، ومدت ذراعها اليمنى حول كتف حياة وذراعها اليسرى حول كتف أحمد وقربتهما إلى نفسها فوضع كل منهما رأسه على صدرها، فاستغرقوا على هذا الوضع في نوم عميق إلى أن جاء العم طاهر بعد الظهر ليأخذهم بأرواحهم المرهقة ووجوههم المشبعة بملوحة الدمع إلى القرية. فطلب منهم أن يضعوا كل ملابسهم وكتبهم وأمتعتهم الشخصية في حقائب وصناديق كرتون، وأضاف:

- ستعيشون معنا في القرية من الآن فصاعداً.

قطعوا طريق حلب وقرية كفرشيل في ظهيرةٍ ترغم حرارتها الناس على الاستنكاف عن أعمالهم واللجوء إلى برودة بيوتهم. وعندما وصلوا، كانت الشمس تختفي وراء البيوت وتترك ظلالاً طويلة خلفها. كانت سميرة قد انتهت تواً من سقي النباتات وغسل أرض الدار، فلوت تقاسيم وجهها، وقالت لهم:

- اخلعوا أحذيتكم، ولا توسخوا الأرض.

واختفت وراء الباب الرئيسي لبيتها المبني على الطريقة الأفرنجية، والمؤلف من خمس غرف وصالون، والمحاذي لغرفة الجدة ومطبخها الذي لم تستعمله منذ سنوات. وكان البيت والغرفة يطلان على أرض دار كبيرة مزينة بأحواض وأصص الورود والنباتات.

اتجهت إلى جدتها التي كانت جالسة بجانب حائط غرفتها، تهز أرجوحة البنت الصغيرة هيفين. وأمسكت يدها الممتلئة بالتجاعيد ورفعتها إلى شفتيها وجبينها ثلاث مرات. فردت الجدة بتقبيل جبينها كأنما تريد محو آثار يدها المتجعدة منه، وبدأت بالكلام عن نفسها كأنما تريد محو آثار ما قالته زوجة ابنها من قلبها:
- لو استطاعت لرمتني مع فراشي إلى الشارع، أنا التي لا أشكل أي عبء عليها ولا أتدخل في أي شأن من شؤونها أو شؤون البيت. أجلس من الصباح إلى المساء في زاويتي هذه وأولادها حولي، أنوّمهم، وأطعمهم، وألعب معهم، ومع كل هذا لا أحصل على رضائها. إنها تجلي بضعة أكواب وأطباق، وتغسل أرض الدار، فتقول هلكت في عمل البيت! لا أعرف كيف تهلك من هذا العمل البسيط وهي تطبخ على نار الغاز، وتسخن الماء بضغط الزر، وتضع الغسيل في غسالة الأوتوماتيك ولا تقترب منه إلا عندما يصبح جاهزاً للنشر. إنها لم تعش أيامي، عندما كنا نغسل كومات الغسيل باليد، ونخبز، ونطبخ، ونسخّن الماء على نار الحطب.

افتقدتْ أختها حياة، فراحت تبحث عنها في كل مكان. لقد وجدتها أخيراً في غرفة الجدة جالسة على الأرض، ساندة ظهرها إلى الحائط، واضعة رأسها على ساعديها الصغيرين اللتين تلفان ركبتيها، وكأنها تخبئ نفسها في قوقعتها، مثل سلحفاة خائفة تلقت ضربة على رأسها. سألتها:
- ماذا تفعلين هنا يا حياة؟
فرفعت حياة رأسها فظهرت عيناها المحمرتين من البكاء، وراحت تبكي مزيداً من البكاء، فحضنتها، وتركتها تبكي وتبكي إلى أن جفت دموعها وهي تمسح شعرها المائل إلى الشقرة. قالت بعد أن هدأ تدفق دموعها:
- تركتنا أمنا وطردنا بيتنا، ولم يعد لنا أم ولا بيت. ليتنا نتحول إلى نحل، كما في أحلامي السابقة التي لم أعد أستطيع استدعاءها، وننام في خليتنا، ونأكل مما تجود به الأزهار علينا... لا يوجد أحد في هذه الدنيا يحبني.
حاولت أن تخفف شعورها بالضياع، فقالت لها مؤكدة:
- لا أريدك أن تفكري بهذه الطريقة يا حياة، فأنا وأحمد والجدة نحبك كثيراً.
قالت حياة بصوت هامس مرتجف:
- تحبونني اليوم، وتكرهونني وتتركونني غداً، كما فعل بابا وماما.
- أنا أحبك اليوم، وسأحبك غداً وبعد مئة سنة أيضاً. وأعدك وعد شرف بأنني لن أكرهك في يوم من الأيام ولن أتركك إلى آخر يوم من عمري. أرجوك أن تصدقيني يا حياة، فأنا لم أكذب عليك مرة واحدة.
وشابكت خنصرها الأيمن بخنصر حياة وهي تكمل:
- سأكون أختك وأمك من اليوم فصاعداً.
وحَبلت بها في لحظات معدودات، وغذتها من روحها ودمها عبر مشيمة سرية. أنجبتها، وأرضعتها، وهدهدتها، وطبطبت على كتفها برقة تليق برضيعة مرهفة، وحكت لها حكايات، وغنت لها: «نام.. نام لأدبح لك طير الحمام» وبعثتها على جناح ذلك الحمام إلى عالم نومها لتنعم صغيرتها بالنوم ثم تفتح عينيها على لمسة يدها وقبلة شفتيها وحنان قلبها. وكبرت صغيرتها في لحظات قليلة وأصبحت أمامها وهي بنت أحد عشر ربيعاً.
ظهر أحمد وكأنه سمعها تقول أنها ستصبح أمه أيضاً، فدعته للجلوس، وأعادت ما قالته لحياة، وسألت رأيه، فأجاب بنبرة نزقة وهو يهمُّ بالوقوف والمغادرة:
- تخلت أمنا الحقيقية عنا واختارت نفسها، وأنت لن تفعلي أحسن منها. توقفي عن لعبة الأطفال هذه.
فأمسكت يده بقوة، وأجلسته من جديد. كانت تعرف أن بساطهم شُدَّ من تحت أقدامهم، ووجدوا أنفسهم على أرض هشّة. كان لا بد لها أن تعيد لهما ثقتهما بنفسيهما، وتمنحهما أرضاً صلبة يستطيعان الوقوف عليها بأمان ومواجهة العالم الكبير بروح متماسكة، فأعدّت نفسها، وجهزتها من خلالها بما سيجابهون العالم، وكيف سيتعاملون مع الناس، فنثرت بذور الخير والقوة وحب الآخرين في قلوبهم: أن لا يعتدوا ولا يسمحوا لأحد أن يعتدي عليهم، أن يكونوا

أقوياء دون أن يكونوا قساة قلوب، أن يكونوا مسالمين دون أن يكونوا جبناء، أن يحبوا الأحلام دون أن يكونوا حالمين كل الوقت، وأن يدركوا ظروفهم ويتعاملوا معها بهدوء وحزم.
واستطاعت بعد الكثير من المحادثات والوعود أن تقنعهما بأنها ستحافظ على وعدها. كانوا جالسين الجلسة المربعة بركب متلامسة: ركبتها اليمنى تلامس ركبة حياة اليسرى، وركبة حياة اليمنى تلامس ركبة أحمد اليسرى، وركبة أحمد اليمنى تلامس ركبتها اليسرى. شابكوا خناصرهم، وقالوا بصوت واحد:
- اتفقنا.
كان تشابك الخناصر بعضها ببعض وهم متربعون على الأرض بركب متلامسة، عادتهم منذ صغرهم إن اتفقوا على أمر من الأمور.

في الليلة التالية، رأت في منامها أنها تمشي في طريق غريبة تحدها أسوارٌ من اليمين وجبالٌ من اليسار، فتسمع فجأة أحمد وحياة يناديان عليها، فتلتفت لتذهب إليهما. ولكن في تلك اللحظة يمتزج بصوتيهما صوتٌ نسائي نزق يناديها من بعيد، فلا تعرف هل الصوت النزق جزءٌ من منامها أم دخيلٌ عليه، فتلتفت حولها باحثة عن صاحبة الصوت الذي يزداد مزيداً من النزق فيجعلها تفتح عينيها.
رأت زوجة عمها تقف في عتبة الغرفة وتقول:
- انهضي لتساعديني في أعمال البيت قبل أن تصل عائلة أخي للغداء.
فنهضت واتجهت إلى المطبخ، وجلت الأطباق والأكواب، ونظفت الحوض ولوح المجلى والأرض، ثم خرجت إلى أرض الدار، فرأت حياة منحنية على المكنسة وخرطوم الماء تغسل الأرض بحركات خرقاء. فأسرعت إليها، وأخذت المكنسة والخرطوم من يديها، وقالت لها:
- اذهبي إلى الشارع والعبي مع بنات عمك.
شاهدت زوجة عمها حياة تركض إلى الخارج، فصاحت:
- إلى أين تذهبين يا حياة؟ عودي إلى عملك.
أكملت حياة طريقها إلى الخارج دون أن تجيب أو تلتفت وراءها.
فأجابتها هي:
- اتركيها تذهب يا مرة عمي، إنها ما تزال صغيرة ولا تجيد أعمال المنزل بعد. أنا سأغسل عنها أرض الدار.
- لم أكن أعرف أنكم أمراء وأنني خادمة عندكم! يا الله تفضلوا بالجلوس ولفوا ساقاً على ساق لأقوم بخدمتكم يا أمراء! يا أولاد الأميرة التي راحت تبحث عن بسطها ورمتكم عليَّ مثل البلاء!
- لا تحرِّفي كلامي، فأنا لم أقل أننا أمراء!
- اخرسي يا أم اللسان الطويل، وإلا جئتك وشطرتك نصفين. هل ما زال لك لسان تنطقين به بعد أن رمتكم أمكم التي تزحلقتم منها رمية الكلاب وراحت تلحق بغريزتها؟ إن كان لسانك طويلاً كل هذا الطول، فلماذا لم تفلتيه على أمك يا بنت....
خرجت الجدة من غرفتها في تلك اللحظة، ووقفت في الباب وهي تقول:
- استحي من نفسك يا سميرة، استحي! ما هذا الكلام البذيء الذي تقولينه؟ فماذا قالت لك المسكينة لتطلقي عليها كل هذه الشتائم؟ إن ما تقولينه عيب كبير، عيب كبير.
- أهذا عيب أم مساندتك لها عيب؟ يا الله سانديها أكثر ليطول لسانها أكثر! يا الله شجعيها لتأتي وتضربني صفعة على وجهي.
شعرت الجدة بأن الشجار سيكبر إن لم تغير أسلوبها، فقالت:
- هؤلاء أيتام يا بنيتي، عامليهم معاملة حسنة واكسبي فيهم ثواباً عسى أن يضعه الله في ميزان حسناتك.

- لماذا لم تقولي لأمهم أن تكبح غريزتها وتكسب فيهم ثواباً؟ هل خفت على مشاعرها الرقيقة أم خفت أن تزعل منك؟
باءت محاولة الجدة بالفشل، وشعرت بأن سميرة ستترك الأولاد وتتهجم عليها، فاستسلمت، واكتفت بالقول:
- الله يهديك، ويعيدك إلى صوابك.
- أترين أنني مجنونة حتى تقولي لي هذا الكلام؟! لن أتكلم الآن على كل حال، فالوقت غير مناسب... ها نحن ذكرنا الجنون فجاءت المجنونة!
قالت سميرة ذلك، عندما رأت صباح تقف في فتحة الباب الخارجي بشعرها الملبد المسدل إلى منتصف ظهرها، والمغطي قسماً من ثوبها المزّهر الطويل الذي تظهر من تحته شحاطتها البلاستيكية المشقوقة من الأمام، وتسأل:
- مالك يا بنت الآغوات! لماذا يصل صوتك إلى آخر القرية؟
لم تبال سميرة بسؤال صباح، فقد تركتها، وتوجهت إلى المطبخ.

تقدمت صباح منها، وقالت لها بعد أن سحبت نفساً عميقاً من سيجارتها، ورفعت رأسها، ونفخت الدخان في الهواء:
- بنت الآغوات لا تحب أحداً! أقول لنفسي في كل مرة أنني لن أخطو عتبة هذا البيت، لكنني أعود وأغير رأيي.
وسكتت وراحت تحدق في الأرض وكأن أفكارها قادتها إلى مكان بعيد، ثم سحبت نفساً آخر من سيجارتها، وقالت بهدوء وهي تحدق في ستارة الدخان:
- لا تردي عليها.
واتجهت بخطوات هادئة إلى غرفة الجدة.

تعلمت أول درس في قول القليل من الكلام، والتزام الكثير من الصمت الذي أصبح ملاذها الآمن بمرور الأيام ليقينها بأنه خالٍ من الأخطاء وزلات اللسان، ومن ثم تجنب العقاب.
لم تغضب من زوجة عمها بقدر ما غضبت من الحقيقة التي كانت تحاول دفنها في قاع ذاكرتها والتي أخرجتها زوجة عمها من قبرها بكفنها الأسود وشبحها المقيت، ورمتها في وجهها: الأم التي حملتهم تسعة شهور والتي تزحلقوا منها كما قالت، رمتهم رمية الكلاب لتلحق بغريزتها. كل ما ارتكبوه من ذنب هو أنهم كانوا أولاداً لرجل مضى في رحلة أبدية، فأثار رحيله حفيظتها، فأدخلتهم قفص الاتهام بدلاً عنه، وحكمت عليهم بالمؤبد دون أن تمنحهم حق الدفاع عن أنفسهم، ثم أدارت لهم ظهرها ومضت في سبيلها.

راقبت في المطبخ كل الخطوات التي تقوم بها زوجة عمها لإعداد الطبخة، وطبعتها على ذاكرتها لتنقله فيما بعد إلى دفتر خصصته لهذا الغرض منذ ذلك اليوم. عادت إلى الغرفة، وجلست بجانب جدتها دون أن تقول شيئاً، قالت الجدة بعد برهة من الزمن:
- لا تزعلي من زوجة عمك يا ثريا، فهي صعبة الطبع وحادة المزاج.
- إنني لا أزعل منها يا جدتي، فليس سهلٌ عليها أن يأتي ثلاثة أشخاص ويعيشوا معها في نفس البيت.
قالت ذلك، وسكتت بضع لحظات ثم سألت جدتها:
- هل صباح مجنونة حقاً يا جدتي؟
فأجابت جدتها:
- كان الناس يضربون المثل بأخلاقها واتزانها، لكنها جُنت بين ليلة وضحاها بعد مقتل صديقتها وفاء قبل نحو ثماني سنوات، فقد استيقظت في الليل وهي تصرخ، وركضت إلى الشارع وهي تتكلم مع صديقتها ومع أشخاص غير موجودين. قال بعضهم أن صدمة قتل وفاء أفقدتها عقلها، وقال بعضهم الآخر أنها أُصيبت بالعين، وقال بعضهم أنها سُحرت، وقال آخرون أنها خاوت الجن. تكلم كلٌ على هواه، لكن النتيجة بقيت واحدة. في البداية كانت تجلس أياماً وليالٍ في وضعية واحدة، تحدق أمامها دون أن تأكل أو تشرب أو حتى تطرف لها عين، وفجأة تخرج وتذهب ملبية

أصواتاً تناديها. وسيطرت عليها فكرة أن أهلها يكرهونها ويريدون تسميمها، فاستنكفت عن تناول أية لقمة في البيت، وإن حدث وأكلت في أوقات صحوتها، فيكون من صنع يدها. لم يتركوا طبيباً ولا شيخاً إلا وعرضوها عليه، فاستفادت قليلاً، لكنها لم تُشفَ شفاءً كاملاً. فهي تتكلم أحياناً كلاماً حكيماً، وتتصرف تصرفات رزينة، ولكنها تفقد عقلها في أحيان أخرى، وتخلط الحابل بالنابل، وتتسكع في الليل، وتتكلم مع نفسها، والناس يجننون العاقل: جاءت المجنونة، وذهبت المجنونة، إلى أن أصبح اسمها صباح المجنونة.
سكتت الجدة. وهزت رأسها في حزن، وعادت إلى سبحتها تاركة عبارتها «الناس يجننون العاقل» ترن في أذنيها وهي تحاول قلب المعادلة وتسأل نفسها: إن منحها ناسها ما يسكّن آلامها، ومنعوها بحبهم واهتمامهم من أن ترمي نفسها في النار التي ستلتهم عقلها وتدخلها عالم اللاتوازن، فهل كانت صباح ستؤول إلى ما آلت إليه الآن؟ وإن وجدت يداً مواسية تطبطب عليها، وصدراً دافئاً يأويها من هروبها، وأذناً صاغية تسمع لشكواها، فهل كانت ستهرب إلى عالم الجنون؟
أرادت أن تسأل جدتها عن قصة وفاء، لكنها تذكرت وجوب عودتها إلى المطبخ.

كانت تلك الأفكار تستوطن عقلها وهي تغسل الفاكهة، وتضعها في طبق كبير، حين دخلت ابنتا عمها نسرين وشيرين بصحبة حياة، وطلبتا من أمهما بمرح صاخب قطعة من البطيخ الذي كانت تقطعه وتصفه في الطبق، فقطعت الأم قطعتين من البطيخ وأعطت كل منهما قطعة.
رأت حياة تستند إلى باب المطبخ، وتنقِّل نظرتها من نسرين وشيرين إلى زوجة عمها اللامبالية في وقوفها، ومن زوجة عمها إلى نسرين وشيرين، تطلب بنظرتها ما تشتهيه نفسها دون أن تجرؤ على فتح فمها. فأحست بيد خفية تنزع سكين سميرة من يدها، وتطعن قلبها، وتقطعه، وتبعثره في أرجاء المطبخ. فاعترتها رغبة صارخة في أن ترمي الطبق بما فيه على الأرض، وتليه بطبق آخر وآخر، وبالكوب المليء بالماء والسكاكين المصفوفة فيه إلى أن يمتلئ المكان بشظايا الزجاج، ثم تلقي على المكان ومن فيها نظرة تحرق الأخضر قبل اليابس، وتمسك بيد أختها الصغيرة، وتخرج إلى حيث لا تدري، لكن وجه أمها ظهر فجأة من بين ضباب غضبها: «شاهدي أيتها الأم آثار اختيارك درباً سهلاً، لتدركي أنك حولت دربنا إلى سرداب نتخبط في عتمته تائهين عن مداخله ومخارجه! فكيف لنا أن نجد مكاناً فيه لنحوله إلى عالم نتأقلم معه ونعيش فيه؟»
وقف طيف حياة على كتفها اليمنى، وطيف صباح على كتفها اليسرى، فأثقلاهما وأثقلا روحها وهي تسأل نفسها: «لماذا تقسى قلوب الناس وتتحول إلى صخور إن تعلق الأمر بالبعض؟ أليدفعونه باتجاه النار والجنون؟» أزاحت زوجة عمها من كتفها بصمت، وأبعدتها عن الطبق فأطاعت سميرة وواربت في وقفتها، ثم مدّت يدها إلى قطعة بطيخ، واتجهت بها إلى حياة، وأعطتها بوجه ضاحك وروح محطمة:
- كليها يا حياة، إنها لذيذة.
راقبت سميرة حركاتها في وقفتها المواربة، ثم لوت تقاسيم وجهها، وزمت شفتيها دون أن تعلّق بأية كلمة.
لم تبالِ بليّ تقاسيم وجهها. فقد عادت إلى داخلها تفكر في أشجار اُجتثت من جذورها وزُرعت في أرض غريبة، لا جذورها قبلت التربة الجديدة وامتدت فيها لتجمع ما يلزمها للاستمرار في العيش، ولا التربة الجديدة قبلتها وزودتها بما تحتاجه، فذوت، وانحنت. كان عليها أن تستنزف كل طاقتها من أجل أخيها وأختها للصمود في وجه الموت المهدد، فمدّت جذورها عميقاً باحثة عن ماءٍ يبقيها على قيد الحياة ويمد أوراقها بالخضرة لتستطيع أخذهما تحت ظلها. نما شعور في داخلها، وأصبح جزءاً من كيانها بأنهم يشكلون حالة استثنائية بعد أن تخلت تربتهم عنهم، ورمت جذورهم في وجوههم.
كان عليها أن تقاوم الانكسار ولا تدعه يتسلل إلى قلبها وقلبيهما، فقد كانت تكره أن تأخذ دور الضحية التي لا حول لها ولا قوة، وكانت تنظر إلى ما يملكونه وليس إلى ما فقدوه. شكرت الله على أن والدهم ترك لهم ما يكفي ليحميهم من

مذلة الحاجة إلى أي كان، وأنهم لا يحتاجون إلى فتح أيديهم لتسول بعض اللقيمات أو المزق من الملابس، فيتعطف بها الناس عليهم، ويمنّنونهم بها طوال حياتهم.

كانت تعرف أنها لا تملك عصاً سحرية تغير بها ظروف حياتهم، وكانت تعرف أيضاً أن هذه الظروف لن تتغير من تلقاء نفسها، لذلك كان عليها أن تتكيف معها، وتقنعهما هما أيضاً بالتكيّف. جاءتها حياة باكية وقالت لها بصوت مرتجف:

- إن شيرين لا تعطيني لعبتها لكي ألعب بها قليلاً.

فأخرجت كل ألعاب حياة من أيام والدها، وعرضت مزايا كل واحدة منها، مثل بائعٍ يريد توريط زبون بشراء سلعه، لكن حياة أصرت على رأيها:

- كل هذه الألعاب قديمة يا ثريا. أريد لعبتها الناعمة لأحضنها.

فقالت لها:

- ما رأيك أن أصنع لك لعبة أجمل من لعبتها؟

فهزت حياتها رأسها ومسحت الدموع عن عينيها.

طلبت من جدتها صوفاً وقماشاً صالحاً لتحويله إلى لعبة ناعمة، ففتحت الجدة صرَّتها البيضاء المزركشة بالأزرق أمامها لتختار ما يعجبها. وحين كانت تخرج صوفاً من الوسادة، جاءت نسرين بلعبة شيرين ووضعتها في حضن حياة وهي تقول:

- سرقتُ لك اللعبة من شيرين.

فأخذت اللعبة من يد حياة وأعادتها إلى نسرين وهي تقول:

- لا يجوز أن تسرقي أي شيء يا نسرين، وأعيدي اللعبة إلى أختك ولا تفعلي مثل هذه الأشياء مرة أخرى. هل فهمت؟

فهزت نسرين رأسها، وركضت باللعبة إلى البيت ورمتها في أرض الدار، وعادت سريعاً لتراقبها كيف تحول القماش والصوف إلى لعبة ناعمة. كانت نسرين تقضي معظم أوقاتها مع حياة وأحمد، وتلعب معهما، وتدافع عنهما في نزاعاتهما مع الأطفال الأخرين، حتى لقد أبدت أكثر من مرة عن رغبتها بأن تبيت عندهم في الغرفة، إلا أنها كانت تجيبها في كل مرة بأنها تستطيع أن تقضي كل النهار معهم أما في الليل فيجب أن تذهب إلى بيتها.

خاطت الرأس والجذع والأطراف من قماش أبيض وحشتها بصوف الوسادة. صنعت باروكة سوداء، وثبتتها بالإبرة على الرأس، وأسدلت الشعر الأسود إلى منتصف الظهر. طرزت العينين بالأسود، والفم بالأحمر، والأنف والأذنين بالأبيض، وخاطت ثوباً من قماش أخضر وألبسته للعبة، وقالت:

- هذه هي لعبتك يا حياة.

فارتمت حياة عليها وهي تقول:

- شكراً يا أحلى ثريا في العالم.

ثم ابتعدت، وحضنت لعبتها، وراحت تحدق في سقف الغرفة.

- ألم تعجبك اللعبة يا حياة.

- إنها جميلة جداً يا ثريا، لكنني لا أعرف ماذا أسميها.

اقترحت أسماءً عديدة، من بينها اسم أحلام. فحدقت حياة في لعبتها، واختارت:

- أحلام!!! ستكون معي إلى الأبد!

وقبّلت لعبتها أحلام، وحضنتها، ووقفت ترقص وتدور حول نفسها. فقد حل الربيع في داخلها، فأشرق قلبُها شمساً أضاءت وجهها، ودغدغت رئتيها، فانطلقت ضحكاتها عصافيرَ مرحة تحلق فوق رؤوسهم، وتدخل السرور إلى قلوبهم.

كانت الفصول تتعاقب في داخل حياة بمنأى عن فصول السنة، يأتي فصل ليحل محل آخر، ويغادر ليخلي مكانه للقادم. لقد حلَّ شتاؤها يوم الأمس على غير موعده، فحوّل عالم داخلها إلى صقيع ممتد من أقاصي عقلها إلى أقاصي روحها بعد أن عرّى أشجاره من الخضار، وسكنه بغيوم داكنة أطلقت قذائف رعدها وشرارات برقها، وأكملت بوابل مطرها وبرَدها. لم يكن بمقدورها منذ ذلك الوقت استجلاب شمس ربيع تذيب صقيع داخلها، وتعيد الخضار إلى أشجاره، فأدركت أن ربيعها الماضي كان في غاية القصر، وأنه رحل رحيلاً أبدياً، وسيكون انتظاره انتظاراً عبثياً، فالأفق لا ينذر إلا بشتاءٍ تالٍ يلي شتاءها، وآخر يلي التالي.
قادها عريسها إلى غرفة النوم البيضاء حيث المرايا تعكس الشموع الملونة وتضاعف إضاءتها. لقد حلمت به كثيراً وهو يطوقها بذراعه ويقودها إلى عشهما الزوجي، وحلمت كثيراً بتلك الشموع تضيء روحيهما وهما يستلقيان أحدهما بين ذراعي الآخر، لكنها دخلت في تلك اللحظة بقلب خائف وعين منكسرة ناوية إخبار عريسها بفجيعتها قبل أن يصبح زوجها.
أجلسها عصام على حافة السرير وهو يشعر بأنه ولد للتو، فقط ليكبر لها، ويعيش معها عمر عسل طويل. ووعدها بأن يستمع إلى ما تريد إخباره فيما بعد، وحاول أن يسكتها وينسيها كل شيء آخر فترك شفتيه تتحسسان يدها ورقبتها وترك يديه تتلمسان نعومة وجهها وجسدها. ثم وضع شفتيه على شفتيها، فامتزجت أنفاسه بأنفاسها، لكنها ابتعدت وأصرت أن يسمعها أولاً، فأخذ يدها بين راحتيه وأصغى إليها.

سحب يديه. هرب دمه من عروقه، وتركه تمثالاً جالساً على السرير الزوجي، سانداً ردفيه على حافته، مشابكاً يديه بين ساقيه دون أن تطرف عيناه أو ينطق فمه، فهو لو غُرز خنجرٌ في صدره، لما تدفقت قطرة دم منه. لقد ضاع حلمه بعمر عسل طويل إلى الأبد دون أن يتذوق من ذلك العسل شهراً واحداً، ولا مجرد ساعة واحدة، فقد تذوق بدلاً منه مرارة تشبه مرارة العلقم انتشرت في خلايا جسده كلها، وأشعرته بالغثيان. أسند كوعيه على ساقيه، وخبأ رأسه بين يديه وهو يشعر بحرقةٍ تجري بجريان الدم في عروقه وتعشش في قلبه وهو يرى عالمه الذي لم يدخله بعد ينهار من أساسه وتنهار معه ثقتُه بها وبطبيعتها الطفولية: أكانت تتظاهر بالبراءة إلى أن توقعه في شباكها؟ أم أراد هو أن يرى فيها براءة غير موجودة ويبني عليها أوهامه الهشة؟ حمل سؤاله وحبه المنكسر، وخرج من غرفة النوم. صفق الباب الخارجي وراءه، وراح يجوب الشوارع بحثاً عن الحلم الذي ضاع منه في طرفة عين.

أرادت أن تمنعه من الخروج، أرادت أن تأخذه في حضنها وتبكي معه، عليه وعلى نفسها، إلا أنها بقيت جالسة مكانها دون حراك، تفكر في الشرخ الذي أصاب عالمها والذي يهدد بتداعيه في أية لحظة: أيجب أن تُهزم الأشياء الحقيقية لتفرغ الساحة للأشياء المزيفة؟ ألأن المشاعر الصادقة تذكر الناس بزيفهم وتسطحهم، لذلك يحاولون إطفاءها كما يطفئون شمعة اشتعلت للتو؟
ذابت الشموع وانطفأت دون أن تشهد حبهما: أي الشوارع تسمع أنين قلبه؟ وأي الأرصفة تشهد تيه خطواته؟ لقد اعتراها تعب شديد من الجلوس والألم، فاستلقت في السرير فاتحة عينيها على مصراعيهما، ومرهفة أذنيها لأي صوت يأتي من الخارج.
عندما اقترب الليل من هزيعه الأخير، سمعت وقع أقدامه وهو يصعد السلّم، ويقف أمام الباب، ويدير المفتاح في القفل.

عاد عصام إلى البيت دون أن يعثر على حلمه الضائع. أضاء مصباح المدخل، واتجه بخطى مترنحة إلى غرفة النوم. جلس على حافة السرير، وقرَّب رأسه من رأس عروسه، فامتلأت فتحتي أنفها برائحة الكحول وأحست بطعمه في

حلقها. ثم استلقى بجانبها، وراح يحدق إلى وجهها طويلاً ودموع تائهة تلمع في عينيه وسط الظلام، إلا أنه ابتعد منتفضاً عندما فتحت عينيها، وخرج بصمت إلى غرفة الأولاد التي كان قد أثثها قبل مجيئهم.
استلقى على الأرض بجانب أرجوحة طفل المستقبل، وأغلق عينيه بساعده. لقد خُيل إليه أنه راح في غفوة عندما فتح عينيه فجأة، ونهض سريعاً من مكانه، وكأنه تذكر عملاً في غاية الأهمية يجب عليه القيام به، فاتجه إلى غرفة الجلوس، وتهاوى على الكنبة دون أن يغير طقم عرسه، وخبأ رأسه بين يديه كأنما يريد حماية نفسه من ضربات موجهة إليه: أي جريمة ارتكب بحقها لتعاقبه هذا العقاب؟ ألأنه أحبها كما لم يحب امرأة من قبل؟ أم لأنه منحها ثقته؟ هل العلة تكمن فيه أم فيها؟ ماذا سيقول لنفسه؟ وماذا سيقول لأهله وناسه؟ لو أن حبه لها لفظ نفَسه الأخير، لارتاح واستطاع أخذ موقف تقتضيه الحال، لكن حبه لم يمت، بل جُرح جرحاً عصياً على الالتئام.
بقي مخبئاً رأسه بين يديه إلى ظهيرة اليوم التالي إلى أن دخلت الغرفة، فقام من مكانه، واتجه إلى غرفة الأولاد، وارتدى معطفه، وخرج من البيت دون أن يخبر عن مكان وجهته.

كانت ثريا قد نسيت الوقت وهي تحضن وسادة أختها حياة، وتتجول بأفكارها في متاهات الماضي. قامت من مكانها، واتجهت إلى غرفة أخيها أحمد للاطمئنان عليه. كانت تقاطيع وجهه النائم تدل على أنه يتألم في نومه أيضاً رغم مسكنات الألم الثقيلة التي يأخذها. كان قد رمى اللحاف عن جسده، وكوّر نفسه في سريره. غطته، وانحنت فوقه، وطبعت قبلة على رأسه، متمنية أن يهنأ بنومٍ هادئ ومريح، ثم تسللت على رؤوس أصابعها، وخرجت من غرفته، وقصدت غرفتها، وجلست على حافة سريرها، فقادتها أفكارها من جديد إلى متاهات الماضي البعيد.
كانت جالسة بجانب جدتها التي اعتادت الجلوس في ظل الغرفة وهي تهز أرجوحة حفيدتها الصغيرة أو تسحب حبات مسبحتها بهدوء، كانت جالسة بجانبها ساندة رأسها إلى الحائط الإسمنتي تحدق في السماء، وتفكر في الجراح التي تركتها أمها برحيلها. لم يكن أحمد قد عاد من ملعب القرية بعد أن خرج وقت العصر، ولا حياة من اللعب أمام البيت مع ابنتي عمها نسرين وشيرين وبنات الجيران.
جعلها رنين الجرس المستمر والطرق النزق على الباب الخارجي، تثب بحركة واحدة وتقف على أرجلها، وتهرول باتجاه الباب. فتحت الباب وإذا بالجارة تدخل دون أن تسلم عليها أو تنظر باتجاهها حتى. دخلت الجارة وهي تنادي سميرة، وتمسك بيد ابنها الصغير الذي كان يرتدي قميصاً أزرق مقلماً بالأحمر فوق بنطال قصير أزرق، وكانت طبقة من غبار الطرقات والملاعب تغطيه من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، وكأنه سبح في حوض من التراب وخرج منه للتو. وكانت آثار الدموع التي سالت على وجهه وجرفت الغبار في طريقها تبدو مثل جدول ماء جاف جرى على أرض ترابية. وكان الدم يتدفق من فوهة جرح مفتوح على صدغه الأيمن، ويختلط بالغبار، فيتغير لونه إلى أحمر ترابي وهو يسير على أذنه ورقبته، وينقط على قميصه المغبَّر. صاحت أمه تقول بعد أن وقفت في وسط أرض الدار:
- إن كنتم لا تستطيعون تربية ابنكم الشيطان، فأنا سأربيه بطريقتي.
لحق أحمد بالولد وأمه، ووقف بالقرب منهما، ودافع عن نفسه، مثل مذنب دخل شبكة الاتهام بإرادته:
- هو الذي بدأ بضربي. كان يضرب محمد، وعندما قلت له أن يتوقف عن ضربه، تركه وصفعني على وجهي، فرددت له الصفعة. دفعني فوقعتُ على الأرض، فقمت ودفعته أنا أيضاً، فتعثر واصطدم رأسه بالعمود وانكسر. لم أقصد كسر رأسه ولا أذيته.
وأطلق ساقيه للريح، عندما شاهد زوجة عمه تستعد للهجوم عليه، إلا أنه لم يكن بسرعة الأيل حين يجد نفسه طريدة حيوان أقوى، فتتحول سيقانه إلى أجنحة تكاد تلامس الأرض وهو يقفز قفزات عالية ويقطع مسافات خيالية. فقد أصابت الشحاطة كتفه، فأطلق صرخة قصيرة، واختفى وراء الباب الخارجي.

أجلست زوجة عمها الولد المجروح على الكرسي، وأمرتها قائلة:
- أحضري لي القطن والمطهر والشاش.
ثم داوت جرحه، ولفت الشاش حول رأسه مثل عمامة مؤذن القرية وهي تقول لجارتها:
- تأكدي من أن عمه سيعاقبه، ولن يتعرض لأحد بعد هذا اليوم.

وفي المساء اشتكت لزوجها من أن الجيران يهاجمونها في عقر دارها بسبب عنتر زمانه أحمد، وأضافت:
- إنني لا أستطيع أن أتحمل أكثر مما تحملته إلى الآن، وعليك أن تجد حلاً وإلا لن أبقى في هذا البيت يوماً واحداً.
فأجابها العم طاهر مؤكداً على رأيه الذي كانت تعرفه:
- إن أمي وأولاد أخي سيعيشون في حمايتي إلى يوم مماتي.
فقالت زوجته:
- طبعاً، ماذا يهمك أنت إن هاجمنا الناس في بيتنا من أجل عنتر الزمان!
فامتقع وجه العم طاهر، واتقدت عيناه غضباً، فأمسك علبة دخانه، وقذفها باتجاه أحمد بكل قوته وهو يهدد:
- إن عملت أي مشكلة أخرى سأكسر رأسك، هل فهمت؟
تحول أحمد إلى تمثال حجري جالس في ساحة عامة منذ دهور، عيناه مثبتتان على الأرض كأنما تريدان اختراقها والغوص فيها لاكتشاف ما في داخلها، ويداه مضمومتان تطوق إحداهما الأخرى وتستريحان بين ساقيه المطويتين تحت جسده.
أمسكت سميرة يدي ابنتيها، وسحبتهما وراءها باتجاه بيتها لتلملم أمتعتها وتغادر إلى بيت أهلها. وكانت نسرين تحاول التشبث بأي شيء تصل إليه يدها، وتصرخ:
- أريد البقاء مع جدتي وأولاد عمي.
واستطاعت أخيراً أن تفلت نفسها من يد أمها، وركضت باتجاه أحمد. وجلست أمامه تحدق بعينين دامعتين وشفتين مرتجفتين إلى وجهه المستوطَن بالشحوب، وظلت تحدق إليه إلى أن عاد دمه إلى التدفق في عروقه وأعاد لونه الطبيعي إلى وجهه.

قالت بعد أن اطمأنت على أن أحمد عاد إلى وضع شبه طبيعي:
- إنني أتفهم رغبتها يا عمي، فالمرأة بطبيعتها تريد أن تعيش مع أولادها وزوجها في مملكتها الصغيرة دون دخلاء عليها. لذلك أرجوك يا عمي أن تطلب من مستأجري بيتنا أن يخلوا لنا البيت لنسكن فيه.
- لا أريدك أن تقولي مثل هذا الكلام يا ثريا. كيف لي أن أترككم تعيشوا وحدكم وأنتم ما زلتم صغاراً في العمر؟ وماذا سيقول الناس عني؟ تخلى عن أيتام أخيه ارضاءً لزوجته؟
- لكن ارضاء الناس غاية لا تُدرك يا عمي، ويجب أن نعيش حياتنا كما نريد نحن لا كما يريد الناس. وأنا لا أريد أن نكون السبب في المشاكل بينك وبين زوجتك. وبيتنا لا يبعد كثيراً من هنا، فهو يقع على مرمى حجر. وتستطيع جدتي أن تذهب وتعيش معنا، إن أرادت ذلك.
- ليقول الناس أنني طردت أمي وطردت أيتام أخي من أجل خاطر عيون زوجتي؟! إن هذا البيت الذي نعيش فيه هو بيت جدتك، وإذا كان يجب على أحد أن يخرج منه، فنحن سنخرج.

فتدخلت الجدة قائلة:
- إن هذا البيت هو بيتك وبيت أولادك وزوجتك يا طاهر وأنا أعيش عندكم إلى أن يأخذ الله أمانته. ولكن هذا الوضع لا يريحك ولا يريح زوجتك ولا يريح هؤلاء المساكين أيضاً. ولأنك لا ترضى أن تتخلى عني وعنهم فأنا أقول يجب أن تفصل غرفتي ومساحة صغيرة من أرض الدار عن بيتكم.

- لكن يا أمي...
- هذا أمر يا طاهر، ويجب أن تنفذه، فنحن لسنا في حاجة إلى مصائب أخرى. أنا ذاهبة الآن إلى زوجتك لأقول لها هذا الكلام ولأعدلها عن قرار ذهابها إلى بيت أهلها.
- أمرك مطاع يا أمي، غداً سأجيء بالبنّاء ليفصل غرفتك وهذه المساحة عن البيت.

استيقظت في منتصف تلك الليلة، خائفة من شبح صباح التي وقعت عليها بعد أن تعثرت بفراشها في الضوء الخافت، فسألتها وقد ارتاعت أشد الارتياع:
- ماذا تفعلين هنا يا صباح؟ وكيف دخلت؟
فأجابت صباح بصوت هامس:
- جلبت أحمد من ملعب القرية يا ثريا. يبدو أنه يمشي أثناء نومه، لأنني تكلمت معه فلم يرد علي.
لم تصدقها، فنقلت نظرتها بين صباح وهي تظن أنها في إحدى نوبات فقدان صوابها، وبين أخيها الراقد في فراشه، وسألتها:
- أأنت متأكدة مما تقولين يا صباح؟
بدا لها أن صباح انزعجت من سؤالها أو لم تتوقعه منها، عندما أجابت:
- أنا لا مصلحة لي في الكذب يا ثريا. وإن كنت أكذب، فكيف دخلت البيت والغرفة إذن وبابهما موصدان. أنصحك بأن تقفلي الباب بالمفتاح في الليل وتخبئيه في مكان لا يعرفه أحمد.
قالت صباح ذلك، وغادرت دون أن تقول كلمة أخرى.
فكرتْ: إن كانت صباح تصدق فيما تقول، فماذا كان يفعل أحمد في مكان شجاره مع رفيقه؟ أكان يبحث عما فقده خلال عمره القصير؟ أم كان يريد الانتقام من رفيقه الذي تسبب في مشكلة بينه وبين عمه؟

لقد عمَّ الهدوء المرتجى، وارتخت الأعصاب بعد بناء الجدار الفاصل، فعادت ابتسامة مشوبة بالانكسار إلى وجوههم وراحة مشحونة بقلق خفي إلى قلوبهم، راغبين في العيش والتعايش مع ظروفهم التي لم يكن لهم يدُ في خلقها، وإنما وجدوا أنفسهم بين ليلة وضحاها في خضمها. فقد كانوا ما يزالون صغاراً في العمر وكانت طاقاتهم ما تزال في أوجها للتكيّف والتعايش مع تلك الظروف.
جلسوا حول سفرة الغداء. وضعت الجدة ملعقة من الرز بيدها المرتجفة في فمها، ومدحتها بمزاح ساخر:
- إنك طباخة ماهرة يا ثريا، فالرز الذي طبخته يناسبني جداً لسرعة ذوبانه في فمي الخالي من الأسنان.
وراح أحمد وحياة يسخران من منظره الذي يؤلم العين، ويطرد الشهية شر طردة، لكنهما قالا في آخر الأمر:
- سنهاجمه ونأكله مهما حصل.
فأجابت وهي تصطنع وقاراً على وجهها:
- هذه هي أول مرة أطبخ فيها، ولكنني أعدكم بأنكم ستأكلون أصابعكم مع الرز الذي سأطبخه في المرات القادمة.
ووافقتها الجدة على رأيها ولخصت تجرة حياتها كلها في عبارة واحدة:
- أنا متأكدة من ذلك يا بنيتي، فالإنسان يتعلم من أخطائه.

وصل العم طاهر، وكعادته بعد أن فصل البيتين دخل عندهم أولاً. تهاوى على الكنبة، فقفز قلبها إلى حلقها، وبدأ يدق بتوق خائف إلى ما ستنطق به شفتاه، فقد كانت تعرف أنه يحمل نتيجة نجاحها أو رسوبها في المرحلة الإعدادية، فتمنت أن ينطق بما عنده ليعود قلبها إلى مكانه، ويهدِّئَ من دقاته التي أصمّت أذنيها. تاهت نظرتها، واستقرت على المزهرية الموضوعة على الطاولة الصغيرة، فودت أن تأخذ منها الوردة الصفراء وتبدأ بنزع أوراقها، ورقة للنجاح

وورقة للرسوب، إلى أن تخبرها آخر ورقة بنتيجتها، لكنها لم تقدر حتى على فعل ذلك، فبدأت تعد الثواني بإثارةٍ استبدت بداخلها وهي تحاول الحفاظ على هدوئها الخارجي. فسألت أخيراً بصوت خافت لا تكاد تسمعه هي نفسها:
- هل نجحت؟
وشعرت بنار الخوف تضطرم في داخلها، وتلقي بحرارتها حولها، فتدحرجت حبات العرق على جبينها ورقبتها، وسالت بين نهديها وعلى جانبي عمودها الفقري وهي تنتظر الجواب، وتعرف في الوقت نفسه أنه يتعمد المماطلة ويتظاهر باللامبالاة. لقد قطب عمها حاجبيه راسماً علامات الغضب على وجهه تنذرها بالرسوب، لكنه أعقبها بهتاف مرح:
- نجحتِ بامتياز.
فانطفأت نار الخوف، فشعرت ببرودة حبات العرق على وجهها وجسدها، وكأنها التهمت علبة الآيس كريم كلها التي جلبها معه عمها.
إن كانت تريد إكمال دراستها، فعليها أن تعود إلى حلب لعدم توفر الدراسة الثانوية في القرية. كانت تعرف أن الأمر لا يتعلق برغبتها هي، وكانت تعرف أن عمها لن يترك عمله وعائلته ليعيش من أجلها في مدينة بعيدة، وأنه لن يتركهم يعيشون وحدهم في مدينة كبيرة وهم ما يزالون في حاجة إلى وصاية الكبار. بدا لها أن أحمد شعر بما يدور في خاطرها، عندما قال لجدته متوسلاً:
- أرجوك يا جدتي أن تذهبي وتعيشي معنا في حلب لتكمل ثريا تعليمها ونذهب أنا وثريا إلى مدرستنا القديمة.
فأطرقت الجدة إلى الأرض وهلة من الزمن، ثم أجابت:
- لقد قضيت كل عمري في هذا البيت وفي هذه القرية. وعندما أذهب لزيارة أحد أعمامكم، لا أصدق متى أعود لأنام في فراشي، وأشم رائحة قريتي، وأرى شمسها وطبيعتها. كنت دائماً أدعو الله عز وجل أن أعيش في عشي هذا إلى آخر يوم في حياتي، وأن أخرج منه فقط على ظهري إلى مكان راحتي الأبدية، لكن راح الكثير من العمر وبقي القليل، ومستقبلكم أهم من راحتي، وسأعوّد نفسي على العيش في تلك البيوت الشبيهة بعلب الكبريت.

استغربت في صباح اليوم التالي من بقاء جدتها في سريرها، فقد اعتادت الجدة أن تستيقظ باكراً، وتصلي الفجر، وتجلس في أرض الدار تسحب حبات مسبحتها في انتظار استيقاظهم. لم تكن تعرف أن دعاء جدتها بأن تخرج من بيتها إلى مكان راحتها الأبدية، قد أُستجيب، فنادتها وهزتها من كتفها، لكنها لم تفتح عينيها. لمست وجهها، فانتقلت برودته إلى أطراف أصابعها، فسرى خوف غامض في جسدها حثها على الإسراع إلى بيت عمها الذي كان قد غادر لعمله، فرجعت مع زوجة عمها التي لمست وجه حماتها، وقالت:
- لقد ماتت.
بكت جدتها، وحلمها المتبخر في الهواء، وانسداد طريقها عند مدخل القرية بصخرة كبيرة تعجز كل أيدي رجالها عن زحزحتها، فتشابكت خيوط حياتها كخيوط مغزل انكسر فجأة، ولم تعد تعثر على رأس الخيط لتعيده كما كان. ألأنها أحبت جدتها حتى تركتها هي أيضاً وحيدة تتخبط في وعورة حياتها؟ ألأنها وجدت فيها صدراً حنوناً يشفق عليها وعلى أختها وأخيها حتى تحول الموت إلى نسر افترسها، وحملها بين براثنه، وطار بها إلى السماء البعيدة؟ أيجب أن تفرمل عواطفها تجاه الشخصين الذين تحبهما أكثر من نفسها، خوفاً عليهما من أي مكروه؟ فهي أحبت والدها بشغف، فخطفه ملك الموت. أحبت أمها بشغف أكبر، فخطفها رجل. أحبت جدتها، فها هو التراب يخطفها. ألانها كانت تحبهم، وتراهم بر أمان لها حتى تركوها وراءهم تتخبط في دروب حياتها؟
كانت تحاول إطفاء ظمأ أختها وأخيها بمنحهما الحنان، وتبقى هي عطشى لدفقة منه. كان جزءٌ منها ما يزال طفلاً يفتقد صدراً حنوناً ويداً مواسية. التفتت حولها، ولم تر مفقودها، فتدخّل جزؤها البالغ، وكبح طفولتها، وأمرها بالاختفاء إلى الأبد.

كانت واقفة أمام موقد الغاز تطبخ العشاء والأحزان تتلاعب بها. ملأت طبقاً من الطعام، وتوجهت به إلى بيت عمها الذي كان قد بقي وحيداً، بعد أن ذهبت زوجته مع بناتها لقضاء أسبوع عند أهلها. فأوقفها صوت غناء يصدر من غرفة الجلوس تخلل كيانها، ودغدغ عواطفها المشرَّدة:

هأنا ذا أنوح منذ ليلة ربنا العظيم، يا عايشتي
يا أميرة الأميرات، يا عروس اليوم والليلة
وأترك دموعاً دامية تنهمر من عينيّ، مثل وابل الربيع
ولا أستطيع إبعاد عزرائيل الموت عنك، قاصد الأرواح
فلا المال الوفير ينفع ولا السلطان المهيب

جاء الصباح عايشتي، جاء الصباح
آه، أيها الأصدقاء والجيران
أيقظوا عايشتي من نومها الصباحي
وضعوا منديلاً حريرياً بين أصابعها
واتركوها تتصدر دبكة الشباب والشابات

أيها الأصدقاء والجيران والأقرباء
تعالوا وارفعوا معي أكف الضراعة
وارجوا من مالك السموات والأرض
روح غزالتي

بقيت واقفة وعيناها موجهتان إلى سواد السماء المزين بالنجوم، والنسيم يلاعب شعرها ووجهها، وحزن الموسيقا المنبعثة من داخل البيت يعمِّق حزنها ويضيّق عليها آلامها إلى أن توقف صوت المغني، فاستيقظت روحها، وأدركت أنها ما تزال واقفة أمام بيت عمها، فدخلت، وأبدت إعجابها بالموسيقا التي توقفت للتو، وأرادت أن تضيف شيئاً آخر، إلا أنها ابتلعته مثل لقمة مرة، وسألت عن الأغنية، فأجاب عمها:
- إنها مرثية مغناة من المراثي الفولكلورية. إن الكثيرين من الناس يعتبرون الأغاني الفولكلورية غير مناسبة لروح العصر ولا يسمعونها، لكنني أراها أجمل من كل الأغاني الشائعة في الوقت الحاضر.
وراح يتحدث عن الفولكلور ويريها كاسيتات الأغاني الفولكلورية المصفوفة على رف خاص في خزانة الكتب، ثم انتقل إلى الحديث عن الأدب وهو يشير إلى كتبه بافتخار.
كانت تنظف تلك الغرفة، وتمسح الغبار عن الخزانة والكتب والكاسيتات خلال أكثر من شهر، إلا أنها لم تتوقف مرة واحدة لتقرأ عناوين الكتب وأسماء كتّابها حتى ذلك المساء.
لقد أدخلها عمها بأحاديثه عالماً فسيحاً، فخرجت من جلدها الضيق وتركته وراءها، مثل حية سئمت جلدها القديم، وأرادت أن تتزين بجديد يناسبها ويحميها أكثر. أعاد إليها الهدوء، وأعادها إلى حيث كانت، وشرح لها الظروف التي أجبرته على بناء الحائط الذي أشعره بأنه رمى بواجبه تجاههم عرضه. لقد شعرت بأن فارق العمر بينها وبين عمها يتضاءل وهي ترى الوجه الآخر له بعد أن خرج من ثوب وصايته، ووقف على أرض نثرها ببذور صداقة قادمة.

بقيت تقرأ في رواية استعارتها منه إلى ساعة متأخرة من الليل إلى أن تخدرت أصابعها، وبدأت الكلمات تتراقص أمام عينيها، ووقع الكتاب على صدرها. وحاولت، في اليوم التالي، إنهاء عمل المنزل بسرعة وهي تتشوق لقراءة

الرواية التي بدأتها. دخلت عالم الرواية كمن يدخل مملكة جديدة لم يرَها من قبل، وعاشت الأحداث مع الأبطال، وفرحت لأفراحهم، وبكت لحرمانهم، وتألمت لآلامهم.
لقد ازداد شغفها لقراءة روايات أخرى والتعرف إلى عوالم أخرى وأشخاص آخرين، فصارت تهجر عالمها فترة مؤقتة، وتدخل عالم الروايات وتعيش فيه، ثم تعود إلى عالمها، وتتقبل ظروفها أكثر، وتراها بنظرة جديدة، مدركة أن العالم أوسع من عالمها الصغير المؤلف من البيت والقرية والوجوه المحدودة التي تراها كل يوم. فغضت النظر عن المصائب التي حاقت بها، وسدت الطريق أمام الكراهية لولوج قلبها كي تنعم بالراحة وتغدق بها على أخيها وأختها. وإن حدث وشعرت بالاستياء في بعض الأحيان، أسرعت لنبذه وإدخاله عالم النسيان والتمسك بخيوط المستقبل، حتى لقد أوهمت نفسها بأن حياة المرء تشبه تعاقب الفصول، وأنها تعيش الآن في فصل غائم، وسيأتي فصل يحمل صفاءً في طياته. وأقنعت نفسها بأن ما حدث حتى الآن هو ظرف عابر سيصبح ذكرى في المستقبل القريب، فترفعت عنه، ووضعته وراء ظهرها، ووطأت بعضه بقدمها، غير عالمة أن ما ترميه وراء ظهرها سيغدر بها ويطعنها من الخلف، وأن ما تطأه بقدمها سيثور عليها، ويأخذ بثأره في وقت يناسبه هو.

بدأ الناس يستعدون لاستقبال موسم الزيتون بتجهيز المدّات المخصصة لجمع القطاف، وتصليح السلالم الخشبية ذات الأرجل الثلاث. قدم العمال مع عائلاتهم من أنحاء أخرى في البلاد، وافترشوا ساحة البلدة المجاورة بجانب أغراضهم في انتظار مجيء مالكي الأراضي لتكليفهم بقطف الزيتون.
كان قد مضى على إقامتهم في القرية أكثر من سنتين. كانت تستيقظ في الصباح، فتحضّر الفطور لأحمد وحياة، وتجهّز لهما السندوتشات، وترسلهما إلى المدرسة بعد أن تطبع قبلة على جبين كل منهما، ثم تقوم بأعمال المنزل وهي تسمع أغاني فولكلورية نسختها من كاسيتات عمها، ثم تدخل عالم رواياتٍ استعارتها من مكتبته وهي جالسة في أرض الدار الصغيرة أيام الدفء، أو قرب المدفأة أيام البرد.
لقد كان يومها يشبه أمسها وغدها، وكانت صباحاتها ومساءاتها تشبه أخواتها من الأيام الماضية والتالية. كانت تتوق إلى الخروج من سجنها الاختياري وتتوق إلى رؤية وجوه أخرى خارج الجدران الأربعة التي تحدها، وتحدد حياتها وحتى أحلامها التي شابهت أيامها، وتحولت بدورها إلى حلم واحد طويل تمنت أن يشرق الصباح عليه لتستيقظ منه، وتعيش شيئاً مغاير.
كانت قد حفظت مواعيد عمها الدقيقة. فكانت تضع إبريق الشاي على النار قبل الموعد بخمس دقائق، وتضيف الشاي الأسود إلى الماء المغلي، عندما تسمع صوت الباب الخارجي يعلن وصول الزائر اليومي، وتصل معه إلى الغرفة بصينية الشاي.
ارتشف عمها رشفة من كوب الشاي ثم قال:
- لقد وصل أبو محمود مع عائلته عند الظهر ونصبوا خيمتهم في الحقل، وسيبدؤون غداً بالعمل في أرضي وعندما يفرغون من العمل في أرضي سيعملون في أرضكم، لذلك أخذت إجازة من عملي مدة شهر لأشرف عليهم وأساعدهم في عملهم.
- هل تسمح لي بأن أذهب معك للعمل في قطف الزيتون يا عمي.
- طبعاً أسمح لك بذلك يا ثريا، وفي الحقيقة كنت أنوي أن أسلِّمكم أرضكم لتديروها بأنفسكم عندما يبلغ أحمد الثامنة عشرة، ولذلك فكرت في أن آخذه معي في الموسم القادم ليتعلم سلفاً إدارة شؤون الأرض.
فهتف أحمد بحماسة:
- أستطيع أن أذهب معك في هذا الموسم يا عمي.
- لا يا أحمد، أنت لديك شهادة هذه السنة، ويجب أن تدرس لتحصل على شهادتك الإعدادية، وفي السنة القادمة ستذهب معي. ألا توافقيني في الرأي يا ثريا؟

- طبعاً أوافقك في الرأي يا عمي.
- إنك لم تقولي لي قبل هذا الوقت أنك ترغبين بالعمل في الحقل، فاعتقدت أنك لا ترغبين في ذلك.
- لم يخطر ببالي يا عمي، وأنا الآن أشعر بالملل من المكوث في البيت.
فقال العم طاهر مازحاً:
- ياالله شمري أكمامك، واعملي في أرضي دون أجرة، فالأصول تقتضي أن تعمل ابنة الأخ في أرض عمها من دون مقابل.
فتدخّلت نسرين التي كانت تقضي معظم أوقاتها معهم وكانت ستقضي لياليها أيضاً إن سُمح لها بذلك، تدخّلت بطريقة مازحة وهي تقول لأبيها:
- بل الأصول تفرض على العم أن يدفع أجرة أعلى لابنة الأخ التي ترضى بالعمل عنده.
فأجاب والدها:
- سأدفع أجرة أعلى وعلاوة إضافية لهذه العاملة الجميلة مع قبلة على جبينها أيضاً.
وهمّ بالمغادرة بعد أن دفع لها قبلة على الحساب. فهتف أحمد بعد أن غادر عمه:
- أنا أيضاً أريد أن أعمل في قطف الزيتون.
وقلدته حياة قائلة:
- وأنا أيضاً.
فجلست على الأرض الجلسة المربعة راسمة ملامح جدية على وجهها تدعوهما بصمت إلى الجلوس، فأطاعا، فقالت لأحمد:
- أنت سمعت ماذا قال العم طاهر وأنا أوافق على رأيه، ثم التفتت إلى حياة وقالت لها بنبرة حاسمة: وأنت لن تقومي بأي عمل سوى الدراسة.
فتململ أحمد مدافعاً:
- لكنني رجل البيت، وعليّ أنا أيضاً أن أعمل.
استطاعت إقناعه بعد مناقشات طويلة بالعدول عن فكرته، ووعدت:
- عندما تنجح وتحصل على علامات جيدة، سأسمح لك بالعمل في الموسم القادم.

حلمت في ساعات الفجر الأولى بأنها تجلس القرفصاء تحت شجرة زيتون، وتلملم حبات الزيتون الواقعة على الأرض وتضعها في وعاء معدني صغير، تتذكر فجأة أنها لم تجهّز طبخة اليوم، فتعود راكضة باتجاه البيت، وتبحث عن المطبخ ولا تعثر على الطريق إليه، وكأنه اختفى من الوجود. انتفضت من فراشها. نظرت في الضوء الخافت، فرأتهما بعيون مغلقة ووجهين صافيين كوجوه الملائكة. تسللت على رؤوس أصابعها خشية أن تحدث أية ضجة توقظهما. كانت عتمة الليل ما تزال سائدة، ولم يكن المطبخ قد اختفى من الوجود، كما أوحى لها حلمها. ضغطت على مفتاح الكهرباء وهي تفكر في طبخة سريعة وسهلة، فوضعت العدس على النار، والبرغل في طبق، ثم أسرعت إلى الحمام، ولبست فستانها البني وبنطالها الصوفي الأسود، وسحبت جوربيها الطويلين إلى ركبتيها، وارتدت سترتها الصوفية لتحميها من برودة الفجر. عادت إلى المطبخ، وأضافت البرغل إلى العدس، وغطت الطنجرة.
ربطت شالها الصوفي حول رأسها، وارتدت حذاءها البلاستيكي. أرادت أن تضيء الغرفة لترى نفسها في المرآة، لكنها اكتفت بالنظر في الضوء الخافت، ورضيت عن نفسها وزيها. مدّت شالاً قديماً على الأرض، ووضعت أرغفة الخبز وقطع البندورة عليه، وأطفأت النار تحت المجدرة. سكبت طبقاً من المجدرة، ووضعت الطبق على أرغفة الخبز. ربطت صرّتها القماشية، عندما سمعت صوت باب عمها يُغلق، وأسرعت باتجاه الباب الخارجي، ودخلت عتمة الفجر وبرودته من غير اكتراث.

كان عمها ينتظرها في زي العمل، رابطاً عمامته السوداء المنقطة بالأبيض حول رأسه، ومرتدياً سرواله العريض وجاكيته الخاكي السميك، قال عندما رآها تغلق باب بيتها:
- إن لم أرك وأنت تخرجين من هذا الباب، لاعتقدت أنني أقف أمام فلاحة أباً عن جد.
سألته:
- ألن تذهب زوجتك معنا؟
فأجاب عمها بمرح:
- إن بنات الآغوات لا يذهبن للعمل في الحقول، وهي تخاف أن تتخشن يداها وتتكسر أظافرها.
وألحق بجوابه ضحكة صاخبة أضاءت أجواء الصباح الفضية قبل أن تضيئها الشمس بأشعتها. توقف عن السير، وأوقفها هي أيضاً بوضع يده على ساعدها، وميل وجهه إلى وجهها وهو يقول:
- أليس من الظلم أن تتكسر أظافرها، وتتخشن يداها الناعمتان؟! هل تقبلين بهذا الظلم؟
فأجابت ضاحكة:
- لا، لا أقبل.

كان موسم البرد في الصباح والمساء، والاعتدال في النهار قد حل مع حلول موسم الزيتون. كان ضوء الشفق يبعد فضية الفجر، ويعيد رسم ملامح الحقول والطرقات وهما يتجهان إلى حقل الزيتون. وعندما وصلا إلى بداية الحقل، كانت شمس الصباح قد أشرقت وبدأت الأشجار تتألق تحت أشعتها الخجول. فتألق قلب عمها، وانبسطت أسارير وجهه هو يمسك غصناً مزيناً باللآلئ الخضراء التي تحميه من مذلة العوز والحاجة، وتغدق بنِعَمها عليه كما أغدق هو بعنايته ورعايته عليها، وشعر بالامتنان لآبائه وأجداده الذين أورثوه إياها، ولم يتركوه لرحمة الراتب الشحيح الذي لا يكاد يسدُّ رمقه ورمق بناته اللاتي سيرثنه بدورهن. أكملا طريقهما إلى وسط الحقل واقتربا من خيمة بيضاء منتصبة بين الأشجار المصفوفة بهندسة دقيقة، ودخلا عبر بابها القماشي بعد أن دعاهما صوت أجش قادم من الداخل. كان بضعة أولاد يجلسون حول سفرة فطور مكونة من زيت وزعتر وجبنة وزيتون، كانوا يجلسون بمحاذاة العمود الأوسط الذي يدعم الخيمة، وبقرب نار مشتعلة تلقي بدخانها عليهم مثل ستارة شفافة. وكان أبو محمود يجلس بالقرب منهم، ولفافته تلتصق بشفتيه، وكوب شايه يدفِّئ يديه، وكانت أم محمود تلملم اللحف والأفرشة، وتصفها في زاوية من زوايا الخيمة، فتركت عملها، واتجهت إلى زاوية أخرى كانت قد صنعت منها مطبخاً صغيراً، وجلبت كوبين، وصبت شاياً أسود من إبريق موضوع على الجمرات وقد نال منه دخان الحطب وكساه بسواده.
كان ذلك الشاي هو أطيب شاي تشربه في حياتها كلها. طوقت الكوب براحتيها تاركة حرارته تنتقل إلى يديها وجسمها وهي تصغي إلى جواب أبي محمود على سؤال عمها عن ليلتهم:
- الحمد لله، نمنا جيداً في حماية خيمتنا. فنحن نجلبها معنا في موسم الزيتون إلى منطقتكم لتحمينا من البرد والمطر، ونأخذها معنا إلى منطقة الجزيرة في موسم القطن لتحمينا من الشمس والغبار.

نقل الصباح يفاعته إلى القلوب، وملأها براءة تشبه براءة الأطفال، فقد كانت النفوس ما تزال صافية بعد استراحة الليل، ولم تكن قد تكدّرت بعدُ بمكدرات الحياة. وكانت الأرض تحملهم، والسماء تغطيهم، والأشجار تحدّهم من الجهات الأربع، وأصوات بعيدة تصل من الأراضي المجاورة، وتمتزج بمواويل أبي محمود الواقف على السلم الخشبي، والمخبئ رأسه بين أوراق الشجرة، ويترك حبات الزيتون تهطل من بين يديه على الشال الأبيض الممدود تحت الشجرة، مثل وابل المطر. كانت تقف بجانب أم محمود بوجهها إلى الشجرة، وتسحب يدها على ريشة حبلى بالزيتون، فتنجب الريشة عدداً لامتناهياً من الأجنة.

زادت الشمس من كرمها بمنح حرارتها، وزادت الأشجار من كرمها بمنح زيتونها الأخضر والأسود الذي شكّل أكواماً صغيرة متفرقة على الشال الأبيض، فطلبت منها أم محمود أن تساعدها في توحيد الأكوام الصغيرة المتفرقة برفع أطراف الشال وجمعها في كومة كبيرة واحدة جلست هي بجانبها، كما طلب منها عمها، وراحت تنقّي الزيتون الأخضر للبيع إلى أن دنت الظهيرة، ووقفت الشمس عمودية، وزقزقت عصافير البطون متلهفة إلى ما يشبعها، فحثتهم على الاجتماع حول سفرة الغداء وسط صفوف الشجر. كان أبو محمود وعائلته سعداء بالموسم السخي على عكس موسم السنة الماضية الذي جعل سعر الزيت عالياً، وعادوا إلى بيتهم وهم لا يكادون يحملون قوتهم اليومي من الزيت والزيتون، لكنه حمد ربه على رزقه وصحته وصحة عائلته، وقبَّل يده وجهاً وقفا راضياً بما لا يحيجه إلى مدِّ يده إلى الكريم واللئيم، واسترسل قائلاً:

- إن المال الوفير عدو صاحبه وسبب قلقه، وأنا قانع برزقي، فأنا أضع رأسي على وسادتي، وأنام حتى الصباح من دون حسابات أو قلق.

لم تعرف أكان أبو محمود جاداً فيما يقول أم هازلاً، فقد كان يخلط الجد بالهزل، والرضا بالسخرية.

فقد أجاب على تخوف العم طاهر من انخفاض الأسعار بسبب العرض الهائل في تلك السنة، بتعليقات وضحكات مجلجلة أضحكت الشجر والجالسين، وهزهزت لفافته الملتصقة بشفتيه دائماً. ثم حاول أن يُجلِس العم طاهر على كرسي الاعتراف، ويجعله يقر برغبته في الزواج على زوجته:

- فأنا لو كنت مكانك، لفعلت ذلك.

لم يعرف أنه يثير حفيظة أم محمود التي دافعت عن نفسها بأسلوب جدي مغلف بالمزاح:

- سأذبحك قبل أن تفضّل امرأة أخرى علي.

فزاد من ضحكاته ومزاحه وقال:

- كيف سأهون عليك وأنا لم أفرح بعروسي بعد؟

فأجابته بسؤال:

- وكيف ستهون عليك إهانتي، وقد أمضيت عمري في خدمتك وخدمة أولادك، وعشت معك على الحلو والمر؟

فعاد إلى جديته وغازلها:

- أنت أجمل نساء الكون، ولن أبدّلك بكنوز الدنيا وثرواتها كلها.

لم يختلف العمل بعد الغداء عما قبله. ففي عليائه كان أبو محمود يخبئ رأسه بين أوراق الشجرة، ويُهطِل الزيتون من بين يديه كحبات المطر، بينما يطلق حنجرته لمواويل تهزهز لفافته الملتصقة بشفتيه، وكانت أم محمود تقف تحت الشجرة، وتحيّي الأغصان التي تصل يدها إليها، فتردّ الأغصان عليها بكرم متدفق، وكان ابنهما محمود يتخذ غصناً من الأغصان مقراً لقدميه، ويقطف ما لم تصل إليه أيدي والديه. وكان العم طاهر يتنقل بين العمال، ويساعد هذا أو ذاك، وهي تجلس على الشال بجانب الكومة، وتنقي الزيتون الأخضر، وتضعه في إناءٍ صغير إلى أن يمتلئ، فتفرغ الإناء في كيسٍ قماشي أبيض لترسله إلى السوق مع عمها.

وفي نهاية النهار وقف أبو محمود عند كومة الزيتون، ووقفت زوجته قبالته على مسافة بضعة أمتار، ورفعت طرف الشال الأبيض. ملأ أبو محمود إناءً بزيتون مختلط بورقه، وألقى محتوى الإناء باتجاه زوجته، فطار الزيتون تاركاً أوراقه تتساقط في الطريق، ووصل إلى هدفه نظيفاً. راح يكرر عمله إلى أن اختفى ما كان عنده من الزيتون وظهر عند زوجته، ثم بدأ يقسم مع العم طاهر محصول اليوم بإفراغ سبع تنكات في شوال الثاني، والتنكة الثامنة في شواله.

كان خروجها إلى العمل والتقاؤها بأناس جدد، مثل ماء أشبع خلايا نبتة ذابلة فعاد إليها ازدهارها من جديد. وضعت رأسها على وسادتها، واستغرقت في نوم عميق عمق البحر وصافٍ صفاء السماء، حتى لقد ظنت أنها نامت لحظات معدودات فقط، عندما فتحت عينيها في صباح اليوم التالي.
عاد عمها في ظهيرة ذلك اليوم بصحبة مريم، وقال لها:
- إن مريم ستسليك وتساعدك في عملك، وسيأتي دورك لتقومي بذلك، عندما يبدأ العمال بالعمل في أرض والدها بعد الانتهاء من أرضنا.

كانت مريم فتاة سمراء، ذات قامة متوسطة الطول، وتقاطيع وجه متناسقة، وعينين سوداوين، تلبس سترة صوفية سوداء فوق فستان أخضر، وتحتذي حذاءً بلاستيكياً بنفس لون سترتها.
كانت قد التقت بها سابقاً، لكنها عصرت ذاكرتها لتعرف أين وكيف ولم تفلح، فقالت وهي تشعر ببعض الخجل:
- أتذكر أنني التقيت بك من قبل، لكنني لا أتذكر أين وكيف.
فقالت مريم:
- أما أنا فأتذكر جيداً يا ثريا، إننا جلسنا إحدانا بجانب الأخرى في عرس عبدالرحمن ونورية، لكننا لم نتبادل غير السلام بسبب صخب الموسيقا. إننا أهل القرى نحاول للأسف أن نقلد أهل المدينة بالانشغال في أمورنا الخاصة دون مبالاة بالآخرين، حتى لقد أصبحنا لا يزور بعضنا بعضاً ولا يهتم بعضنا ببعض وأخشى أن يتنكر الجار لجاره ولا يتعرفه في المستقبل القريب. آه، طوبى للأيام الماضية التي كنا نعيش فيها مثل عائلة واحدة.

كانت مريم تناهز الثلاثين من العمر. توقفت عن الدراسة بعد أن رسبت سنتين في امتحانات الثانوية العامة، وفُطمت من الكتب والدفاتر، كما يُفطم الرضيع من حليب أمه. كانت في بداية شبابها ترفض كل المتقدمين لخطبتها بعد أن تكشف عليهم بمجهر دقيق يظهر عيوبهم الصغيرة قبل الكبيرة، وتغلق باب قلبها في وجوههم بعد أن تتأكد من أنهم لا يطابقون أوصاف فارسها المنتظَر الذي يجب أن تتوفر فيه صفات الغنى والجمال والعائلة. وبعد أن بلغت الثلاثين من العمر وأدركت عقم حلمها، بقيت تنتظر فارساً عادياً، لكن لا يطرق بابها سوى رجال يرغبون في الزواج على زوجاتهم، أو يرغبونها لتربي لهم أولادهم اليتامى. كانت قد راكمت جهاز بيتها المستقبلي، وكادت تراكم أثاثه كله لولا خوفها من زوال موضته، وما زالت تحلم بالزواج من رجل يؤمّن لها حياة مثل حياتها في بيت والديها، فقد قالت بطريقة ساخرة:
- فهما يؤمنان لي كل شيء أحتاجه، ما عدا فارس الأحلام.

ضحكت من كلامها وجرأتها في الإفصاح عن رغبتها في الزواج، ومن قدرتها على الكلام أكثر من العمل، ومن عدم اكتراثها بأي شيء سوى فارسها المنتظَر.

نقل العمال خيامهم، ونصبوها في أرض أبي رياض، والد مريم. وانتقلت هي ومريم معهم لتجلسا عند كومة الزيتون، وتقوما بتنقية الأخضر للبيع، كما اعتادتا أن تفعلا في الأيام الماضية.

لأول مرة منذ بدء الموسم، لم تستيقظ على صوت المنبه في الخامسة فجراً، فقد بقيت نائمة إلى أن نهضت الشمس من نومها كعروسٍ في صباحيتها، ودخلت من النافذة الشرقية، وراحت تدغدغ وجهها إلى أن فتحت عينيها، وقفزت من فراشها بسرعة البرق، وحملت صرَّة طعامها، وهرولت باتجاه أرض أبي مريم.

عندما وصلت، رأت سلّماً إضافياً يقف بمحاذاة سلّم أبي محمود الذي لم يكن يغني المواويل كعادته، بل يستمع إلى غناء الشخص الواقف بجانبه، والمخبئ رأسه بين أوراق الشجرة، وتتساقط من بين يديه حبات الزيتون على الشال الذي كان أبيض اللون في أيامه الأولى، واكتسى بالبني المبقع بالأخضر والأسود مع مرور الوقت. كان يغني:

حطت حمامة على أرض دارنا
أضاءت بإشراقتها بيتنا
دنوتُ منها فطارتْ،
ونظرتْ خلفها بعد أن استدارت.

اقتربت من مريم الجالسة عند كومة الزيتون وهي تعتذر:
- آسفة جداً يا مريم، لأنني تأخرت في النوم.

فتوقف الصوت عن الغناء، وأخرج الواقف على السلم رأسه من بين الورق، ونظر إلى مصدر الصوت الذي خالط غناءه، ثم قفز على الأرض، ووقف أمامها بقامته الطويلة وشعره الأسود وبشرة وجهه المائلة إلى البياض. تقدم منها، ومدّ يده وهو يقول:
- صباح الخير.
فردت السلام بفمها ويدها.
أحست بأنه يريد قول شيء آخر، لكنه لا يعثر على الكلمات المناسبة، فقد ظل يحدق إليها بعض الوقت ثم وجّه عينيه إلى السماء الزرقاء المنقوشة بالسحب البيضاء، وأنزلهما ببطء إلى أن وصلتا إلى وجهها من جديد، فتلعثم وهو ما يزال يمسك يدها:
- رأيت وجوهاً جميلة كثيرة، لكنني لم أرَ أجمل من هذا الوجه.
لقد ندت عنها ابتسامة وشت بارتباكها، لكنها أجابت بنبرة بين مزاح وجد وهي تسحب يدها وتحاول إخفاء ما وشت به ابتسامتها:
- وأنا رأيت أناساً جريئين كثر، لكنني لم أرَ أكثر جرأة من الذي أمامي.
وأسرعت إلى الجلوس عند مريم محاولة إسكات دقات قلبها، ولاذت بالصمت والعمل هروباً من الرد على سؤاله:
- مَن أنت، ومن أين خرجت؟ أخرجت من الأرض مثل جنية؟ أم نزلت من السماء مثل ملاك؟
ثبتت نظرتها أمامها، وتركت يدها تسحب حفنة زيتون صغيرة وتلتقط منها حبات جميلة وتكوم الباقي عند ركبتيها.
بقي مقرفصاً برهة يحدق إلى وجهها المنحني ويدها المتحركة بارتباك، ثم وقف والتفت إلى وراء، لكنه لم يعد إلى مكانه فوق السلّم، فقد مشى مبتعداً عن الشجرة، مثل سفينة تعطلت بوصلتها فجأة، فأخطأت وجهتها، ولم تعد تميز شمالها من جنوبها أو غربها من شرقها.
راقبته من زاوية عينها وهو يبتعد، وحاولت أن تسيطر على ارتباكها، فبادرت بالحديث:
- صوته جميل، والأغنية التي كان يغنيها جميلة.
فسألت مريم متجاهلة الأمر:
- صوت مَنْ؟ وأغنية مَن؟
- هذا الشاب الغريب، وأعتقد أنه غريب في طباعه وعقله أيضاً، قالت ذلك لمجرد الكلام.
فأجابت مريم:
- آه، لو قال مجنون لي ما قاله لك، لأمسكت به بيدي وأسناني!

إن ميلها الدائم لأن تخبئ جزءاً من حياتها الداخلية وتبدو مثل كتاب نصف مفتوح، كان قد جعلها تجهل نفسها وما يختلج فيها. حاولت أن تشرح لمريم أنها لا تنتظر فارس الأحلام مثلها، لكن دقات قلبها كانت من نوع جديد لم تألفها من قبل.

عاد بعد مضي من الوقت، وجلس القرفصاء بالقرب منها ثم قال:
- آسف جداً، إنني أصبت بحالة من الاندهاش عندما رأيتك.
فرفعت عينيها وسألت:
- وهل أثير الاندهاش إلى هذه الدرجة؟
أخبرها فيما بعد أن خضرة الزيتون انعكست في عينيها في تلك اللحظة، وطغت على لونهما البني، فحولتهما إلى مساحة خضراء واسعة، تاه فيها ولم يعرف طريق العودة أبداً.

لقد ارتبك ارتباكاً بلغ من الشدة أنه لم يستطع أن يجيب على سؤالها، فلاحظت مريم ارتباك أخيها فتدخلت قائلة له:
- إنها ثريا، ابنة المرحوم عدنان نور الدين.
- أنا آسف لأنني لم أتعرفك، صحيح أنني سمعت بوجودك في القرية، لكنني لم ألتق بك من قبل، فأنا أقيم إقامة شبه دائمة في حلب بسبب دراستي.
- وماذا تدرس؟
- أدرس في كلية الهندسة الزراعية، وقد منحت نفسي الآن أسبوع إجازة لأمارس دراستي بشكل عملي.

كان يحلم بتغيير أشياء كثيرة. لم يكن يتذكر في أي كتاب قرأ الحِكم التي تقول: «الذل أن تقبل بما لا تستطيع تغييره، والشجاعة أن تغيّر ما تستطيع تغييره، والحكمة أن تعرف الفرق بين هذين الأمرين».
أقام في اليوم الأخير من الموسم وليمة للعمال، فسألوه عن المناسبة، فأجاب:
- المناسبة هي عملكم الشاق، وتعبكم طوال النهار، وتحمّلكم برد الصباح والمساء، ونومكم في الخيام وسط الخلاء.
وأضاف عند الحساب النهائي كمية كبيرة من الزيتون إلى حصتهم وهو يبرر:
- إن الشركات التجارية كلها تخصص علاوات للعمال، ويجب على مالكي الأراضي أن يدفعوها أيضاً.

تقصدت مريم أن تسرع خطاها وتسبقهما في المشي، عندما كانوا يعودون إلى القرية في اليوم الأخير من الموسم.
فقال لها:
- إنك قلبت كياني رأساً على عقب يا ثريا... عندما شاهدتك أول مرة، أحسست بجمالك يتدفق إليَّ مثل شلال عنيف يغرقني وينعشني في نفس الوقت، ورأيت فيك المرأة الواعية والفتاة العابثة في نفس الوقت. ظننت حينها أنني أصبت بحالة الشخص الذي يرى لوحة رائعة الجمال، لكنني عندما عرفتك أثناء هذه المدة، أدركت أن جمالك الداخلي أعمق بكثير من جمالك الخارجي.... أحبك، وسأكون أسعد مخلوق على وجه الأرض، إن قبلت بالزواج مني.

ظنت أن كل السائرين باتجاه القرية يسمعون دقات قلبها وهي تشعر بالفرح والسعادة، إلا أنها سرعان ما داخلها شعور بأن ليس لها الحق في الحب والزواج، فارتبكت أشد الارتباك وقالت سريعاً:
- لا أفكر في الزواج.
وأسرعت خطاها تلحق بمريم.
كانت تحتاج إلى حبه. كان جسدها يتوق إلى عناق جسده، وكانت وروحها تتلهف إلى معانقة روحه، لكن عليها أن تحتفظ بجسدها الذي تمده جسراً لهما ليوصلهما إلى ضفة الأمان، وعليها أن تحتفظ بروحها التي تفرشها لهما

ليزرعا فيها حزنهما. تمنت أن تكون أمها موجودة لترتمي في حضنها، وتبكي وتخبرها بما سمعته من رياض، وتطلب نصيحتها ومشورتها، لكنها لم تكن تعرف أراضي أمها فأحست بمرارة تشبه مرارة حبة زيتون قُطفت للتو وهي تشعر بالوحدة والتيه، وكل المشاعر المتناقضة في داخلها تتلاطم مثل أمواج هائجة.
انسحب الدم من وجهها إلى أطرافها، فتعثرت خطواتها وهي تنضم إلى مريم والمجموعة السائرة باتجاه القرية، كما تعثرت روحها وهي تسمع كلماته، لكنها حاولت السيطرة على نفسها وهي توازن خطاها على خطاهم بصعوبة، فتشابكت عواطفها هذه المرة مع كل خطوة من خطواتها إلى أن أصبحت متاهة دون بداية أو نهاية وهي تسمع صوت عقلها وقلبها يتصارعان، الأول يملي عليها أن تبتعد، والثاني ينادي بحبه، حتى كادا يوصلاها إلى حافة الغيبوبة، فتمنت أن تصل إلى البيت، وتلوذ بفراشها، وتفكر بهدوء علّ درباً واضحاً يظهر ويقودها إلى عالم استقرار يعيد إليها توازنها، ثم تغمض جفنيها، وتستغرق في نوم لا قرارة له. لأول مرة لم تزرها ذكرى أبيها وهي تجتاز تلك الطريق، عندما كانت يده العملاقة تطوق يدها الصغيرة وهما يمشيان معاً على تلك الطريق الصخرية والترابية، وعندما كانت تتعثر بحجرة وتوشك على الوقوع، تطيّرها اليد العملاقة وهلة، وتحطها على أرض ممهدة من جديد، فتشعر بألم في كتفها، ووجع في قدمها بعد أن توخزها شوكة حمقاء، فتجد نفسها في العلياء وقد امتدت مساحة شاسعة أمام عينيها وهي تنظر من فوق شعر أبيها الأسود، وذراعاها تطوقان رأسه، وساقاها الصغيرتان تتدليان على صدره.

وصلت إلى البيت، ودخلت فراشها وأوصالها ترتعد من صقيع داخلي استوطنها، فسحبت اللحاف إلى فوق رأسها، واستلقت على جنبها، وعقدت ذراعيها على صدرها، وأطلقت العنان لدموعها التي أحرقت وجهها وبللت وسادتها.
رفعت حياة اللحاف من فوق رأسها تسألها:
- هل أنت مريضة يا ثريا؟
- لا، إنني أشعر بالبرد فقط، أجابت ودموعها تسيل مواربة على أنفها، وتسقط على وسادتها.
فسألتها حياة والدموع تلمع في عينيها:
- لماذا تبكين إذن؟
لم تقدر على الإجابة، واكتفت برفع ذراعها داعية أختها الصغرى إلى حضنها، فأغرقت شعرها بدموعها وهي تعصرها بين ذراعيها إلى أن غسلت الدموع حزن قلبها، وجرفت عواطفها المتشابكة وصورة رياض وكلامه، وخلّفت وراءها صفاءً أدخلها مع أختها إلى النوم في وقت سابق لموعد نومهما.

إن غيوماً حبلى قد أوقعها ثقلها من عليائها، فافترشت سقوف البيوت ورؤوس الأشجار العارية، وراحت ترش رذاذاً خفيفاً بعد أن ألقت بعضاً مما في بطونها في الليلة الماضية، وحوّلت الطرقات الترابية إلى وحلٍ التصقت بأحذية المارة التي تركت بصماتها على الأرصفة والأراضي الإسمنتية.
عادت إلى عملها كسيدة منزل بعد أن كانت عاملة مدة شهر ونصف شهر أهملت أثناءها الكثير من واجباتها المنزلية. كانت منحنية على المكنسة وخرطوم الماء تغسل رصيف البيت، عندما شعرت بخيال شخص يتقدم منها. اعتدلت، فوقفت وجهاً لوجه أمام رياض، فشعرت بقلبها يقفز من صدرها ويتدحرج على الطريق أمام بيتها.
لم يستطع أن يغادر القرية قبل أن يراها، ويتكلم معها:
- أريد فقط أن أتأكد من مشاعرك تجاهي، هل تحبينني؟
أرادت أن تقول: «نعم، أحبك» لكن كلماتها بقيت عالقة بحنجرتها كأنما يداً خفية تمنعها من الخروج. فأسدلت عينيها تحدق في الماء المندفع من الخرطوم والمتدفق على الأرض.
- أنت تحبينني إذن.
نظرت يميناً وشمالاً، وتوسلت إليه:

- أرجوك غادر قبل أن يراك أحد.
راقبته إلى أن اختفى في الضباب الفضي وأمواج من الحب تتدفق من قلبها، وتتكسر على ضفافه، وتعود من جديد إلى منشئها. كانت مداخن البيوت تنفث دخانها، فتمتصه الغيوم المنخفضة. لقد انفجرت الغيوم التي كانت ترش رذاذاً خفيفاً إلى تلك اللحظة، ودلقت ما تبقى في حوزتها على البيوت والطرقات والأشجار، وعليها وهي تحدق في الماء الجاري على الأرض.

لم تعرف كم من الوقت مضى ومطر السماء يغسل دموعها، ويجرفها مع الماء المندفع من الخرطوم، عندما خرجت صباح من الضباب ووقفت أمامها بحال يشبه حالها، فلم يكن خيط واحد من ثيابها، ولا شعرة واحدة من شعر رأسها قد بقي جافاً، وكانت طبقة سميكة من وحل الطرقات قد غطت حذاءها البلاستيكي وساقيها حتى الركبتين. مدّت صباح يدها إلى جيبها واستلت منها علبة كبريت مبتلة بماء المطر وأعطتها إياها وهي تقول:
- هذه هي علبة الكبريت التي طلبتها مني في هذا الصباح.
- أنا لم أطلب منك أي شيء يا صباح!
- لا يا ثريا، أنت مخطئة. فأنت جئت إليَّ وقت الفجر وطلبت مني أن أذهب إلى عفرين لأشتري لك علبة كبريت، وحتى أؤكد لك ذلك فإنك كنت تلبسين فستانك البني وسترتك الصوفية السوداء وتضعين على رأسك شالك الأسود.

عرفت أن ما حدث مع صباح في الفجر كان من تهيؤاتها، لكنها لم ترغب في أن تجادلها، وتقنعها بأنها كانت في ذلك الوقت غارقة في النوم، فاكتفت بقول:
- اخلعي حذاءك، وادخلي.
أدخلتها الحمام، وأعطتها ثوبها البني الذي لم تكن قد لبسته منذ أكثر من أسبوعين وقالت لها أنها تستطيع الاحتفاظ بالثوب، ووعدتها بثوب آخر جديد أجمل منه بكثير. وعندما رأتها تخرج من جيبها علبة سجائرها المتشرّبة بماء المطر وتجفف سيجارة منها قرب المدفأة قبل أن تدخنها، بعثت أحمد إلى الدكان لشراء علبة دخان لها.
فقالت صباح بدموع في عينيها:
- لم يعاملني أحد من أهلي أو من أهل القرية كما تعاملينني أنت يا ثريا، ولم يحبني أحد كما تحبينني أنت، فالجميع يعاملني باستخفاف أو شفقة وكأنني لا أميز بين الأسود والأبيض، أما أنت فإنك تعاملينني بحب واحترام.

كانت قد سألت صباح قبل ذلك الوقت عن صديقتها وفاء، وعاهدت نفسها ألا تعود لسؤالها مرة أخرى بعد أن رأت كيف أن سؤالها عكّر روحها، مثل حجرة أُلقيت في بركة ماء صافية فحولتها إلى بركة عكرة. لقد أنّبها ضميرها في ذلك الوقت لأنها شعرت بأن صباح قد تحتاج دهراً إلى أن يعود صفاء روحها إليها، ولكن في ذلك اليوم ومن دون سؤال بدأت صباح تخبر قصة صديقتها وفاء، وكأنها تلقت السؤال للتو:
- لقد ارتكبت جريمة لا تغتفر... لبت نداء قلبها، وأحبت! خطبها حبيبها من أهلها، لكنهم لم يرضوا به زوجاً لها. حاولا محاولات كثيرة لإقناعهم إلى أن ذهبت الأنفاس أدراج الرياح، وتعبت القلوب، وجفت العيون والحناجر. وفي عرس من أعراس القرية انسحبا من صخب العرس والناس والفرح إلى زاوية منعزلة ليتشاورا في إيجاد حل يداوي جرحيهما. وشاهدها ابن عمها، الذي كان يريدها لنفسه، واقفة مع حبيبها فأقام الأرض ولم يقعدها... سجنوها في غرفتها، وربطوها بحبل من معصميها إلى رجل السرير. كانت تتألم بصمت وتأمل أن تلين القلوب التي قست فجأة وأغلقت بابها في وجهها، فأدارت وجهها إليهم، واحداً تلو الآخر، علّ أحداً منهم يقول كلمة حق بحقها، ويدرك أن قسوتهم تلك تزرع فيها جروحاً عصية على الالتئام، لكن دون جدوى، فاستسلمت أخيراً ولم تعد تصارع لفك قيدها، وكأنها عرفت أن نهايتها تقترب بمرور الساعات والأيام. ذهبتُ لزيارتها فرفض أهلها أن أقابلها، فتسللتُ في الليل إلى بيتهم، ورأيتها عبر القضبان المتصالبة لنافذة غرفتها وهي جالسة ومتكومة على نفسها، همستُ باسمها فاستجابت لصوتي

الهامس برفع رأسها. كانت عيناها تستنجدان وتلمعان في الظلام مثل عيني قطة يائسة، فأردتُ أن أقلع تلك القضبان الحديدية أو أكسر ذلك الجدار الأسمنتي لأحررها من سجنها، لكنني لم أستطع قلع القضبان ولا كسر الجدران، فشعرت بعجز وضعف لم أحسهما من قبل. وقفتُ مكاني عاجزة عن فعل أي شي إلى أن همستْ لي: غادري قبل أن يشعروا بوجودك.

توقفت صباح عن الحديث، وحدقت إلى أصابع قدميها بعد أن وضعت ذقنها على ركبتيها المطوقتين بذراعيها. لم ترغب في حثها على إكمال قصة صديقتها، خشية أن تعكر روحها من جديد فلا يعود بمقدورها الاستمرار في الحديث، فبقيت تنتظر إلى أن تكمل صباح القصة من تلقاء نفسها. وبعد مضي بضع دقائق رفعت صباح رأسها، وأكملت ساهمة شاردة الفكر وكأنها تكلم نفسها:

- هل أروها شبح موتها وجهزوا لها كفنها؟ هل شمّموها رائحة قبرها الذي حفروه لها قبل أن يقتلوها؟ فأنا لم أكن أعرف أنهم سيقدمونها قرباناً يكفر عن ذنوبهم، فقد اعتقدت أنهم يريدون معاقبتها بضعة أيام، وسينسون الموضوع بعد ذلك. لم تجدِ توسلاتها، ولم يشفع لها دمها الذي يجري في عروقهم، ولم ينفعها دفاعها عن حبها واستعدادها للبرهان على عذريته بالأساليب التي يرونها مناسبة، ولم يفدها دموع أمها وأخواتها، ولا رغبة حبيبها في الاقتران بها حسب شروطهم ومطالبهم. ففي اليوم الخامس من سجنها سمعتُ صوت طلقة رصاص آتٍ من بيتها، فأحسست أن الطلقة غرزت صدري، وقطعت شرياناً في قلبي، فركضتُ حافية القدمين إلى بيتها.... آه.. يا وفاءً!.. آه!

وصرخت صباح صرخة فيل يهرب من صياد يريد قلع سنّه العاجي، ثم وقعت في صمت عميق، وخفضت عينيها، وراحت تحدق في الأرض أمامها وقد تكومت على نفسها وعقدت ساعديها على صدرها وكأن برداً شديداً باغتها واستولى عليها. استأنفت بعد دقيقتين أو ثلاث دقائق وهي ما تزال جالسة في ذلك الوضع:

- كان أخوها يقف في زاوية أرض دارهم وعيناه تحملقان فيها ويده تمسك مسدساً استراح بعد أن أطلق رصاصة لم تخطئ هدفها، فقد اخترقت الرصاصة صدرها، وفتتت قلبها الناضح بالحب وبعثرته في أحشائها، وسبّبت لها ألماً يفوق طاقة تحمّلها، ومع ذلك تحدتْ تلك الرصاصة وذلك الألم، وحاولت أن تبقى واقفة فمدت يدها إلى أعلى وكأنها تريد أن تمسك بشعاعٍ من أشعة الشمس الغاربة لكي لا تتهاوى، لكنها أمسكت بالخواء، فتهاوت على ركبتيها في وضعية ركوع رغماً عنها، واستسلمت لعزرائيل الموت، وربما توسلت إليه لأن يسرع في أخذ روحها ليخلصها من ألمها. ركضتُ إليها وهي ما تزال في وضعية ركوع على ركبتيها وعاقدة ذراعيها على بطنها، وأمسكتها من كتفيها، فانقلبتْ على طرفها الأيسر تاركة دمها الذي كان قد تجمع على ساقيها يسيل على أرض صلبة أشفقت من ابتلاعه في جوفها. رفعتْ عينيها تنظر إليَّ عبر دموعها المتحجرة، لكنها لم تكن تراني بقدر ما كانت ترى فجيعتها التي أرسلتها في طريق رحلتها الأخيرة. فأنا لن أنسى أبداً نظرتها التي كانت تقول: «هل رأيت كيف حوّلوا ثوب زفافي إلى كفن؟ وهل رأيت كيف حوّلوا درب بيت عريسي إلى درب القبر؟»

سكتت صباح من جديد، فاشتعلت في عينيها نارٌ ذات لهب هائج يريد حرق كل ما يعترضه. رفعت عينيها عن الأرض بعد برهة من الزمن، وحدقت في الهواء أمامها وهي تسأل بصوت هائج:

- أي جريمة ارتكبت؟ وأي شرف لوثت؟ وأي عدل يحكمنا؟ العدل الذي حكم عليها بالإعدام لأنها أحبت حباً عذرياً؟ أم العدل الذي أفرج عن أخيها بعد ستة أشهر، ودوّن القضية قضية شرف، رغم تقرير الطبيب الشرعي الذي أكد أنها كانت عذراء كيوم ولدتها أمها؟ أم العدل الذي جعل حبيبها يتزوج من فتاة أخرى ولم تكن سنة واحدة قد مضت على قتلها؟.... لماذا نخبئ تشوهاتنا وراء قناع النفاق....لماذا؟ ألنؤكد أننا شرفاء وأتقياء؟ ولماذا نطبق العدل على ناس وناس؟ أستطيع أن أعدّ لك من هذه القرية الصغيرة العديد من العاهرات في السر والورعات في العلن، والناس يعرفون بعهرهن ومع ذلك يعاملوهن أطيب معاملة، ويغضون النظر عما يفعلن. وإن أرادوا تقديم كبش فداء، يختارون

إحدى الفتيات أو النسوة دون أن يتحروا من أنها شريفة أو عاهرة ويحكمون عليها بالموت... وصدقيني إنهم يختارون البريئات في أغلب الأحيان ويتركون المذنبات يجلن ويصلن على راحتهن.... فكيف لي أن أعيش متوازنة وأنا أرى كل هذا النفاق؟ وكيف لي أن لا أصاب بالجنون وأنا أرى كل هذه التناقضات؟ إنني أكره حياتي منذ اللحظة التي وقع فيها الأمان من قلبي؟ صدقيني يا ثريا، إنني لا أخاف الموت بقدر ما أخاف الناس، وأتمنى أن يرموني من ذاكرتهم، فأصبح كمن عاش فترة قصيرة، ورحل دون أن يترك أي أثر يذكِّر بوجوده في يوم من الأيام.

كانت الزهيرات البيض تتلألأ على أغصان الأشجار المزروعة في حدائق البيوت، وتحولها إلى عرائس بثياب بيضاء يتمايلن على إيقاعات النسيم، وكانت الجبال والسهول المحيطة بالقرية تتزين بالبساط الأخضر، وكانت شمس الربيع وغيوم الشتاء تتصارعان في معارك ودية وتتبادلان السيطرة والانتصار، وكانت المدافئ ما تزال واقفة في البيوت، مهملة يوماً، ومرغوبة في يوم آخر.

كانت النار تضطرم في المدفأة بهدوء يكفي للحفاظ على دفء الغرفة المرتبة بإتقان التي تقف فيها خزانة ملابس بنية من خشب الزان بجانب الحائط منذ أن وصلت مع وصول الجدة إلى تلك الغرفة دون أن تعرف مكاناً غيره. تغطي بابها النصفي مرآةٌ كبيرة خالية من بصمات الأصابع، وتعكس المصباح وضوءه. تستند كنبة وحيدة بقماش مخملي بني إلى الحائط المحاذي، وتقف بجانبها طاولة صغيرة موضوعة فوقها بضعة كتب ودفاتر. كانت تجلس على الأريكة بالقرب من المدفأة، تحمل كتابها في يدها، تقرأ بعيونها ما في الصفحات، ثم توجه نظرتها إلى الحائط لتترك فمها يعيد ما قرأته عيناها.
جاء أحمد يذكّرها بأن الظلام قد أرخى سدوله، وحث الناس على إشعال النيران، فوضعت كتاب الفلسفة من يدها، وخرجت معه إلى الشارع، وانضمت إلى عائلة عمها. كانت النيران المشتعلة فوق الجبال المجاورة تبدو مثل النجوم المتلألئة على صفحة السماء، وكانت أضواء بيوت القرية تضيء ظلام الليل، ونار تشتعل أمام هذا البيت وذاك وسط أناس يتحلقون حولها، ويغنون، ويرقصون الدبكة.

وضع العم طاهر دولاباً قديماً على الأرض، ثم أفرغ علبة كاز عليه، وأشعل عود ثقاب ورماه على الدولاب المتشرّب بالوقود، فاشتعلت النار، وأضاءت الوجوه المحيطة، وانعكست في حدقتي عيني حياة الدامعتين.
سحبت حياة من يدها وسألتها:
- لماذا تبكين يا حياة؟
فأجابت حياة بصوت مرتجف:
- إن نسرين أهدت أمها قبل قليل هدية عيد الأم، فطوقتها أمها بذراعها وقبلتها من خدها، وأعطت شيرين هي أيضاً هدية لأمها، فطوقتها أمها بذراعها الأخرى وقبلتها هي أيضاً من خدها، وشدَّت ابنتيها الاثنتين إلى حضنها وقالت للأولى: «أنت تاج رأسي» ثم التفتت إلى الأخرى وقالت لها: «وأنت الجوهرة التي تتوسط التاج».
سكتت حياة، وتاهت نظرتها الدامعة في الظلام الجاثم أمامها، ثم استقرت على النار المشتعلة بالقرب منها وسألت:
- أين أمنا يا ثريا؟ أين أمنا لتضمنا إلى حضنها وتقول لك أنك تاج رأسها، وأنني جوهرته؟
مسحت دموعها، وحضنتها وقبلتها من خديها الاثنتين وطوقت رأسها بيديها ثم قالت لها:
- لا تزعلي يا حياة، فأنت تاج رأسي وجوهرته أيضاً.
وأعادتها بقلب مهزوم وانضمتا إلى المتحلقين حول نار النصر.

ارتطم قلبها بقفص صدرها وبدأ يتقافز مثل كرة ضلت سبيلها، عندما رأت رياض ومريم يخرجان من الظلام، ويقفان في ضوء النار. بدأ رياض بمصافحة العم طاهر وزوجته والآخرين ثم صافحها هي أيضاً في آخر الأمر ووقف بجانبها، وكذلك فعلت مريم وراء أخيها ووقفت بجانبه، وبعد السؤال عن الأحوال أمسكت مريم يد أحمد وحياة، ودعت العم طاهر وزوجته لمشاركتهم في الرقص، وطلبت منها ومن رياض أن يفسحا المجال لحلقة الدبكة، فابتعدا، ووقفا في منطقة ما بين الظلام والنور. طلب منها رياض أن تفتح يدها، وعندما فعلت وضع شيئاً مسطحاً فيها، فأسرعت إلى إخفائه في جيب سترتها الصوفية وهي تتظاهر بالنظر إلى الراقصين دون أن ترى شيئاً، فقد كانت حواسها كلها قد اتجهت إلى ما تنطق به شفتاه:

- النسخة الأصلية في قلبي، وتوجد نسخة أكبر منها أضعها بين صفحات كل كتاب أدرس فيه.

عادت إلى البيت، ودخلت الغرفة. أغلقت الباب وراءها، واستندت إلى الباب المغلق، وأخرجت ما في جيبها، فرأت صورتها مرسومة على ورق مقوى ومجلدة ببلاستيك قاس، أدارتها، فقرأت كلمتين فقط «ملكة قلبي»، فسمعت دقات قلبها في أذنيها وشعورها القديم بالفرح والحزن يراودها من جديد ويرعد أوصالها. بقيت قرابة عشرين دقيقة في مكانها إلى أن هدأت دقات قلبها فتذكرت أن عليها أن لا تتغيب وقتاً طويلاً عن الجماعة الواقفة في الخارج، فخرجت وهي تحاول قصارى جهدها لأن تحكّم عقلها وتسيطر على عواطفها المتلاطمة، ووقفت في نفس المكان الذي كانت واقفة فيه قبل قليل مع رياض الذي كان قد انضم إلى حلقة الدبكة بعد أن دخلت هي إلى البيت.

ترك رياض الدبكة، ووقف بجانبها:

- قولي نعم، وسأرسل والدي غداً ليخطبك من عمك.

لم تستطع أن تجيب بأية كلمة، فتركته، واتجهت إلى عمها وزوجته الذين كانا قد تركا الدبكة للتو، ووقفت بجانبهما وراحت تلاعب ابنتهما الصغيرة هيفين. وحاولت تجنب نظراته، وابتعدت كلما اقترب منها خشية أن يلاحظ أحد اهتمامه الزائد بها.

لاذت بسريرها في تلك الليلة وعقلها يصارع قلبها: إن وافقت على الزواج منه، فإنها ستخلف عهداً قطعته على نفسها، ولا تعرف أيضاً ماذا سيحل بأخيها وأختها: هل سيستطيع أخوها الذهاب وحده للدراسة في المدينة أم أنه سينتهي صبياً عند أحد معلمي صنعة ما؟ وهل ستنتقل أختها إلى بيت عمها أم ستظل وحيدة ومهملة في هذه الغرفة؟ هذه الأخت التي يكبر جسدها، ويبقى قلبها قلب طفل صغير، وتنتكس عند أول موقف يذكرها بغياب أمها. كانت تعلم أن أخاها يعاني من نفس المشكلة أيضاً لكنه يكابر، وكانت هي نفسها تشعر بالحرمان في كل يوم وكل ساعة، لكنها تبقي ألمها في وكر سحيق من أعماقها خوفاً من أن يشدها إلى هاويته، ويفقدها الوضعية التي اختارتها لنفسها.

شعرتْ بالرضا من أنها استطاعت أن تضبط أقوالها مع رياض. نظرت إلى صورتها طويلاً في الضوء الخافت، لأنها رُسمت بيده، ووعدته في سرّها:

- سأحبك إلى آخر يوم في حياتي.

إن نجاح أحمد في المرحلة الإعدادية قد مهَّد الطريق إلى بيتهم القديم. فسقت النباتات ونظفتها من الأوراق اليابسة، وغسلت أرض الدار بابتهاج لا مثيل له، ثم وضعت كرسياً بجانب أصيص الفل، وجلست تستمتع بشذى الورود والأزهار، وتحلم بالمستقبل إلى أن تناهى إلى سمعها رنين الجرس، فهرولت بخطوات راقصة باتجاه الباب الخارجي، وفتحت الباب وإذا بمريم تظهر أمامها، فقالت فرحة بعد أن تبادلت معها السلام والقبلات:

- أنت فعلاً صاحبة واجب يا مريم.

- طبعاً يا ثريا، أنا أعرف الأصول وأقوم بواجباتي الاجتماعية على أكمل وجه، ولكن هل لك أن تخبريني ما هو الواجب الذي عليَّ أن أقوم به اليوم؟
- ألم تأتِ لتباركي نجاح أحمد؟
- وهل نجح أحمد؟ مبارك مبارك، عقبى للشهادة الكبيرة إن شاء الله!
- اعتقدت أنك جئت لتباركي نجاحه!
- لا أريد أن أكذب عليك يا ثريا، فأنا لم آت لهذا السبب لأنني لم أسمع بخبر ظهور النتائج إلا الآن، ولكن هذا خبر يستحق أن نحتفل به. دعينا نشرب فنجاناً من القهوة أولاً، وبعدها سنشرب عصيراً بهذه المناسبة الرائعة. هيا تعالي معي إلى المطبخ فأنا سأعدُّ القهوة وأنت ستجهزين العصير بعد قليل.
قالت مريم ذلك، ثم اتجهت إلى المطبخ وهي تسأل:
- قولي لي ما هي أخبار دراستك أنت؟ هل أنهيت المنهاج؟
- لا، أنا أدرس الآن مادة العربي، ولم أبدأ بعد بمادتي الجغرافيا والتاريخ.
- آه، كم كنت أكره مادة التاريخ! لا أعرف لماذا يجب علينا أن نعرف الأحداث التي وقعت قبل مئات السنين وأسبابها ونتائجها والشخصيات البارزة التي لعبت دوراً فيها؟ والأنكى من ذلك كله هو أننا يجب أن نحفظ كل شيء على ظهر قلب. ألا نحسن صنعاً إن اهتممنا بالوقت الحالي؟
- من لا يعرف التاريخ، لا يستطيع أن يفهم الواقع الحالي يا مريم.
- وهل تظنين أنك ستقدمين الامتحانات في السنة المقبلة؟
- إن شاء الله.
خرجت مريم بصينية القهوة من المطبخ، ومضت تجلس في أرض الدار بجانب حوض الورود وهي تقول:
- حقاً إنني أستغرب لقدرتك يا ثريا، فكيف لك أن تحفظي كل ما في هذه الكتب دون أن تذهبي إلى المدرسة؟ فأنا حضرت كل الدروس مرتين وفي سنتين مختلفتين، ومع ذلك لم يحالفني الحظ في النجاح. ولكن هل تظنين أنك ستنجحين؟
- لا أعرف يا مريم، سأعمل الذي يجب عليَّ عمله وأترك الباقي على الله.
ارتشفت مريم رشفة من فنجان قهوتها ثم قالت.
- الحمد لله على أنني تخلصت من هموم الدراسة، لكن دعينا من هذا الحديث. هل تعرفين أنه لم يأت أحدٌ لخطبتي منذ أكثر من سنتين، منذ أن خطبني أبو علي، ذلك الرجل الذي لم يستحِ من سنوات عمره الخمس والستين وجاء يطلب يد فتاة في الثلاثين من العمر؟ إن أمي تقول أن سحراً كُتب لي لئلا أحقق أمنيتي بالزواج، ولذلك ستذهب غداً إلى الشيخ لتضرب لي المندل، وتعرف من هو الجنان الذي طعنني في ظهري وقطع طريق العرسان إلى بيتي.

أخذت تدير فنجان قهوتها وتحدق في تفلها، ثم رفعت رأسها ونظرت إلى مريم نظرة ثاقبة وهي تقول:
- الزواج قسمة ونصيب يا مريم، وأنت لم يأتِ نصيبك بعد. كيف لك أن تصدقي مثل هذه الخرافات؟
فأجابت مريم:
- صدقيني يا ثريا، إن الناس يفعلون مثل هذه الأشياء وأكثر من ذلك، وأكبر مثال على ذلك هو زوجة عمك.
- زوجة عمي؟
- طبعاً زوجة عمك، ألا تعرفين أنها هي التي كتبت سحراً لأمك لتتزوج، وتتخلص منها قبل أن يتزوجها طاهر؟

كان إعلان مريم بمثابة قنبلة فجرت كل ما بنته خلال السنوات القليلة الماضية وسوته بالأرض. لم تصدق أن زوجة عمها تستطيع أن تلحق بهم الأذى، وتسبب لهم الشقاء عن سابق قصد وتعمُّد. كانت تعرف أن زوجة عمها تغار على زوجها، وتخاف من أن يتزوج عليها، لأنها لم تنجب له صبياً، وحُرمت من الإنجاب بعد ولادة ابنتها الثالثة بعد أن

اضطر الأطباء إلى إزالة رحمها. وكانت تعرف أيضاً أن زوجة عمها تحمل حقداً في داخلها تصبه على أي شخص تصادفه أمامها، وإن لم تجد أحداً أمامها تحوله إلى الأشياء الجامدة، فترمي كل ما يصل يدها إليه ليتشظى على الحائط أو الأرض، حتى لقد سألت نفسها كثيراً هل حرمان زوجة عمها من إنجاب الصبي هو السبب، أم شيء آخر غير قادرة على الإفصاح عنه؟

سألت فجأة بعد صمت طويل راغبة في تفنيد صحة ما تدّعيه مريم:
- أنت تقولين أن سحراً كُتب لك لئلا تتزوجي، فلماذا لم تكتب زوجة عمي سحراً لأمي لئلا تتزوج، لا من زوجها، ولا من أي رجل آخر؟
فأجابت مريم:
- الله أعلم! أخبرتك فقط بما يقوله الناس.
وتذكرت المهمة التي كانت قد جاءت من أجلها غير مبالية بالقنبلة التي فجرتها، فقد أخرجت من حقيبة يدها ظرفاً أبيض وهي تقول:
- هذه الرسالة لك... يا لتعاسة حظي! لو أحبني شخص كل هذا الحب، لطرت في السماء السابعة. إنه شيء يدعو إلى الضحك والسخرية معاً! فأنت يأتيك شخص تتمناه أي فتاة ولا تهتمين، وأنا أنتظر ولا يأتي شخص يدق بابي.
ووضعت الرسالة فوق صينية القهوة، عندما لاحظت لامبالاتها، وهمت بالمغادرة.

لازمها كلام مريم عن زوجة عمها وأمها طوال المساء، فهاج كل ما كان قد ركد من آلام خلال المدة الماضية، ولعبت بها الهواجس والشكوك، وهاجمتها الأسئلة وابتلعتها في مياهها العكرة: هل تواجه زوجة عمها بما سمعت؟ وهل ستعترف إن كانت قد أقدمت فعلاً على هذا العمل؟ وماذا سيكون رد فعل عمها تجاه زوجته، إذا ثبت صحة ما تقوله مريم؟ هل تخبره وتكون السبب في خراب بيته وتشرد أولاده، كما شردتهم زوجته؟ وإن فعلت، هل سيعود الزمن إلى الوراء ويعيد لهم أمهم؟ ولكن ألا يمكن أن يكون السحر من خيال الناس وأن لا يكون له أي أساس من الصحة؟ حاولت عبثاً أن تصل إلى بر نظيف، فخانتها طاقتها في آخر الأمر، فاستسلمت ليأسها، وغرقت فيه وهي تقرر نبذ الفكرة من رأسها وعدم فتح باب قد لا تستطيع سدّه فيما بعد.
تذكرت رسالة رياض في وقت متأخر من الليل، ففتحتها، فقرأت كلمات قليلة: «ملكة قلبي، أعرف أنك تحبينني، وأظن أنني أعرف سبب تهربك مني. ستجدينني أمامك في الوقت الذي يناسبك أنت. رياض.»

كان القِدم يبدو بوضوح على أثاث غرفة الجلوس. كان كرسي والدهم ما يزال يقف على رأس طاولة الطعام منتظراً عبثاً صاحبه الغائب، وكانت لوحة الشروق تتذكر أيام الدفء العائلي، وكانت الستائر البنية تتدلى على النوافذ وتقوم بمهمتها في حماية الأثاث من التأثيرات الخارجية، وكانت الكتب المصفوفة في الخزانة تنتظر أحداً يفتحها ويقرأ حكايتها.

استنشقوا رائحة الماضي الجميل بمرارة خاصة لم يعرفوها من قبل، فقد كانوا يدركون أنهم يقفون على أطلال ذلك الماضي الذي رحل رحيلاً أبدياً، وأخذ معه أعز وأحب شخصين لديهم. وها هم قد عادوا لينفضوا الغبار عن بيتهم، ويعيدوه كما كان وهم يعرفون أن الذيْن عاشا فيه يوماً لن يعودا ويستأنفا حياتهما، كما يفعلون هم الآن. ضغطت على يد أختها حياة، وحدقت إلى عينيها بعد أن مسحت خديها بظهر أصابعها، وعقفت خنصرها، وشابكته مع خنصرها لتأخذ عهداً منهما بأنهم سيديرون ظهورهم إلى الماضي وينظرون إلى المستقبل. ومدَّت يدها الأخرى بخنصرها المعقوف باتجاه أخيها أحمد الذي كان واقفاً بجانب خزانة الكتب فتنبهت، وكأنها تراه لأول مرة منذ وقت بعيد، إلى الشارب الناعم فوق شفته العليا وإلى ضخامة جسده التي كانت توحي بأنه في العشرين من العمر، بدلاً من

السادسة عشرة، ففكرت: «لقد كبر فجأة»، وسألت نفسها: «أجعلته رغبته في أن يكبر ويصبح رجلاً، يقفز على الزمن، ويدخل عالم الرجولة بروح طفل؟»
تقدم أحمد من أختيه، وشابك خنصريه بخنصر كل منهما، ووقعوا اتفاقهم ببصمات خناصرهم.

كانت تخرج من قاعة المحاضرات، حين رأت نفسها تقف وجهاً لوجه أمام رياض. لقد بقي كل منهما يحدق إلى الآخر من دون كلام إلى أن قال:
- وعدتك بأن أظهر في الوقت الذي يناسبك أنت. إنك لم تكوني بعيدة عن قلبي، رغم أنك كنت بعيدة عن عيني. سمعت أنك سجلت في كلية الحقوق، لذلك أجيء كل يوم إلى كليتك منذ أن فتحت الجامعة أبوابها، وأقف أمام قاعة المحاضرات لأراك لكن دون جدوى، وها أنا ذا أراك أخيراً.

كانت تحضر المحاضرات يومين في الأسبوع، وتعمل في الأيام الأخرى مساعدة في عيادة طبيب: تسجل أسماء المرضى، وتنظم المواعيد، وتنظف العيادة عند نهاية الدوام. وكان أحمد قد بدأ بالعمل في العطلة الصيفية أيضاً، وأراد أن يستمر في عمله بعد انتهاء دوام المدرسة، لكنها رفضت، ووعدته بأنها ستسمح له بالعمل عندما يحصل على شهادته الثانوية.

دخلا مقصف الكلية، فتخللت رائحة القهوة والجبن المسخّن إلى أنفيهما. فتح كتابه، فظهرت صورتها مرسومة على ورقة بحجم الصفحة وهو يقول:
- عندما أصبحت ملكة قلبي وبطشت به بتهّربك، حاولت مرات عديدة التسكع في مملكتك والبحث عنك علّي أستطيع الوصول إليك. وكنت في إحدى المرات أمسك قلم رصاص، ولم أشعر بيدي وهي تحرك القلم على الورق إلى أن رأيت وجهك عليه.

لم يكن يرغب في أن يترك لقائهما للصدف، فالوقت الذي أشار إليه في رسالته قبل سنة ونصف سنة قد جاء، ولن يتركها تبطش بقلبه أكثر من ذلك، قال:
- إنني أعرف أنك تحبينني، لكنني أتوق إلى أن أسمع تلك الكلمة منك لتسكنني أثناء يقظتي ونومي.
فأرادت أن تقول: «أحببتك منذ أن خطفت الحمامة قلبي وطارت به وأودعته بين يديك، حين قفزتَ من فوق السلم، ووقفتَ بالقرب من شجرة الزيتون»، لكنها لزمت الصمت.

شعرت بأن الدنيا تبتسم لها والشمس تسطع من أجلها وهي تنضم إلى أفواج الطلاب والطالبات الخارجين من الكلية، فهاجمتها فكرة غريبة كادت تعكر عليها فرحتها: يقولون أن رحم الحزن خصب مثل رحم القطة، فهل سينجب الحزن الذي عاشته حتى الآن أحزاناً جديدة؟ أبعدت تلك الفكرة محاولة قلب المعادلة: فليكن رحم الفرح خصباً، ولينجب فرحها الذي ولد تواً أفراحاً جديدة كثيرة.

لم تعرف كيف وصلت إلى ساحة الجامعة. لم تستقل الباص كما اعتادت أن تفعل إلى ذلك الوقت، وإنما تركت أرجلها تقطع المسافة الطويلة إلى بيتها وهي تسترجع في ذاكرتها مشاهد لقائهما وكلماته وعباراته، وتشيّد مملكة أحلامها المقدسة، وتقدم على عتبتها أحزانها قرباناً في رغبة منها أن تنساها نسياناً أبدياً، لتدخل مملكتها، وتترك قلبها يستيقظ من سباته وينفض بقايا الأحلام عن نفسه ويعيش رغبته التي طالما طاردته إلى النوم والسكون بعد أن وقفت طويلاً على عتبتها، ومنعها خوفها من ولوجها.

لقد تبخرت غيمة خوفها وتلاشت في زرقة السماء وهي تترك عواطفها من دون لجام، وتنسى لأول مرة إحساسها بالمسؤولية تجاه كل شيء، وحتى تجاه نفسها. فقد طار عقلها الذي كان يتحكم بكل تصرف وكلمة لها، وحط على غصن شجرة مرَّت من تحتها ليغني لأصدقائه الطيور حب صاحبته وفرحتها.
وصلت إلى البيت، واتجهت إلى المطبخ بخطوات تلقائية. فتحت الثلاجة، وأخرجت الخضروات منها، ووقفت بجانب المجلى تجهز الفاصولياء للطبخ وهي تغني:

حطت حمامة على أرض دارنا
أضاءت بإشراقتها بيتنا
دنوتُ منها فطارتْ،
ونظرتْ خلفها بعد أن استدارت.

كانت يداها تعملان على نحو تلقائي وخيالها يتسكع مع رياض في أزقة مملكتهما إلى أن دعاها صوت الجرس، فهرولت بحركات راقصة إلى الباب.
تسمّرت في مكانها عندما رأت الزائرة وأمامها طفل صغير، ورأت معها الذي حاولت كل جهدها أن تتركه في الماضي، رأته على شكل برق يضرب مملكتها ويهدُّها فوق رأسها. بقيت تحدق ساهمة في وجه المرأة التي اقتربت منها لتأخذها في حضنها، فانتفضت، وعاد إليها عقلها الذي تركته على غصن شجرةٍ في الطريق طيراً مغنياً. عاد مكسور الجناحين، مبحوح الحنجرة يهمس لنفسه: «هل أتيتِ لتحدثي زلزالاً جديداً يقلِّب حياتنا رأساً على عقب، لئلا يكون بمقدورنا إزالة آثاره المدمرة هذه المرة؟»
كانت الزائرة تفكر بهم طوال السنوات الماضية حتى كاد تفكيرها الدائم بهم يعكر عليها سعادتها، فعادت ملبية نداء أمومتها، فقد قالت:
- إنك لم تغيبوا عن فكري لحظة واحدة.... لقد جئت لأطمئن عليكم وعلى أحوالكم.
فسمعت صوتاً مبحوحاً يشبه صوتها يقول:
- إن الله لا يترك عباده يموتون جوعاً أو برداً أو حزناً، وإن أغلق باباً فإنه يفتح عشرة أبواب أخرى، والأجدر لك أن تفكري في مسؤولياتك تجاه عائلتك الجديدة وابنك الصغير الواقف أمامك.
ثم قالت بنعومة ظاهرة ومرارة باطنة:
- تفضلي بالدخول، قلة أدب مني أن أترك الضيوف واقفين على الباب.
حاولت أمها أن تكبح عواطفها وتلطف الجو، فنظرت فيما حولها وهي تقول:
- إن كل شيء في البيت ما زال على حاله!
لم تستطع التحكم بحنجرتها المبحوحة التي بدت وكأنها هربت منها لتعمل بمنأى عنها وتقول:
- لم يتغير الأثاث، لكن الشرخ الذي أصاب الأساس أُعيد ترميمه.
تظاهرت أمها بعدم فهم كلامها، فقد قامت، ووقفت في باب المطبخ، وأعادت ما قالته:
- حتى المطبخ بقي كما هو...آه، كم وقفت هنا، وطبخت، ونظفت!

أدخلتها ذكرى طفولتها متاهةً بدروب متشابكة، فتمنت أن تلقي بنفسها في حضن أمها، وتمرغ وجهها بصدرها، وتشرب من الحنان الذي حُرمت منه قبل أن يرتوي عطشها. ودت أن تهرب من برودة فاجأتها إلى دفء حضنها ليشعرها بالأمان والحماية، لكن طيرها العائد ذي الحنجرة الجريحة والجناحين المكسورين لم يدعها تفعل ما أراد قلبها، فخرجت كلماتها تائهة:
- ماذا تريدين أن تشربي؟ فنجان قهوة أم كوب شاي؟

ركضت حياة إلى حضن أمها تقبلها وتشمّها وتمرغ رأسها على صدرها، وراحت أمها تهطل وابلاً من القبلات على وجه صغيرتها وأنفها وعيونها ورأسها، تعبيراً عن اشتياقها الممتد بين علو السماء وعمق البحر. توقفت عن تقبيل صغيرتها حياة، واتجهت إلى صغيرها أحمد الذي بقي واقفاً عند الباب الخارجي يراقبهما بعيون جامدة. فتجنبها أحمد بصمت، ومضى يجلس على كرسي أبيه؛ جلس لأول مرة منذ عودتهم إلى بيتهم قبل عام وبضعة أشهر، جلس على ذلك الكرسي الذي كان يبقى شاغراً في كل الأيام، ويجلس عليه العم طاهر عند مجيئه يوم الخميس بعد انتهاء دوام عمله ليقضي ليلة الجمعة عندهم، ويعود في نهاية النهار إلى بيته في القرية.

أراح ذراعه على الطاولة وهو يتذكر الصفعة التي تلقاها منها في زمن مضى، ويشعر بحداثتها في قلبه كأنما تلقاها للتو. لقد أراد أن يردَّ لها الصفعة، لكنه لم يستطع، فانكفأ على نفسه خشية صفعة جديدة تنسيه القديمة، ومكث منكفئاً في مكانه وأصابع يده الموضوعة على الطاولة ترتجف، وجفناه تسدلان ستائرهما كأن نوماً ظالماً فاجأه على غير موعد. كانت نظرته قد استقرت في حضنه محاولة قراءة ما لم تستطع قراءته كل السنوات الماضية.

طلبت منه أن يقوم بواجب الضيافة ويسلّم على أمه، فأطاعها وقام يصافح أمه ببرودة. وأطاع أمه الغريبة بطبع قبلة على خدها، ففعل ببرودة كبرى، وعاد إلى مكانه.

كانت حياة فرحة بقدوم أمها، فراحت تخبرها عن دراستها وتركها عادتها القديمة في التأخير عن المدرسة، وراحت تسترسل في الحديث عن مهارتها في الطبخ والتنظيف، وعادت طفلة صغيرة تتكلم مع أخيها الصغير بنفس أسلوبه الطفولي، فتنطق مثله صدى الأحرف بدلاً من الأحرف ذاتها، فهاجمها أحمد علّها تخفف من اندفاعها وتكبح من حماستها الزائدة، هاجمها بطريقته المشاكسة التي أضفى عليها في تلك المرة سخرية واستهزاءً، فتظاهرت حياة بأنها تحمي نفسها من سخريته باللجوء إلى حضن أمها وإخفاء رأسها تحت إبطها.

كانت تراقب حياة، وتتكلم مع أمها بصمت: «هل تعرفين كم أنا في حاجة إلى أن أضع رأسي مكان رأس حياة، وأبكي، وأخبرك عن الأوجاع التي اجتررناها بعد فراقك؟ هل تعرفين كم أنا في حاجة إلى أن أخبرك عن الأيام التي عشناها بعد رحيلك، وأن أخبرك عن رياض وحبي له؟! لكنني أعرف أنك ستعودين بعد قليل إلى عائلتك الجديدة وإلى عالمك الجديد الذي أحطته بسور يصل إلى السماء، وأغلقت بابه في وجوهنا، وفصلتِه عن عالمنا بوادٍ سحيق، وأحرقت كل الجسور بينهما، فكيف لنا إعادة بناء جسر جديد من حطامها الهش؟ وكيف لنا عبور الهاوية التي تفصلنا من دون جسور؟ لماذا مزقتِ كل الروابط التي كانت تربطنا وتنكرت لها؟ ولماذا بنيت روابط جديدة مع من لم يكن يربطك به أي رابط؟ هل دفعك العوز المادي لخيارك ذاك؟ لا، فنحن لم نكن في فقر مدقع، وكان يكفينا ما نملكه. هل نفدت الخيارات أمامك، ولم يبقَ أمامك إلا ذاك الخيار؟ ولكن لماذا واربت الحقيقة ولم تقولي بصريح العبارة أنك في حاجة إلى حضن رجل، ولا تستطيعين العيش من دونه، وتستطعين العيش من دوننا؟

ولماذا تعكرين لحظات فرحي؟ فأنت عكرتِ فرحتي بانتهائي من امتحاناتي يومذاك بإعلانك هجرك لنا، وها أنت تعكرين الآن فرحتي برياض بظهورك المفاجئ واختفائك الأكيد بعد قليل. لماذا... ولماذا تعودين بعد أن اعتدنا فراقك وأجبرنا أنفسنا على العيش من دونك؟ ألتفتحي جراح الماضي بعد أن سدَّ الزمن فوهاته بدمنا المتخثر؟ أم فاض عندك بعضاً من العواطف بعد أن أغدقت بها على عائلتك الجديدة، وجئت لترمي لنا بالفتات؟»

أعادها صوت حياة وهي تقول لأمها:

- ستبقين معنا، أليس كذلك؟

فأجابت أمها:

- لا أستطيع، يجب أن أسافر عند المساء إلى بيتي.

واختفت أمهم كما ظهرت على غير موعد، وتركتهم لعاصفة قلعتهم من جذورهم وعبثت بهم. عادت إلى المطبخ وحزنها القديم يعكر فرحها الجديد، وارتمت أختها حياة في حضن كنبة جامدة بدموع في عينيها، وبقي أخوها أحمد تمثالاً حجرياً على كرسي والده يحدق في الأرض كأنما يريد ثقبها ودفن ضياعه فيها.

لم تكن ساعة قد انقضت على مغادرة أمهم، حين جاء العم طاهر على غير عادته. لم يكن قد جاء في تلك المرة ليأخذهم إلى القرية، كما حدث في المرة الماضية بعد أن خرجت أمهم من ذلك الباب، فقد تهاوى على الكنبة بجانب حياة المتكومة على نفسها وهو يقول:

- سترونني صباحاً ومساءً من الآن فصاعداً.

فهو لم يعد إلى بيته بعد انتهاء عمله بسبب شجار عنيف دار بينه وبين زوجته في يوم الأمس، قال:

- لقد آن الأوان لأن أضع حداً لهذه المهزلة. إنها تغار عليَّ من أية امرأة، حتى من صباح المجنونة، وترى في كل منهن نادية رغم أنني أخرجتها من قلبي وحياتي منذ زمن بعيد.

لقد أحب نادية، في ذلك الحين، حباً وصل إلى حد الجنون، فقد كان يتنكر في النهار في هيئة بائع متجول ويذهب إلى قريتها ليراها، ويشق الظلام في الليل غير عابئ به ليلتقي بها في حديقة بيتها، ويتسامر معها في حماية الظلام إلى ساعات الفجر. وحين أرادا أن يكللا عشقهما بالزواج ومباركة الأهل، طلب من والده أن يخطبها له، لكن والده أقام الدنيا ولم يقعدها عندما عرف مَن تكون، وأمره بأن يقطع علاقته معها على الفور وإلى الأبد، وأبدى استعداده لتزويجه بأية فتاة يختارها، ما عدا تلك الفتاة التي تسببت عائلتها في شقاء أزلي له ولعائلته.

كان العم طاهر يعرف قصة عائلته، لكنه لم يكن يعرف أن الطرف الآخر في القصة هو عائلة نادية: فعندما كان والد العم طاهر في الثامنة عشرة من عمره، قتل عمُ نادية أخاه البكر والوحيد بسبب خلاف على تخوم أرضيهما المتجاورتين. كان ذلك في ظهيرة يوم ربيعي، عندما جاء شخص يخبرهم أن أخاه وجاره في الأرض يتشاجران، وإذ لم يكن والده موجوداً في البيت، فقد ركض هو باتجاه الأرض، ولحقت به أمه. وقبل أن يصل إليهما وصل صوت طلقة الرصاص إلى أذنيه، واستدعى نفس الصوت الفلاحين من الأراضي المجاورة ليتجمعوا حول جثة مرمية أرضاً، وجثة واقفة تسند مؤخرة بندقيتها على قدمها. وصل، ورأى أخاه يطلق أنفاسه الأخيرة بعد أن اخترقت الرصاصة صدره، وقطعت شرايين قلبه. لم يلتفت إلى القاتل الواقف بالقرب منه ومؤخرة بندقية صيده ترتاح على قدمه بعد أن أصابت هدفها، فقد كان همه أن يوصل أخاه الجريح إلى الطبيب، فحمله على كتفه بقوة استغرب لها نفسه، وأخذ يهرول باتجاه القرية والدم ينقط، ويترك أثره لتقتفي الأم أثرهما وهي تلطم وجهها، وتعوي مثل ذئبة جرحت للتو. لكن عزرائيل الموت كان قد لاح لأخيه الجريح في الأفق وهو يتهيأ للنزول واستلام أمانته، فطلب منه أخوه أن ينزِّله على الأرض ليسلِّم أمانته بسلام، فقد قال: «حتى وإن أوصلتني إلى الحكيم لقمان فلن يكون بمقدوره أن ينقذني من عناد عزرائيل». فأنزل أخاه الجريح على الأرض، ورآه كيف يغلق عينيه على ذراعيه، ويتحول إلى جثة دون أن يتفوه بكلمة واحدة. ورحل آخوه، وترك صورته في تلك الهيئة كابوساً يلاحقه سنوات طويلة، ويعكر عليه صمت لياليه وصخب أيامه. وبعد الكثير من المعاناة والسنوات استطاع أخيراً أن يركن تلك الصورة في ركن قصي من قلبه، لكن ابنه طاهر استحضرها طازجة أمام ذاكرته، عندما طلب منه أن يخطب له ابنة أخِ قاتل أخيه، وفتح جرحاً كان الدم قد تخثر على فوهته دون أن يندمل كلياً.

حاول طاهر أن يقنع أباه بأن ما حدث كان في الماضي البعيد ولا علاقة للفتاة بفعلة عمها. فخرج والده عن طوره، وركض إلى الحائط، وخلع صورة أخيه القتيل، وقرّبها من عينيه إلى أن عميتا ولم تعودا تميزان ملامح من في الصورة، ليذكره بالدم الذي أُهدر ظلماً وبتأنيب الضمير الذي آكل قلبه لأنه لم يلبِ نداء صاحب الدم المهدور المستجير من قبره بسبب وجهاء القرية وكبارها الذين تدخلوا حينها، وأقنعوه بأن لا يفتح باب ثأرٍ لن يقدر على سدِّه إلا الذي خلقه، وبأن لا يجر العائلتين إلى حربٍ لا يعلم أحدٌ كم من الأرواح ستحصد، وكم من الأرامل والثكالى

ستخلِّف، وهدَّؤوا غليان دمه باقتراحهم ترحيل أهل القاتل عن القرية وتحريمها عليهم إلى الأبد بعد أن أخذ القضاء مجراه، وحكم على القاتل بعشرين سنة. فأطاعهم، ولم يغفر لنفسه الذنب الذي ارتكبه بحق دم أخيه المهدور، رغم السنوات الطويلة.
وجاء ابنه طاهر يطلب منه أن يضع يده في يدهم، قال: «إنني سأقطع يدي قبل أن أمدَّها وأصافح أحداً منهم، وإنني أفضِّل أن أدفنك بيدي هاتين على أن أزوجك امرأة منهم تصبح أماً لأحفادي، وتعيش بيننا، وتعيد صرخات أخي المستغيثة إلى أذنيَّ.»
لم يكتفي بأن يريه صورة أخيه، فقد فتح خزانته الخاصة التي لم يكن يفتحها إلا نادراً، ويحتفظ بمفتاحها في جيبه، ولا يسمح لأحد بالاقتراب منها، وأخرج منها قميصاً أبيض سلّمته له أمه أمانة قبل أن تلحق بابنها القتيل ليسلمها هو بدوره إلى أحد أبنائه. إن أمه لم ترضَ أن تغسل ذلك القميص أبداً، واحتفظت به وأثر دم ابنها المتخثر ما زال عالقاً به، وثقبُ أحدثته رصاصة أُطلقت في لحظة مجنونة ما زال في جهة صدره اليسرى. كانت تشمُّه كل يوم، وتبكي صاحبه، ثم تطويه، وتعيده إلى الكيس القماشي الأسود الذي خاطته خصيصاً له، وتضعه تحت وسادتها ليكون قريباً منها، إن أيقظها خيال صاحبه في الليل لتبكيه من جديد كما لم تبكه من قبل إلى أن قضت عليها حسرتها بعد سنة من رحيله ولحقت به، وكأنها عدَّت استمرار حياتها خيانة لابنها الميت.

قال والد العم طاهر في آخر الأمر: «إنني على استعداد لأن أخطب لك أية فتاة تشير إليها، ولكن نادية لن تراها، وإن رأيت قفا رقبتك. وإن أصررت على الزواج منها، فإنني سأغضب عليك وأتبرأ منك إلى يوم الدين وأحرمك من اسمي وميراثي، وسأجبر أمك لتحرِّم عليك الحليب الذي أرضعتك من صدرها.»

كانت نادية على استعداد لأن تكفر عن خطأ عمها بالهروب مع طاهر، وكانت تظن أن هروبها معه سيُخمِد الجمرات التي اتقدت من جديد في قلب أبيه، ويصفح، وينهي عداوة السنوات الخمس والعشرين. وكان طاهر يدرك أن كفارتها ستتحول إلى خطيئة تلقي بالعائلتين في جحيم عداوات جديدة وتصب الزيت على نار كانت قد خبت منذ ذلك الوقت، فلم يستطع فعل ما تريد، فشعر بالعجز وقلة الحيلة. وحبس نفسه في غرفته أسابيع عديدة، وعندما خرج منها، كان قد قرر أن يتخلى عن حبيبته إلى الأبد، وتخلى معها عن اندفاعاته وجزء كبير من نفسه.

اختار له أبوه سميرة، سليلة آغوات قريتهم، اختارها له عروساً لتنسيه نادية وعائلتها. كانت سميرة تحبه منذ مدة طويلة، كما أخبرته بعد زواجهما. وكانت تحفظ أوقات ذهابه وإيابه من أمام بيتها إلى مدرسة البلدة المجاورة، وتنتظره لتراه من خلف ستارة نافذتها، وتحلم بأن تتحول نظرتها إلى طيرٍ يحط خفية على قلبه، ويخبره بحبها له، ويعود إليها بخبر يفرح قلبها. وقد فرح قلبها فعلاً، عندما حلَّ والده ضيفاً خاطباً على والدها.
لقد مضت أسابيعُ بعد زفافهما وهو لا يقدر على الاقتراب منها، فاشتعلت نار غيرتها منذ ذلك الوقت، ولم تنطفئ أبداً، حتى بعد أن أكد لها مراراً وتكراراً أنه أخرج نادية من قلبه وعقله، ومحت السنون ذكراها.

ألقى العم طاهر رأسه إلى الوراء، وكأن ما حدث كان في الأمس القريب. وقال:
- لقد حان الوقت لأنهي هذه العلاقة المريضة.
هدأت من روعه وتوسلت إليه:
- أرجوك يا عمي أن لا تسرع في أخذ قرارات حاسمة تذهب ضحيتها بناتك. أرجوك أن لا تكرر مأساتنا ولا تحرمهن من حضنك أو من حضن أمهن... إنني متأكدة من أنك لو فكرت في إيجابيات زوجتك وسلبياتها، ستعدل عن قرارك، وتعود إلى بيتك وتغض النظر عن مشاكلكما

بقي العم طاهر عشرة أيام مقيماً معهم. كان يخرج في الصباح إلى العمل، ويعود في المساء ناسياً أو متناسياً زوجته وبناته، وكانت تحاول إقناعه بالعدول عن قراره عند كل فرصة سانحة إلى أن جاء صباح اليوم الحادي عشر، وأعلن قبل خروجه إلى عمله:

- لا تنتظروني في المساء، فأنا سأعود بعد انتهاء الدوام إلى القرية.

جلست على نفس المقعد في نفس القاعة تستمتع إلى نفس الدكتور الذي كان يدرِّس مادة القانون المدني. هرولت بعد انتهاء المحاضرة التي لم تفقه من قسمها الأخير شيئاً، هرولت وراء قلبها إلى نفس المقصف لترى رياض يجلس إلى نفس الطاولة في انتظارها. فقد اعتادا أن يلتقيا في مقصف الكلية الذي يعج بالطلاب والطالبات، ويسود فيه الضجيج وقرقعة الأطباق والأكواب والفناجين، وتفوح منه رائحة القهوة والجبن المسخن. وقفت في باب المقصف، فرأته يجلس إلى نفس الطاولة يحدق في راحة يده. مشت إليه بخطوات هادئة، وحين وصلت إلى الطاولة، أغلق يده إلى أن جلست، ففتحها من جديد، فظهرت علبة صغيرة وهو يقول:

- هذه لك.

ترددت في قبول الهدية، فقالت:

- سأقبل هديتك في هذه المرة بشرط أن لا تهديني هدايا ثمينة مرة أخرى.

- كنت أخاف أن لا تقبلي هدايا ثمينة لذلك اشتريتها لك من فضة، والفضة ليست ثمينة على الإطلاق.

أخذت العلبة، وفتحتها، فرأت سلسلة من فضة معلق بها قلب فضي، فتحته، فقرأت على أحد طرفيه من الداخل اسمه، وعلى الطرف الآخر اسمها. لبستها في رقبتها واعدة نفسها بأن تلبسها إلى آخر يوم في حياتها، لكنها خالفت وعدها سريعاً، عندما قال لها بعد مرور نحو نصف ساعة:

- يجب أن تتركي عملك يا ثريا، وتتفرغي لكليتك من أجل أن تنهي دراستك في أربع سنوات. وأعدك بأن أدفع لك نفس المبلغ الذين تتقاضينه من عملك.

فخلعت السلسلة من رقبتها، ووضعتها أمامه على الطاولة. ووقفت وهي تنظر إليه نظرة لوم وعتاب، ثم حملت كتبها، وأجابت قبل أن تلتفت للمغادرة:

- كنت أظن أن قيمتي عندك أكبر من هذا.

فقام من كرسيه، وأسند يده اليسرى إلى الطاولة، وأمسك بيمناه يدها بقوة، وأجلسها مكانها وهو يقول:

- إن كنت تعتقدين أنني أريد شراءك، فيعني ذلك أنك لم تعرفينني بعد. إنني سأحصل على لقب المهندس بعد شهرين، وحان الوقت لأن نحقق حلمنا بفتح بيت يضمنا. لذلك أقترح أن أبيع بيتي وأشتري بيتاً في نفس بنايتكم ونفس طابقكم، ونحول البيتين إلى بيت واحد نعيش كلنا فيه ونقطع بذلك الطريق أمام ثرثرة الناس بأنني أسكن عند زوجتي أو عائلتها تسكن عندي، وهكذا سيعيش أحمد وحياة استقلالهما وفي نفس الوقت معنا، ما رأيك أنت؟

لم تستطع أن تجيب بشيء، فعقدت ذراعيها وأدارت رأسها وأطرقت إلى الأرض في حيرة واضحة على وجهها، فأضاف رياض:

- أريدك أن تعرفي يا ثريا أنني على استعداد لأن أنتظرك طوال حياتي إن تطلب الأمر، لكن الأولاد كبروا، وإن شاهدني الناس مع أحمد سيظنون أننا من جيل واحد وأننا صديقان، حتى لقد قررت ليلة البارحة أن أزوره وأطلب منه يدك، لكنني عندما وصلت إلى الباب، غيّرت رأيي، وعدت إلى البيت لأنني أردت أن أشاورك في الأمر أولاً، ولأنني أعرف أنك لا تريدين أن أزوركم في البيت، والأهم من ذلك كله هو أن الوقت كان متأخراً جداً، فقد كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة وخمس دقائق.

دُهشت أشد الدهشة، عندما سمعت جملته الأخيرة، فرفعت عينيها تنظر إلى وجهه وتقول بنبرة فيها استغراب واضح:
- هل تعرف أنه تراءى لي أنني أراك أمام باب بيتنا في تلك الساعة نفسها وتلك الدقيقة نفسها؟!
- كيف؟!
- لقد استيقظت ليلة البارحة على نشيج حياة وهي تتمتم بكلام غير مفهوم، ويتصبب العرق من جبينها ورقبتها، وكانت قد رمت لعبتها أحلام من حضنها، وكأنها كانت في صراع معها، فأشعلتُ المصباح الموضوع على الخزانة الصغيرة وسط سريرينا، وأيقظتها بهزها من كتفها، فاستيقظت وجلست بوثبة من جسمها العلوي، وألقت بنفسها في حضني وهي تقول أنقذيني، أنقذيني. فعرفتُ أنها رأت كابوساً فظيعاً، فهدَّأت من روعها وأعطيتها شربة ماء، وأكدت لها أنه مجرد حلم مزعج. كان نفس الكابوس قد راودها، فقد قالت بعد أن هدأت بعض الهدوء: «رأيت في منامي أنني أسير في غابة مظلمة، وأحاول اجتياز قبور كثيرة دون أن أطأها، ولكن فجأة يظهر رجل ضخم بعين واحدة كبيرة أمامي ويريد أن يخطفني، فيشدني من يدي وهو يضحك ضحكاً مدوياً. أحاول أن أهرب منه، لكنني أشعر بأرجلي غائصة في قبر من القبور التي تحيطني، ولا أستطيع الحراك، فأحس بجسدي يتفصد وأنا أصرخ بكل ما أملك من قوة دون أن يخرج صوتي، ودون أن يأتي أحد لإغاثتي.» فطوقتها بذراعي الاثنتين، وشعرت بجسمها يرتجف ارتجافاً عنيفاً، ورحت أمسح شعرها وأؤكد لها بأنني معها ولن أترك أحداً يخطفها إلى أن هدأت وخف ارتجافها. فقمت من عندها وأخرجت من الخزانة كتاب قرآن صغير، ووضعته تحت وسادتها ليحميها من الكوابيس، ونصحتها بأن تقرأ آيات منه قبل أن تخلد للنوم، وطلبت منها أن تنام من جديد، لكنها لم ترغب في النوم في سريرها، خوفاً من أن يعاودها ذلك الكابوس مرة أخرى، وتوسلت إليَّ أن تنام عندي في السرير، لكن سريري صغير ولا يتسع لشخصين اثنين، فأبعدت الخزانة الصغيرة من بين سريرينا وقرّبت أحدهما من الآخر، فأصبحا سريراً واحداً، حتى لقد قلت لها بصوت هامس ضاحك: «سيقول الجيران أننا جُنّنا في هذا الليل، ونقوم بتعزيل البيت.» ثم أخذتها في حضني، بعد أن حضنت هي لعبتها أحلام، وفكرت في المرة السابقة التي حلمت فيها نفس الحلم، فظننت حينها أن سبب كابوسها هو خوفها من ترك عالم طفولتها والولوج في عالم بلوغها، ففي ذلك اليوم نفسه عادت من المدرسة باكراً، ودخلت الحمام، وخرجت منه بعلامات اشمئزاز على وجهها وهي تشعر بألم في ظهرها وبطنها، فظننت أن أختي الصغيرة لم تتقبل فكرة إدمائها مرة في الشهر حتى تحولت إلى كابوس يزعج نومها. لكنني ليلة البارحة لم أعد أعرف سبب الكابوس الذي يراودها ويزعج صفاء نومها، فبقيت راقدة في مكاني وأنا أشعر بزفيرها على رقبتي، وأحدق في عتمة الغرفة علّي أستوعب ما يحصل لها، وأسأل نفسي: ماذا أفعل؟ ومن أستشير؟ أهي حالة عرضية أم مرضية؟ هل أصيبت أختي بالعين أم كُتب لها سحر كما ستدعي مريم أو زوجة عمي في مثل هذه الحالات؟ كانت تلك الأفكار تتدفق إلى رأسي، عندما سمعتك تناديني، وتراءى لي أنك تصعد سلّم بيتنا وتقف أمام بابنا، وترفع يدك لتضغط على الجرس، فنظرت إلى الساعة، فرأيتها تشير إلى الثانية عشرة وخمس دقائق. بقيت وهلة في سريري وأنا أسأل نفسي: أغفلت وحلمت بمجيئك؟ أم أنني أتمنى مجيئك لأسألك النصح في حالة أختي؟ أم أنك أمام الباب فعلاً؟ فقمت وتسللت من غرفتي بخطى هادئة، واتجهت إلى الباب الخارجي، ونظرت من عدسة الباب، فلم أرَ أحداً. فتحت الباب بهدوء، ونظرت إلى السلّم المؤدي إلى الطابق العلوي وإلى باب الجيران المغلق. سمعت وقع خطوات على السلّم السفلي، فأردت أن أخرج إلى فسحة السلم لأشاهد صاحب الخطوات، لكنني خفت من أن يحس الجيران بي، ويجعلوا من خروجي في أنصاف الليالي حكاية يتسامرون بها أثناء اجتماعاتهم الليلية واستقبالاتهم الصباحية. فأغلقت الباب بنفس الهدوء، وعدت إلى السرير وأنا أفكر في تهيؤي الذي بدا يقيناً مثل عين الشمس وبكوابيس أختي، حتى لقد خشيت أن تكون صباح قد عدتنا بوساوسها وأدخلتنا إلى عالمها. ولكنك الآن وأنت تقول بأنك كنت أمام باب بيتنا بالفعل وفي ذلك الوقت نفسه فلا أعرف ماذا أقول. هل ناديتني؟

فأجاب رياض:

- ليس بصوت عالٍ، لكنني أستطيع أن أستخلص من كلامك هذا يا ثريا بأن ما يربطنا هو شيء فوق العادة، وأن روحينا أصبحتا روحاً واحدة. ولا شيء في هذا العالم سيقدر على أن يفرق بيني وبينك.
قال رياض ذلك ثم أخرج من بين كتابه صورته وصورتها التي رسمها على صفحة واحدة إحداهما بجانب الأخرى بعد أن رجع أدراجه إلى البيت في ليلة البارحة. وأعطاها إياها وهو يقول:
- لقد رسمتها لك.
نظرت إلى الصورة طويلاً قبل أن تخبئها بين صفحات كتابها وهي تشعر بطيفه ظلاً يحميها أوقات الحر ودفئاً يلفها أوقات البرد، فتماهت روحها في روحه فأصبحتا روحاً واحدة.
قال رياض:
- سأكون أسعد رجل على وجه الأرض يا ثريا، إن رضيت أن تكوني زوجة لي. أعرف أنك ستوافقين في هذه المرة، ومع ذلك أريد أن أمهلك أسبوعاً كاملاً لتفكري في الموضوع. سأراك في الثلاثاء القادم في الثانية عشرة ظهراً في هذا المكان نفسه، هذا إن استطعت الانتظار إلى ذلك الوقت، ولم أخرق قانونك بعدم زيارتكم في البيت، وأضرب به عرض الحائط.

اعتادت أن لا تستقل الباص بعد لقائهما، فقد كانت تطلق العنان لأقدامها وهي تسترجع مشاهد لقائهما عذراء قبل أن تفقدها وقائع الحياة بكارتها. خرجت في تلك المرة ثملة بفكرة توحد روحيهما، وأخذت تنثر مع كل خطوة من خطواتها بذور أحلامها، وتراقبها بعيون قلبها كيف تينع وتغدق عليها بثمارها وظلالها الوارفة. لم تكن تعرف أن نبتة شوكية ستنمو منها، وتغرز شوكتها في قلبها الذي تحول أثناء سيرها إلى عصفور خرج من قفص صدرها، وحلق فوق رأسها على إيقاع خطواتها.

عاد عصفورها راضياً إلى قفصه بدخولها باب البيت وإغلاقه وراءها، مقررة أن تفاتح أخاها وأختها بموضوع حبها، وإن وافقا، ستكون بعد أشهر قليلة امرأة متزوجة بخليل قلبها.
جلست الجلسة المربعة على سجادة غرفة الجلوس، ففهما الإشارة من دون كلام، فأخذا مكانهما. فأخبرتهما حكايتها، وسألتهما بقلب وجل:
- أريد أن أعرف رأيكما. هل أنتما موافقان على زواجي من رياض؟
لقد دخلت فرحة العرس من بابهم جالبة زمراً وطبلاً، فقد قال أحمد فرحاً أشد الفرح:
- يا له من أمر جميل! سيصبح لي أخٌ وسيعيش معي في نفس البيت أيضاً.
وزغردت حياة وقالت ترجوها أعمق الرجاء:
- أرجوك يا ثريا أن تكون حفلة العرس بعد امتحاناتي لأرقص لك ولرياض رقصاً لم أرقصه من قبل.
- طبعاً يا حياة، ستكون حفلة العرس بعد الامتحانات، فأنا أدرس وأنتما تدرسان ورياض نفسه يدرس.
فشابكوا خناصرهم، وركبهم يلامس بعضها بعضاً، في انتظار يومها المنشود.

لم يخرق رياض قانونها، ولم يزر أخاها قبل موعدهما القادم. فذهبت إلى موعدها لتخبره أنه يستطيع أن يزور أخاها، ويطلب منه يدها. لم ترَه جالساً في انتظارها كما اعتاد أن يفعل، ولم يظهر فيما بعد ليكافئ انتظارها. أقنعت نفسها بأنها أخطأت في فهم الموعد، فانتظرت إلى أن جاء الثلاثاء التالي، فذهبت في نفس الساعة، وجلست من جديد إلى طاولتهما المعتادة، وانتظرت قدومه من دون جدوى. لم تعد قادرة على إطالة الانتظار بقلقه وهواجسه الجهنمية أكثر من ذلك، فأخرجت عنوان بيته، وقررت أن تقطع الشك باليقين.

مشت عبر الشارع الرئيسي العريض، ثم دخلت شارعاً فرعياً تلقي أشجار ضخمة بظلالها عليه وعلى البيوت المعترشة أسوارها شجيرات الياسمين. دخلت في نهاية الشارع مدخل بناية واسع، وصعدت درجات سلّمها العريض، ووصلت إلى الطابق الأول. ضغطت على جرس الباب الواقف على اليمين، فخرجت في تلك اللحظة نفسها امرأة من الباب المقابل حاملة كيس قمامة، وحين جاورتها قالت بصوت هامس دون أن تنظر إليها:
- إنه اُعتقل، غادري بسرعة.
وأكملت طريقها نازلة السلّم بكيس قمامتها.
فاقشعر بدنها، وأحست بشيء يتصدع في داخلها، ويتكسر. التفتت بسرعة راغبة في هبوط السلّم ومزايلة المكان، لكن باب رياض فُتح، ووقف في فتحته رجل ضخم البنية، يرتدي ثياباً مدنية وبوطاً عسكرياً. وظهر وراءه رجل آخر بنفس المواصفات اجتازه بسرعة، ووقف خلفها، وقبض على ذراعها وهو يقول بنبرة ساخرة:
- صديقنا ينتظرك.
ونزل بها السلّم.
أحست بنفسها مثل طير ذهب إلى حبوب منثورة، وما إن نقر إحداها، حتى أطبق الفخ عليه، فأدرك متأخراً الطُعم الذي أغواه إلى الفخ المخفي.

فتح أحدُ منهما الباب الخلفي لجيب عسكري، ودفعها الآخر إلى داخله. لم تتذكر أنها شاهدت ذلك الجيب أمام البناية وقت دخولها، ونهرت نفسها على شرودها.
جلس الذي دفعها إلى داخل الجيب على المقعد قبالتها بعد أن أخذ الآخر مكانه في المقعد الأمامي بجانب السائق، وأخرج مسدسه من بيته المثبت على حزام بنطاله من الخلف، وراح يعبث به، وينقل نظراته بين مسدسه وبين وجهها باستهتار واضح.
أكان رياض يقصد هذا، عندما قال لها في إحدى المرات: «إن حدث لي أي مكروه، يجب أن تتصرفي وكأنك لا تعرفين أي شيء عن نشاطي، وأن تقولي الأمور الأخرى كلها بصدق؟» انتبهت إلى أنها ما تزال ترتجف، وحاولت التماسك، عندما فكرت أنهم إن شاهدوا ارتجافها، سيعتقدون أنها تعرف الكثير.

فتح صاحب المسدس باب غرفة صغيرة، ودفعها بقوة إلى داخل الغرفة، فتعثرت، لكنها استطاعت إعادة توازنها بالاستناد إلى طاولة مكتب صغيرة من الصفيح الثقيل، يقف خلفها كرسي حديدي بجانب حائط زُين بكابلات مرتبة من الأكبر إلى الأصغر، وقد اُنتزع كابل منه ووُضع على الطاولة، وكان على الحائط المجاور دولاب معلق يقف تحته كرسي حديدي بجانب باب آخر غير الباب الذي دُفعت عبره.

مضت أكثر من خمس ساعات وهي جالسة على الكرسي الحديدي دون أن يُفتح أي من البابين. كانت تحس بأنها تقف على أرض مليئة بأوكار الفئران، فلم تجرؤ على أية حركة خشية أن تطأ أحد الأوكار، فتغوص قدميها فيه، ولا يعود بإمكانها الخروج منه. فكرت في أسئلتهم المحتملة كلها، وجهزت جواباً لكل سؤال. دعت الله أن لا يقلق أحمد وحياة على تأخيرها، وسألت نفسها: «كيف سينجوان، إن أبقوها في هذا المكان أو نقلوها إلى مكان آخر؟»
وأخيراً دخل ضابط برتبة عالية لم تعرفها، فهي حفظت أشكال الرتب من دروس التربية العسكرية، ونستها بمجرد أن قدمت امتحانها. جلس الضابط خلف الطاولة دون أن ينظر إليها، ثم دخل صاحب المسدس ووقف بجانب الطاولة، وأمرها بالوقوف، وسألها:
- ما اسمك؟
- ثريا نور الدين.

وأعقب سؤاله بوابل من أسئلة أخرى، فقد أراد أن يعرف دراستها، وعملها، وتاريخها، وتاريخ آبائها وأجدادها، وميولها السياسية وطريقة تفكيرها، وكل شيء عنها، فقد قال:
- لا يجوز أن يبقى أي شيء خارج علمنا.
وأراد خصوصاً أن يعرف عن علاقتها برياض:
- ما هي علاقتك برياض عثمان؟
- هو تقريباً خطيبي.
فقال بنبرة مستهزئة إلى أبعد حدود الاستهزاء:
- ومنذ متى تلتقين به كخطيب تقريبي؟!
- منذ سبعة شهور تقريباً.
- وكم مرة أعطاك نشرات لتقرأيها وتوزعيها. قولي الصدق فهو نفسه اعترف بأنه كان يعطيك نشرات لتقرأيها وتوزعيها.
- هو لم يعطني أية نشرات.
- لا تكذبي، فهو اعترف بلسانه بأنه كان يعطيك نشرات.
- أحلف بالله العظيم أنني لا أعرف أي شيء عن النشرات التي تتحدث عنها.
وسألها أخيراً بنبرة مهينة:
- أين تلتقيان عادة؟ في بيته لتتصرفا بحريتكما؟
فأجابت بهدوء ظاهري ولون وجهها يحمر ويخضر:
- إننا نلتقي في الكلية، وعلى مرأى من عيون الطلاب والطالبات.
- لا تكذبي، فنحن جلبناك من أمام بيته.
- هذه هي أول مرة أذهب فيها إلى بيته. لم يأت إلى موعدنا، فذهبت لأطمئن عليه.

فُتح الباب، ودُفع رياض إلى الداخل. كان معصوب العينين ومحلوق الرأس وآثار الكدمات والكابلات تلون وجهه ورقبته وساعديه، ولا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه.
أزال صاحب المسدس العصابة بحركة عنيفة عن وجه رياض، فظهر ورم بنفسجي بدلاً من عينيه. ورحب به باستهزاء، وقال له:
- إننا جلبنا لك عشيقتك أو خطيبتك التقريبية كما قالت هي نفسها، لأرى إن كنت ستصرُّ على عدم الاعتراف.
قال ذلك وأمسك ذقنها، وراح يداعب خدها ورقبتها بأصابعه وهو يقول لرياض مؤكداً:
- أنا أعرف كيف أجعلك تقول كل ما عندك، فأنا الرقيب خليل الذي يُعرف عني بأنني أُنطِق الحجر.
احتقن وجه رياض، وأطلقت عيناه المتورمتان شرارة احتقار وهو يحاول، مثل طير في قفص، ضرب القضبان بأجنحته المكسورة:
- هي ليس لها علاقة بأي شيء.
فقال الرقيب مستهتراً أن أمرها بيده:
- إن كنت تريد لها أن تخرج بشرفها من هنا، فعليك بالاعتراف.
فأجاب رياض:
- قلت لك كل ما عندي، ولا إضافات لدي.
فتحول استهتار الرقيب إلى ريح غاضبة تعصف بالغرفة ومن فيها. فقد أمسك ياقة قميصها الأزرق بيديه الاثنتين، وشقَّ القميص بحركة عنيفة، فانتثرت أزراره في الغرفة وهو يقول:

- ستكون لديك إضافات، عندما ترى كيف أجامعها.

لم تشعِرها تلك الريح اللعينة التي هبت فجأة، وقلعت رداءها، وكشفت عورتها، بأنها تجمع كل بصاق فمها، وتبصقه في وجه الرقيب.
كانت إهانة وجهتها له حواء ضعيفة لا حول لها ولا قوة وهو الذي يُسري القشعريرة في أجساد أكثر الرجال قوة. لم يصدق ما حدث، إلا بعد أن رفع يده إلى وجهه وتلمس البصاق، فوجه صفعة مدوية إلى خدها اليمنى، وألحقها بأخرى إلى خدها اليسرى، فشعرت بجمرتين من النار تستقران على خديها، وشعرت بضوء النهار يتحول إلى عتمة دكناء تعوم فيها نجوم حمراء وصفراء وخضراء يتخبط بعضها ببعض، ثم بعينيها. برد خداها على الصفعة الثالثة والرابعة. اختفت العتمة ونجومها، وحلَّ الضوء محلها، فلم تعرف هل الغرفة تدور حولها، أم هي التي تدور حول الغرفة إلى أن أوقف صوت الرقيب الدوران وهو يقول:
- يا بنت القحبة.
وأخذ الكابل الموضوع على الطاولة بسرعة البرق، وهوى به على كتفها وصدرها العاري بكل قوته وهو يطلق شتائمه مثل القذائف على جسمها وعِرضها، فعضت شفتها السفلى لتكتم صرختها، فخرجت الصرخة مكتومة، وحملقت بتحدٍ استغربت له هي نفسها فيما بعد، في عيون الرقيب خليل بشعور أنها لم تعد تخاف من بلل المطر بعد أن سقطت حتى عنقها في بركة ماء عكرة.

رفع الكابل ليهوي به عليها من جديد، لكنه أنزل يده، عندما أمره الضابط الجالس خلف الطاولة والذي اكتفى حتى تلك اللحظة بالمراقبة فقط:
- اتركها.
فمسح الرقيب البصاق من وجهه براحة يده، ورشقها بنظرة وعيد زلزلت نظرتها المحملقة.

بقيت واقفة مكانها، عارية الصدر، والقلب الفضي يلمع في رقبتها دون أن تستر عورتها بقميصها الممزق، الشيء الذي كانت ستفعله في أي ظرف آخر، فهي بطبيعتها خجول إلى أبعد حدود الخجل، ولم يحدث قط أن غيَّرت ملابسها أمام أي كان، حتى أختها حياة.
دخل شرطي من الباب الرئيسي، ووضع كتبها وحقيبتها التي صادروها منها قبل زجها في تلك الغرفة، وضع الكتب والحقيبة على الطاولة وخرج.
فتح الرقيب حقيبتها، وبعثر محتواها. تصفح كتبها، وأخرج وردة يابسة من بين الصفحات، وألقاها على الأرض، ووطأها بحذائه العسكري، وأمسك الصورة التي رسمها رياض وأهداها في آخر لقاء لهما، صورتها وصورته معاً، ومزقها نصفين، ورماها على الأرض أيضاً وهو يقول:
- القحبة عاملة حالها شريفة علينا.

هزَّ صوت الضابط الغرفة رغم خفوته، عندما أمر بإرجاع رياض، وقال لها بعد أن أُرجع رياض إلى زنزانته:
- إنني لن أرحمك إن تبين لي علاقتك بأي نشاط. لملمي أغراضك واذهبي إلى البيت.

أخذت قطعتي الصورة الممزقة من الأرض، ووضعتهما بين صفحات أحد كتبها، وخرجت، فانتبهت حينها فقط إلى قميصها المشقوق وصدرها العاري، فشدَّت طرفي القميص أحدهما فوق الآخر، وحضنت كتبها مغطية بها قميصها المشقوق، وخرجت من المبنى.

كانت النجوم تضيء السماء، لكن النجم الذي كان يضيء دربها ابتلعته عتمة الليل. سارت في الشارع العريض الملألئ بالأضواء الصفراء والحمراء والخضراء، تبحث عن أول سيارة أجرة تقلها إلى البيت.

ركض أحمد وحياة باتجاه الباب، عندما سمعا صوت مفتاحها في القفل، وسألاها بفزع شديد:
- أين كنتِ إلى هذا الوقت يا ثريا؟
توجهت إلى غرفتها دون أن تجيب. وقفت أمام المرآة، خلعت قميصها ومررت يدها على الشريط الأحمر المتورم الذي رسمه كابل الرقيب على كتفها وصدرها، ثم لبست قميص بيجامتها، وكومت القميص المشقوق، ورمته في سلة المهملات. خرجت إلى غرفة الجلوس، وأخبرت أخاها وأختها من دون تفاصيل، فنصحها أحمد بإخبار عمها:
- إذا سمع منك فذلك أفضل بكثير من أن يسمع من الآخرين، بالإضافة إلى أن أثر اللكمات واضح على وجهك، ولن يزول خلال يومين.
عملت بنصيحة أحمد وأخبرت عمها، عندما جاء يوم الخميس بعد عمله دون أن تشير إلى شق القميص والصدر العاري. فغضب منها عمها وقال لها:
- لقد خيّبت ظني فيك يا ثريا! ولم تكوني محل الثقة التي وضعتها فيك! فكيف تذهبين إلى بيت شاب عازب؟! ألم تفكري بكلام الناس وبسمعتنا؟... يجب أن تعديني بأنك لن ترتكبي مثل هذه الحماقة وبأنك لن تعرضي نفسك للاعتقالات والإهانات مرة أخرى، وإلا سأضطر إلى أن آخذ اجراءات لن ترضيك.
فوعدت:
- هذه هي أول مرة وآخر مرة يا عمي، وإن كنت أعرف أن الأمور ستجري على هذا النحو، لما ذهبت إلى بيت رياض.

بقيت طوال تلك الليلة تحدق في صورتهما التي رسمها هو، وأطرتها هي بإطار فضي، ووضعتها على الخزانة الصغيرة بجانب سريرها، كانت تفكر فيما ستقوله أثناء زيارتها الأولى له في سجن المدينة المركزي بعد ستة شهور من اعتقاله: هل ستمسك يده وتطلب منه أن يكون قوياً؟ أم ستخبره أنها تستفقده وتشعر بمرارة حبة زيتون قطفت للتو؟ على أي هيئة ستراه؟ هل ما زال شعره أسود سواد الليل أم شاب خلال الفترة الماضية؟ ماذا ستأخذ معها، لو أنها تعرف ماذا يحتاج؟ تمنت أن يسرع الزمن من خطواته، ويمر من عندها، ويطرق بابها معلناً قدوم النهار الذي سترى فيه وجه حبيبها، وتسمع صوته.
حين بدأ ضوء الفجر يتسلل عبر النافذة ويوضِّح معالم غرفتها، غفت على تلك الأفكار لحظة قصيرة، واستيقظت عليها أيضاً، فقفزت من سريرها، وكأنها سمعت في غفوتها مَن يخبرها أن عليها أن تأخذ له طعاماً ولباساً، وأنبت نفسها على أنه لم يخطر ببالها أن تحضر له أكلة يحبها.

غادرت البيت قبل موعد الزيارة. اشترت من دكان الألبسة الرجالية قميصاً وكنزة صوفية وبنطالاً، وأرادت أن تشتري حذاءً، لكنها فكرت: ماذا سيفعل بالحذاء داخل السجن؟ فاشترت بابوجاً شتوياً، واشترت من دكان الأطعمة الجاهزة وجبة طعام، ومن دكان آخر كروز سجائر مالبورو التي كان يدخنها.

رأت حشداً كبيراً ينتظر أمام المبنى المعزول عن المدينة، حتى لقد خُيل إليها أن سكان البلد كلهم إما أن يكونوا معتقلين أو زائرين ينتظرون فتح البوابة الحديدية. سارت خلفهم متأكدة من أنهم سيوصلونها إلى المكان الذي تقصده، وسجلت اسمها واسم رياض عند شرطي يجلس خلف طاولة خشبية قديمة، كما فعل من يتقدمها.
وقفت أمام شبكة حديدية، وراءها شبكة أخرى شبيهة، يفصلهما ممر طويل ضيق على طولهما، تبحث عن رياض بين القادمين من زنازينهم.

وقف قبالتها على الطرف الآخر من الشبكتين. بقي أحدهما يحدق إلى الآخر دون أن ينطق ببنت شفة، وكأن لسانيهما تخليا عن مهمة النطق إلى أن تذكرت أن مدة الزيارة عشر دقائق فقط، وتكاد تنتهي دون أن تقول له شيئاً، فقالت:
- لا تضعف.
فتوقف عنصر الأمن الذي كان يمشي جيئة وذهاباً في الممر الفاصل بين الشبكتين، ورمقها بنظرة شزراء ثم أكمل مشيه.
تجاهلت نظرته، وسألت رياض:
- هل لديك ما يكفيك من الثياب؟
- إنني ما أزال ألبس الثياب التي اعتقلت بها، غسلتها مرتين فقط بعد أن لبست بيجامة أحد رفاقي، ولكن قولي لي لماذا لم يأتِ أهلي معك، ألم يسمعوا بخبر اعتقالي؟
فأجابت:
- لا أعرف.
كذبت عليه لأول مرة، فقد كان عمها طاهر قد أخبرها أن أبا رياض يرفض زيارة ابنه، ويمنع زوجته وابنته من زيارته أيضاً، ويقول: «إنني عملت بكد وجد طوال حياتي من أجل أن لا أحرم أولادي من أي شيء، وكنت أمشي بجانب الحائط وأقول يا ربي السترة، وأدعوه أن يبقيني بعيداً عن أبواب الحكومة والمستشفيات، لكن ابني لم يقدِّر ذلك وأراد أن يصبح عنتر زمانه بانضمامه إلى القلة القليلة التي لا ترضى بالقسمة والنصيب، وها هو يريد أن يجبرني على دخول الأبواب التي طالما ابتعدت عنها، وسيجبرني على دخول الأبواب الأخرى أيضاً، إن بقيت أمه على هذه الحال.»
أراد عمها أن يمنعها هي أيضاً من زيارته، لكنه لم يقدر على كسر قلبها، كما أنه آثر أن تزوره بعلمه على أن تزوره من وراء ظهره.

سألته في نهاية الزيارة:
- ماذا تحتاج لأجلبه لك في الزيارة القادمة؟
فأجاب:
- لا أحتاج إلى أي شيء.
فقالت مشاكسة:
- هل ما زلت متخلفاً وترفض مساعدة امرأة؟
قالت ذلك لأنها أرادت أن تذكره بنقاش لهما قال فيه مازحاً أنه لا يرضى أن تدفع عنه الحساب، لأنه رجل متخلف ويحافظ على التقاليد.

شعرت بأنها في حلم جميل في تلك الفترة القصيرة، فقد حدثت فيها تغيرات لم تتوقعها، وجرت الرياح أخيراً بما تشتهي سفينتها. فقد دعتهم زوجة عمهم إلى بيتها للاحتفال برأس السنة، واستقبلتهم بحفاوة غير مسبوقة وكأنها تريد أن تحملهم على أكف الراحة، فسألت أحمد عن دراسته وقالت له:
- يالله شد الهمة يا بطل وادخل كلية الطب أو الهندسة حتى يكون لي الفخر بأن أزوجك ابنتي نسرين!
وحين أطرق أحمد إلى الأرض خجلاً، أكملت:
- لا داعي للخجل يا بني! فأنا أعرف أنك تحبها منذ أن كنت طفلاً صغيراً، وهي تحبك أيضاً، فمثل هذه الأشياء تظهر ظهوراً واضحاً.
ثم ضمت حياة إلى صدرها وقبلتها بحرارة، ومررت يدها على وجهها وهي تقول:
- ما شاء الله، ما شاء الله، أنت تزدادين حلاوة وجمالاً كل يوم! الله يحفظك ويحرصك من كل سوء.

والتفتت إليها وقالت:
- وأنت يا حبيبتي ثريا، كيف أخبارك وأخبارك دراستك؟ أريدك أن تنهي دراستك في السنة القادمة لأفرح بمشاهدة اسمك على قائمة المحامين. يا إلهي، كم سأفرح حين أرى أحداً من عائلتنا يصبح محامياً!
وبعد أن ذهبت بناتها مع أحمد وحياة إلى الغرفة الأخرى، اعتذرت عن الأخطاء التي ارتكبتها بحقهم في الماضي، وأقسمت أنها تحبهم حباً عظيماً، وتحبها هي على وجه الخصوص لأنها كانت السبب في بقاء بيتها مفتوحاً، فقد قالت:
- عندما خرج عمك من البيت غاضباً قبل بضعة أشهر، عرفت أنه سيقدم على ما كنت أخشاه منذ زمن طويل، فأدركت حينها قيمة ما لدي وراجعت نفسي، وعرفت أنني مخطئة في أشياء كثيرة، وعاهدت نفسي على أن أصبح إنسانة مختلفة عن التي كنتها وأتخلى عن غيرتي إلى الأبد، إن عادت الأمور إلى نصابها، ومنذ اللحظة التي عاد فيها عمك، وأخبرني أنك أنت التي جعلته ينظر إلى الأمور نظرة أخرى، تأكدت من أن الدم لا يصبح ماءً، وأن عليَّ أن أعترف بأخطائي تجاهكم وأصححها.

وفي اليوم التالي جاء أهل رياض لزيارتهم. فعانقتها أم رياض بحرارة، حتى لقد شعرت بأن المرأة المسنة تعانق ابنها عن طريقها، لكنها حافظت على هدوئها متظاهرة بأنها لم تفهم معنى عناقها. كان وجه أبو رياض سعيداً سعادة إنسان انزاحت عن قلبه صخرة ثقيلة، وأزاحت معها ألماً دفعه إلى الهروب من نفسه وبيته وبكاء زوجته شهوراً طويلة.
قال أبو رياض بعد أن ارتشف رشفة من فنجان قهوته:
- نحن سمعنا أن ثريا تذهب لزيارة رياض كل أسبوع. إنني لا أخفي عليك يا أبا نسرين أنني شعرت بالخجل من نفسي عندما سمعت ذلك، وشعرت كم أنا ظلمت ابني وقصرت في حقه، فأنا أعماني غضبي وحزني إلى حد أنني أصبحت أنانياً وفكرت بنفسي وبكلام الناس، وتخليت عنه في محنته ومنعت أمه وأخته من زيارته أيضاً.
فأجاب العم طاهر:
- هذا أمر طبيعي يا أبا رياض، إن صدمة اعتقاله كانت صدمة كبيرة ويبدو أنك كنتَ في حاجة إلى الوقت لكي تستوعبها وتقبل بالأمر الواقع.
- أتتذكر أنك قلت لي أكثر من مرة أنني سأغير موقفي منه، ولكنني أنا نفسي لم أكن أصدق في ذلك الوقت أنني سأستطيع أن أسامحه وأرضى عنه من جديد. لقد أخطأت في حق ابني الوحيد خطأً كبيراً يا أبا نسرين، وأعترف الآن بخطأي، وأعاهد الله أمامك أنني سأعمل كل ما بوسعي لكي أكفِّر عن ذنبي.
سكت أبو رياض بضع لحظات ثم قال:
- إننا جئنا إليك اليوم بطلب يا أبا نسرين ونرجو أن لا تخيب أملنا.
- إن شاء الله سأكون عند حسن ظنكم يا أبا رياض.
- يشرفني أن أطلب يد ابنة أخيك ثريا لابني رياض، لقد فاتحني هو نفسه في الموضوع قبل اعتقاله، وكنت أنوي أن آتي معه لطلب يدها ولكن القدر أراد غير ذلك.
- لنا الشرف في مصاهرتكم يا أبا رياض، لكنني يجب أن أسأل ثريا أولاً مع أنني أعلم جوابها ولكن الشرع يأمرنا بذلك.
قال العم طاهر ذلك ثم توجه إليها بالسؤال.
- ما رأيك يا ثريا؟
فأطرقت إلى الأرض دون أن تقول أية كلمة. فقال العم طاهر:
- السكوت علامة الرضا، على بركة الله، دعونا نقرأ الفاتحة.
وعندما قرأ الجميع الفاتحة، قال العم طاهر:

- أرى أن أمر الخطبة سابق لأوانه، وأفضِّل أن نعلن الخطبة عندما يخرج رياض من السجن.
فقال أبو رياض:
- هذا هو الوقت المناسب يا أبا نسرين. يجب أن نعلن خطبتهما، لكي تسلم البنت من ألسنة الناس.
فأجاب العم طاهر:
- على بركة الله إذن.
واتفقوا على أن يزوروا رياض في الزيارة التالية، وحين وصلوا في موعد الزيارة التالية إلى بوابة السجن، راحت مريم توزع الحلوى على الزائرين المنتظرين فتح البوابة، وتخبرهم بخطبة أخيها ليشاركوه الفرحة التي ظهرت وسط الحزن، مثل البصيص وسط الظلام.
بكى رياض فرحاً لرؤية عائلته وتحقيق أمنيته. كانت تلك هي المرة الأولى التي تفصلهم فيها شبكة واحدة بدلاً من شبكتين، فمدَّ رياض إصبعه عبر ثقب الشبكة، فسحبت هي خاتم الخطبة على إصبعه حتى عقدتها، وأوصله هو إلى مكانه بعد أن مرَّره من الثقب بصعوبة بالغة، فتحول قلبه إلى صقر كسر تلك القضبان، ورقص فرحاً وسط زغاريد أمه وأخته وأم جوان، ورقص ألماً لعودته الوشيكة إلى قفصه.

أضاءت الفرحة وجهيهما وقلبيهما، رغم أنهما لم يفكرا لحظة واحدة في أن يحتفلا بخطبتهما في ظروف تمنع القضبان جلوس أحدهما بجانب الآخر، وتصبح نقطة جمارك تفرض ضريبة العبور على خاتمه بتآكل حوافه.

كانت أم جوان تسكن في مدينة تبعد مئات الكيلومترات عن السجن، فكانت تخرج من بيتها مع ابنها جوان ذي العشر سنوات في عشية يوم الزيارة، ويأخذان قطار الليل، ويصلان إلى مبنى السجن في السابعة صباحاً، ويجلسان أمام البوابة في انتظار ساعة الزيارة ليلتقيا بأبي جوان. كانت حبلى بولدها البكر والوحيد، عندما اُعتقل زوجها أبو جوان قبل عشرة أعوام، ووضعت جنينها بعد ثلاثة أسابيع من اعتقاله. في البداية كانت تأتي مرة في الأسبوع لزيارة زوجها، لكنها اختصرت زياراتها فيما بعد إلى مرة واحدة في الشهر لعدم قدرتها على تكاليف السفر وحاجيات زوجها التي يصل إليه القليل منها بعد أن تمر من تحت أيدي السجانين، فيأخذون حصتهم منها.

أعطاها رياض في إحدى الزيارات ورقة ملفوفة على شكل سيجارة، عبر ثقب الشبكة، وطلب منها أن تخبئها بسرعة. كان قد سُمح لهم بمقابلة أهاليهم عبر شبكة واحدة أحياناً، والجلوس معهم في القاعات أحياناً أخرى بعد أن قاموا بالإضراب عن الطعام للمطالبة بتحسين ظروفهم المعيشية.
قرأت في البيت أنه سيترجم رواية عن الإنكليزية ويهرِّب ما يترجمه عبرها، لذلك فهو في حاجة إلى أن تهرّب بعض الأقلام إلى الداخل، فالأقلام ما زالت ممنوعة، والقلم الذي كتب به رسالته القصيرة هو القلم الوحيد المهرَّب إلى الداخل.
اشترت بابوجاً بنعل سميك. فصلت النعل عنه بحذر، وحفرته، ووضعت ثلاثة أقلام فيه، وأعادت لصق القسمين من جديد. وكررت نفس العمل في الفردة الثانية. وضعت فردتي البابوج في كيس الأغراض الذي سلَّمته في الزيارة التالية إلى مفرزة الأمن لتفتشه، وتسلِّمه بدورها إلى رياض. وعندما ابتعد العنصر المراقب عنهما في الممر الفاصل، اكتفت بقول: «في البابوج» ليفهم ما تعنيه.

بدأت منذ ذلك الوقت بتهريب ما يترجمه رياض على ورق علب الدخان أو الأكياس الورقية أو على أية ورقة يستطيع الحصول عليها. كانت تعيد كتابة ما يترجمه خلال الأسبوع على دفتر خاص، وتخيّط النسخ الأصلية بالخيط والإبرة إلى غلاف دفتر قديم، وتحتفظ بها كمخطوط أصلي. بقيت تضيف إلى الدفتر ورقة أو ورقتين كل أسبوع إلى أن ألصقت آخر صفحة من الكتاب المترجم. غلّفت المخطوط الفسيفسائي بأوراقه المختلفة الألوان والأحجام، وفتحت

مخطوطاً جديداً للكتاب الثاني الذي كان قد بدأ بترجمته، وخاطت أول صفحة على طرف غلافه، ثم استلقت على ظهرها منهكة القوى، وكأنها هي التي قامت بترجمة الكتاب في مدة قصيرة وأنهتها للتو، وأخذت تفكر في اختيار اسم مستعار لرياض.

دق أحمد باب غرفتها دقات خفيفة، وكأنه شمّ رائحة احتياجها إليه. شق الباب في أول الأمر وأطل برأسه وهو يسأل بصوت هامس:

- ألم تنامي بعد؟

- لا، جهزت المخطوط وأفكر الآن باسم مستعار لرياض.

فدخل وجلس على حافة السرير وهو يقول:

- أظن أن اسم حبيب نور الدين هو اسم مناسب جداً، فهو حبيبك وتستطعين إضافة كنيتك بدلاً من كاف الحبيب.

- لكن كنيتي معروفة عندهم، وإن شكوا بالأمر فسيعرفون الحقيقة بسهولة.

- فليكن اسمه حبيب عدنان إذن، وأنا سأتكفل بعملية النشر.

- اتفقنا.

أمضيا الاتفاق على الاسم وعملية النشر التي أخذها على عاتقه بمشابكة خنصريهما. ثم قال:

- أريد التحدث معك في موضوع آخر.

فتقلبت حياة التي كانت تدرس في معهد الفنون الجميلة في سريرها، ورفعت رأسها وهي تقول:

- لا يحلو لك الكلام إلا بعد منتصف الليل! ألا تعرف أنني سأذهب إلى المعهد في الصباح الباكر لأصبح أكبر فنانة في العالم، أيها العبقري المزعج؟

فأجابها أحمد الذي كان يدرس في كلية طب الأسنان:

- لا تنفشي ريشك مثل الطاووس، فأنت سقفك أن تصبحي معلمة مدرسة.

- وأنت لا تفرح كثيراً، فأنا سأتخرج في السنة المقبلة وأصبح أكبر فنانة، بينما أنت ستتخرج بعد ثلاث سنوات، أي بعد أكثر من ألف يوم.

فرمى اللحاف على وجهها، وضغط به على فمها وهو يقول:

- ارجعي إلى نومك وبيعينا سكوتك.

كنها أبعدت اللحاف عن نفسها وهي تقول:

- لا، لن أنام لأنني أريد أن أسمع الجواهر التي ستخرج من فمك بعد أن عكّرت عليّ نومي يا مزعج.

وجلست الجلسة المربعة على السرير الكبير وهي تلامس ركبتيها بركبة كل منهما. لم تكونا قد أعادتا السريرين إلى مكانهما بعد أن حولتاهما إلى سرير مزدوج في تلك الليلة البعيدة التي رأت فيها حياة كابوساً مخيفاً. خبطت حياة يدها على ساق أحمد، وقالت مقلدة افتتاح جلسة المحكمة:

- فُتحت الجلسة.

فقال أحمد:

- إنني اتفقت مع نسرين على أن أخطبها، ولكنني أخاف من معارضة العم طاهر وزوجته.

فقلدت حياة زوجة عمها تذكره بما قالت:

- شد الهمة يا بطل وصير دكتور أو مهندس لأزوجك ابنتي نسرين.

- أنا لا أخطط للزواج في الوقت القريب، فأنا لا أعدُّ عملي في شركة الألبسة عملاً لائقاً، وإنما سأنتظر إلى وقت حصولي على شهادتي.

فقالت حياة التي اعتادت أن تقلد زوجة عمها لتضحكهما:

- لتفتخر بنت الآغوات بعريس ابنتها وتقول: صهري دكتور.
فنهرها أحمد بطريقته الخاصة وهو ينتزع لعبتها أحلام من حضنها:
- لا تتكلمي في أمور الكبار، فأنت ما زلت صغيرة.
- سأتخرج قريباً، وأصبح أكبر فنانة وما زلت صغيرة.. يا مزعج؟!
- متى فُطمت من حضن لعبتك هذه، سأسمح لك بأن تتكلمي في أمور الكبار.. يا صغيرتي.
فضربت رأسه بلعبتها وهي تقول:
- إنك لا تفهم القيمة المعنوية لأشياء تصنع بأيدٍ عزيزة أو تعطى بحب عميق، ولتعلم أنني سأبقى أحضن أحلام إلى آخر يوم في حياتي.
- إذا تزوجتِ، سيرميك زوجك أنت وأحلامك من النافذة ويقول لك اذهبي والعبي بها إلى أن تشبعي، ومتى فرغت من اللعب، اتركيها هناك وارجعي إليَّ.

كانا لا يستطيعان الكلام من دون مشاكسة.

كان العم طاهر قد ترك عادة قضاء ليلة في الأسبوع عندهم ليقينه بأن أحمد أصبح رجلاً، ويستطيع إدارة البيت من دونه. وكان أحمد يتفق مع رأي عمه في أنهم ليسوا صغاراً:
- ما عدا هذه الصغيرة التي تحضن لعبتها.
قال ذلك وهو يدفع حياة من كتفها إلى أن وصل رأسها إلى أرض السرير، ثم أكمل: أرى أنه ليس من المناسب أن نقيم في بيت العم طاهر وقت ذهابنا إلى القرية أثناء العطل والأعياد، لذلك أقترح أن نطلب من المستأجرين إخلاء بيتنا، وأن نؤثثه بالاحتياجات الضرورية من مدخراتنا، ونكمل تأثيثه من إيراد موسم السنة القادمة لنقيم فيه إن ذهبنا إلى القرية.
- بدون مزاح، هذه المرة أنت عبقري بالفعل، واقتراحك هذا أجمل من كل اقتراحاتك السابقة!
قالت حياة ذلك، لكنها ما لبثت أن عادت إلى طريقتها القديمة:
- الآن فهمت يا عبقرينا، أنت تريد أن تثبت لعروسك وأمها أنك أصبحت رجلاً وصاحب بيتين! أليس كذلك؟

سبقها قلبها لزيارة الحبيب الذي عرف طريق التوهج من جديد، رغم كل المحاولات لإطفائه وإطفاء كل من يحاول مواكبة قطار الزمن.
كان أهله قد تغيبوا في ذلك اليوم بسبب تحضيرهم لعرس مريم التي ستركب أخيراً فرساً توصلها إلى بيتها الزوجي، مع أنها كانت تتمنى أن يركبها أخوها تلك الفرس ليرجّلها فارسها عنها.
قالت له:
- اطمئن يا رياض، فأنت ستكون في العرس لأنني سأحضره وأنت معي تسكن في قلبي.
وغمرته بكلام عاطفي آخر، فقد كانت ما تزال ثملة منذ يوم الأمس، منذ أن دخل أحمد إلى المطبخ وهو يخبئ يديه وراء ظهره ويطلب منها أن تحزر ما جلبه لها، وبعد أن حزرت خطأً عدة مرات، أظهر كتاباً من وراء ظهره، ورفعه أمام عينيها وهو يقول: «ترجمة حبيب عدنان» فأسكرتها سعادتها بأروع كتاب تمسكه في حياتها، ولم ترغب منذ تلك اللحظة في أن تفيق من سكرتها.

فهم رياض أنها نشرت الكتاب الذي ترجمه. فصححت له:

- إن أحمد هو الذي قام بنشره، ويتمنى أن يعجبك الاسم الذي اختاره لك.
فالتمعت عيناه لمعاناً فيه مشاعر سعيدة وحزينة من خلف القضبان، وتحركت شفتاه بـ:
- أحبك.
ضاعت الكلمة في ضجيج المكان دون أن تصل إلى أذنيها، لكن عينيها قرأتا ما كتبته شفتاه. فأجابت شفتاها بـ:
- أحبك.
فتطايرت كلمتها باتجاهه، وبقيت عالقة في الممر الفاصل بين الشبكتين، لكنه استطاع أن يقرأها.

خرجت من موعدها الغرامي منتشية برؤيته وكلامه وظهور أول كتاب ترجمته يده. واتجهت إلى الطريق العام لتوقف سيارة أجرة، بعد أن كانت تمشي خلال الأشهر الماضية مسافة طويلة للوصول إلى موقف الباص. سمعت صوتاً يناديها، بدا وكأنه مألوف لأذنيها. وصلها صدىً من ماضٍ بعيد:
- يا آنسة... يا آنسة ثريا نور الدين.
فالتفتت لترى صاحب الصوت. لقد ومض برق ذاكرتها، فرأت فيه في لحظة واحدة وقوفها أمام باب رياض، وخروج المرأة من الباب المقابل بكيس القمامة وهمسها «إنه اُعتقل، غادري بسرعة»، ودفعها في الجيب الحكومي، وزجها في الغرفة الصغيرة، وشق قميصها وتناثر أزراره، والبصاق الذي سال على وجه الرقيب خليل، والصفعات التي أعقبته، والكابل الذي نزل على كتفها وصدرها العاري.
- يالها من صدفة جميلة! هل تذكرينني؟
فأجابت بنبرة رسمية دون أن تتوقف عن السير:
- نعم.
- هل كنت تزورين خطيبك التقريبي؟
- إنه الآن خطيبي بشكل رسمي.
- يا آنسة ثريا، أريد أن أقول لك أنه من الحرام أن تروح فتاة بجمالك وتجيء على طرقات السجون، فمثلك يجب أن تُعامل معاملة الأميرات، وتسكن القصور، وتلبس الحرير، وتأمر الخدم والحشم. إنك تهدرين شبابك وجمالك من أجل إنسان لا يحبك، لأنه لو كان يحبك، لوافق على التعامل معنا، وخرج من أجل خاطر عينيك.

أوسعت خطاها متمنية أن ترى سيارة أجرة فارغة. فأردف يقول:
- أقنعي خطيبك بالتعامل معنا، ونحن سنفرج عنه ليعود إليك.
- هذه مسألة لا تخصني.
- طيب، أنت تعرفين أنني أعمل في فرع الأمن السياسي، لكنني أتمتع بنفوذ كبير في السجن المركزي، وإشارة واحدة مني تكفي لتحول حياة خطيبك إلى جنة أو جحيم.
وأمسك ذراعها، وأوقفها عن السير:
- هذا يتوقف على رضائك عني.
تملكها الخوف، لكنها تظاهرت باللامبالاة وهي تنتزع ذراعها من بين يده وتستأنف سيرها، وتجيبه:
- أنا راضية.
- يجب أن تبرهني على رضائك عني بزيارتي في بيتي، وأنا سأبرهن على ما أقوله بترتيب زيارة خاصة لخطيبك، ليس من وراء القضبان، وإنما في غرفة لوحدكما لتجلسا على راحتكما بعيداً عن عيون الناس، وتتكلما من دون أن يتنصت عليكما أحد... سأكافئ كل زيارة لي بزيارة خاصة له.

تمنت أن تلكمه لكمة تعميه وتخرسه إلى الأبد. أسرعت خطاها وهي تلعن الساعة التي رمته في طريقها.

وقف أمامها، وأوقفها عن المشي:
- طيب، كل زيارة لي سأكافئك بزيارتين خاصتين له.
كانت تلك قطرة أطفحت بصاقها، فبصقته في وجهه بكل قوتها، وفتحت باب سيارة الأجرة التي وقفت بالقرب منهما في تلك اللحظة، وأمرت السائق أن يقود بسرعة لتهرب منه ومن كلماته:
- لن أغفر لك يا بنت الكلب، سأدعك أنت وخطيبك تندمان على اليوم الذي جئتما فيه إلى هذه الدنيا.

اجتازت سيارة الأجرة شوارع المدينة النائمة تحت الأنقاض منذ زمن موغل في القدم دون أن تشعر بقطار الزمن الذي وصل إلى محطتها في يوم من الأيام، ولم يجد أحداً في انتظاره، فأكمل طريقه مقتفياً آثار سككه الحديدية إلى محطة مدينة صاحية. من أين ستأتي بفارسٍ يطبع قبلة الحياة على شفاه المدينة النائمة لتفتح عيونها، وتقوم من رقدتها، وتنفض بقايا الكوابيس عن نفسها؟
دخلت مدخل البناية، وصعدت السلّم. وقبل أن تصل إلى باب بيتها في الطابق الرابع ضرب برق ألم ركبتها فأقعدها على السلم. مسدت ركبتها غير قادرة على الوقوف وصعود درجات السلّم الباقية، فهاجت دموعها أمواجاً زلزلت شطآن روحها، وانكسرت على يابسة ذراعيها المسندتين على ركبتيها وهي تسأل نفسها إلى متى ستتعثر في وحل هذه الظروف؟ وإلى متى ستسعفها طاقتها على مقاومة الانجراف معه؟ وأين لها أن تعثر على عصا موسى لتفجّر من الصخر ينبوع ماءٍ يجرف الوحل، ويتركها نقية؟

كان في أسفل صورة رياض المؤطرة يتدلى فستان الزفاف الأبيض ذو الخاصرة الضيقة والتنورة العريضة من أحد الحبال الممدودة في أرض الدار، تحته الحذاء الأبيض ذو الكعب العالي، وعلى يمينه الطرحة البيضاء، وعلى يساره بدلة الصباحية والألبسة الجديدة كلها التي اشترتها مريم في الأسابيع الماضية، وألبستها القديمة التي ما زالت صالحة للاستعمال.
كانت عيون الجالسات على الأرائك تراقب أم العروس وهي تفتح حقائب كبيرة مصفوف بعضها فوق بعض، وتخرج منها جهاز ابنتها العروس قطعة قطعة، وتعرضها أمام تلك العيون، ثم تلقيها على الكومة وسطهن: مفارش الأسرّة والطاولات، وأوجه الوسائد، وكل ما طرّزته ابنتها لتزيين أثاث البيت على مدى سنوات طويلة.
انتهت من إلقاء آخر قطعة من آخر حقيبة، وبدأت بإخراج عينات من طقوم الطناجر والأطباق والأكوب والفناجين وعرضتها أمام العيون أيضاً، ثم أشارت بيدها إلى أثاث غرفة الجلوس وغرفة الطعام في الزاوية المقابلة لأرض الدار الذي سيرافق العروس إلى بيتها الزوجي، وجلست أخيراً على كرسي صغير بجانب كومة الجهاز تراقب بدورها النسوة وهن يمسكن بالقطع المطرزة ليتأكدن من مهارة الأيدي التي طرزتها أو يتفحصن فنجاناً أو طبقاً ليتأكدن من جودته.
عرضت نساء الجيل الأول من العائلة هداياهن للعروس: فرن غاز، غسالة أوتوماتيك، ثلاجة، جلاية. ثم قلدتهن نساء الجيل الثاني: مراوح أرضية وسقفية، ثريات، طقوم فنجانين وأطباق، وحتى أسطوانات غاز. وجاء أخيراً دور نساء القرية فعرضن هداياهن من المفارش، ومستلزمات البيت، وأدوات المطبخ قبل أن يضفنها إلى كومة الجهاز.
رتبت أم العروس بمساعدة الأخريات الجهاز في الحقائب والصناديق وصففنها في الغرفة المجاورة. ثم أشعلت إحداهن آلة التسجيل، وقامت بتحريك محرمتين صغيرتين وهي تروح وتجيء أمام الجالسات اللاتي بدأن بالتصفيق، وسحبت حياة من يدها تدعوها لمشاركتها في الرقص. لقد بدأت حياة بشيء من الخجل، ثم اندمجت مع الموسيقا، وأطاعت بحركاتها الإيقاع المحلق في أجواء البيت والمخترق جدرانه والواصل إلى أسماع الجيران، وتوقفت عندما انتهت الأغنية التي كانت ترقص عليها، وجلست قرب زوجة عمها.

قالت إحدى النسوة لصباح التي كانت جالسة على الأرض ساندة ظهرها إلى الحائط، وماسكة خدها بيدها، قالت لها بأسلوب خاص اعتادت النسوة استعماله في الحديث معها:

- ما لي أراك متجهمة الوجه يا صباح، وكأنك قادمة إلى مأتم أو كأنك تناولت نصف رغيف بينما الأخريات رغيفاً كاملاً؟ هيا قومي وارقصي لنا قليلاً.

فقامت صباح، ووقفت وسطهن. باعدت رجليها إحداهما عن الآخرى، وفتحت ذراعيها، وكوّرت بطنها، وهزّت جسمها هزات متتالية، فتحولت الحفلة إلى حفلة تهريج يضحك فيها الجمهور على المهرج، والمهرج على الجمهور. لقد ازددن ضحكاً وتعليقاً وتصفيقاً دون نية منهن بالتوقف.

قامت من مكانها مخبئة امتعاضها، وأمسكت يدي صباح بكلتي يديها، وبدأت ترقص معها بخطوات هادئة هدّأت قهقهات النسوة، ورسمت الاستغراب في عيونهن وهن يراقبن أيديهما المتشابكة وأرجلهما المتحركة باتزان على صوت الموسيقا.

أخبرتها زوجة عمها سميرة فيما بعد أنها كانت تسمع همسات النسوة، وتتظاهر بعدم سماعها لفضولها بمعرفة ما يقال. لقد كان بعضهن يحسدن أهل رياض أن تكون هي من نصيب ابنهم، وبعضهن يستغربن من انتظارها الطويل له، خاصة وأنها ابنة امرأة تزوجت قبل أن تبرد جثة زوجها الميت، وبعضهن يتوقعن أن أحداً لا يأتي لخطبتها، ولا يوجد أمامها اختيار سوى انتظار خطيبها السجين، وأنها سترمي خاتم الخطبة في وجهه عند أول شخص يأتي لخطبتها وتقتفي أثر أمها.

تدخّلت سميرة عند تلك الملاحظة، فقد قالت:

- يجب أن تعلمي أن ألف رجل يتمنى التراب الذي تمشي عليه، فهي لا ينقصها شيء من جمال وعائلة وشهادة جامعية حصلت عليها قبل بضعة أشهر، ويجب أن تعلمي أيضاً أن الناس ما يزالون يطلبون يدها كما يطلبون يد فتاة غير مرتبطة، وكان آخرهم هو صديق زوجي الذي خطبها لابنه قبل أسبوعين، لكنها رفضت رفضاً قاطعاً لأنها لا ترى في هذه الدنيا كلها رجلاً غير رياض، ونحن لا نريد أن نضغط عليها ولا أن نجبرها على الزواج من شخص لا تحبه.

غيَّرت النسوة الموضوع كعادتهن، عندما لا يسمعن ما تشتهيه آذانهن وأنفسهن. فقد انتقلت إحداهن إلى الحديث عن أختها حياة:

- إنها رائعة الرقص والجمال، وتشبه ثريا في طولها وتقاطيع وجهها، لكن بياض وجه حياة، وغمازتي خديها تجعلانها أكثر جمالاً منها، لكن كلتي الملعونتين جميلتان مثل أمهما.

فأسكتتها سميرة بنبرة نزقة:

- عينك على حجر، لماذا تقولين الملعونتين؟ ألا تستطيعين أن تقولي ما شاء الله؟!

فأجابتها المرأة بنفس اسلوبها:

- ما شاء الله، ما شاء الله! وسكتت.

قامت سميرة، وهمست بضع كلمات في أذن أم رياض، وعادت إلى مكانها. فاختفت أم رياض في إحدى الغرف، ثم خرجت بعد بضع لحظات، واتجهت إلى المطبخ، ووقفت في الباب واستدعتهن، وأغلقت الباب بعد أن اطمأنت على أن ثلاثتهن، هي وحياة ومريم، قد أصبحن خلفه. أشعلت موقد الغاز، وأحرقت مادة فضيه فوق اللهيب، ورشت ما أحرقته على رأس كل منهن على حدة وهي تتمتم بآيات قرآنية وتركّز على «من شر حاسد إذا حسد»

استغربت حياة من هذا الطقس الغريب، فندت عنها ابتسامة وهي تستفسر عنه، فأجابتها أم رياض:

- لا تضحكي. إن العين الحسود تُمرِّض، وتجنِّن، وتخرِّب البيوت أيضاً. لا تصدقي وجوههن الضاحكة وكلامهن المعسول، فقلوبهن سوداء ولا تحب الخير للآخرين، وإن لم أحمِك بقطعة الرصاص هذه، وبقراءة الآيات الكريمة، فلا

أحد يعرف ماذا سيحصل لك. سأخبرك بهذه القصة لكي تفهمي أكثر، كان هناك رجل معروف بأنه يصيب بالعين. وفي يوم من الأيام جلس مع أناس آخرين تحت شجرة سنديان تظلل بئراً، فاستفزوه بأن ما يُشاع عنه لا أساس له من الصحة، فحدق بتركيز في الحجر البازلتي الموضوع فوق فوهة البئر، ولم يحول نظرته عنه إلى أن انفلق الحجر إلى نصفين، وما يزال الحجر المفلوق فوق فوهة البئر على مشارف القرية المجاورة شاهداً على عينه الشريرة إلى هذا اليوم.

صمتت أم رياض برهة من الزمن ثم قالت:

- بعد قليل سنقوم بتحضير العشاء.

وخرجت إلى ضيفاتها بوجه بشوش.

قالت لمريم بعد أن خرجت أم رياض وأغلقت باب المطبخ وراءها:

- ها أنت ستتزوجين أخيراً يا مريم.

- نعم يا ثريا، فأنا اقتنعت أخيراً بأنني يجب أن أتخلى عن وهمي في الحب الذي يحدث في الأفلام والروايات فقط. لقد خطبني الكثيرون في بداية شبابي وأنا بقيت أرفض وأرفض لأنني كنت أنتظر أن يأتي الفارس الذي رسمته في خيالي، فدفعت ثمن انتظاري غالياً، فمنذ أن بلغت الخامسة والعشرين بدأ الناس ينظرون إليَّ على أنني عانس وبدؤوا يسألونني كلما شاهدوني: «ألم تتزوجي بعد؟ إلى متى ستبقين هكذا؟» لا لشيء إلا ليذكرونني بأنني عانس. يا إلهي، كم أكره هذا السؤال وكم أراه مزعجاً ومقيتاً! هل تعرفين لو أنني تزوجت في السن الطبيعي لكان أولادي الآن في سن الزواج؟ أنا لا أخفيك أنني أغار من بنات جيلي الذين تزوجوا وأنجبوا ويخططون الآن كيف يزوجون أبناءهم.

- لا تنسي يا مريم أن الكثيرين جاؤوا لطلب يدك، حتى بعد أن بلغت الخامسة والعشرين، وبقيت أنت ترفضين.

- لكنهم كلهم كانوا يريدون الزواج على زوجاتهم أو يريدون أن أربي لهم أولادهم الصغار اليتامى أو كانوا كباراً في السن، ولم يخطبني شاب عازب قط منذ أن بلغت الخامسة والعشرين!

- مصطفى كبير في السن وله أولاد أيضاً، لكنك قبلت به؟

- ألم أقل لك أنني تخليت عن رومانسيتي وواجهت الحقيقة فتوصلت إلى يقين بأنه لن يأتي شاب عازب لطلب يدي؟ إنني أريد أن أتخلص من صفة العنوسة التي تجلب لي الصداع كلما فكرت بها، وأريد أيضاً أن ألحق نفسي وأنجب ولداً قبل أن يفوت الأوان، فأنا أبلغ السابعة والثلاثين ولن يكون بمقدوري الإنجاب بعد بضع سنوات. صحيح أن مصطفى يبلغ السادسة والخمسين من العمر وله أربعة أولاد، لكن أولاده كبار في العمر ويعيشون حياتهم الخاصة في بيوت مستقلة، بالإضافة إلى أنه ثري وسيعيّشني في رخاء مثل الرخاء الذي اعتدته في بيت والدي.

- زواج الدهر يا مريم، وبالرفاء والبنين إن شاء الله.

- شكراً يا ثريا، وعقبى لكما أنت ورياض. آه كم أتمنى أن يكون معي في يومي هذا... أريد أن أطلب منك طلباً يا ثريا وأرجو أن لا ترفضيه.

- اطلبي يا مريم؟

- أرجوك يا ثريا أن تنوبي عنه في مهمة إخراجي من بيت والدي.

- ولكنني لا أعرف كيف أنوب عنه في مهمة كهذه المهمة؟

- إن الأمر بسيط وهو أن تمسكي ذراعي ووالدي يمسك ذراعي الأخرى وتخرجيني معه من البيت.

وفي اليوم التالي امتلأ البيت وما حوله بأهل العريس وأقربائه وأصدقائه، فدخل بعضهم غرفة العروس الجالسة في فستانها الأبيض لإلقاء نظرة عليها، ورقص بعضهم الدبكة على صوت الطبل والزمر أمام البيت، ونقل بعضهم الآخر جهاز العروس إلى السيارات المفتوحة من الخلف، وحان الوقت في آخر الأمر لأن تخرج العروس من بيت والدها.

فأمسكت يد العروس، وقادتها مع أبيها بخطوات وقور عبر أرض الدار إلى خارج البيت حيث ينتظرها العريس بجانب السيارة المزيَّنة.

عندما عادت مع أحمد إلى البيت، رأت رجلين غريبين يجلسان في غرفة الجلوس. كان أحدهما يلف ساقاً على ساق، والآخر يضع قدميه الاثنتين على الطاولة. لم يكن قد بقي كتاب واحد إلا وقد تطاير من خزانة الكتب، ووقع على وجهه أو جنبه.

فُتح باب غرفتها، وظهر الرقيب خليل على صوت أحد الجالسيْن وهو يسأل:
- ألم تكونوا تنوون العودة إلى البيت؟!
قادها الرقيب إلى غرفتها. كانت الثياب الداخلية والخارجية مبعثرة على السرير والأرض، ومحتويات الأدراج متناثرة في كل مكان، مثل غبار الصيف، وصورتها بجانب صورة رياض (التي رسمها قبل سنوات والتي شقها الرقيب من منتصفها في غرفة التحقيق، وأعادت هي لصقها فيما بعد دون أن تقدر على إزالة أثر الشرخ الذي أحدثته يد الرقيب، وأطرتها بإطار فضي، ووضعتها على الخزانة الصغيرة بجانب سريرها) ملقاة على الأرض وقد تحول زجاجها إلى ذرات ملح متناثر، وكأن الرقيب صب جام غضبه عليها وداسها مرات ومرات ليرسم آثار قدمه على الأثر الذي عملته يده قبل سنوات.
أدارت عينيها في الغرفة، وحمدت الله في سرّها على أنه لم يعثر على الحقيبة الصغيرة المخبأة تحت السرير والتي تحتوي على مخطوطي الكتابين اللذين ترجمهما رياض والمخطوط الغير المكتمل لروايته «العمر الضائع» وإلا لكان مصيرها ومصير أخيها مثل مصير خطيبها، وشكرت الله على بقاء حياة في القرية مع بنات عمها.
وقف الرقيب بجانب الصورة الملقاة على الأرض، وأشار بيده إليها، ورفسها بقدمه:
- عاملة حالك شريفة علي؟!
وأكمل بإطلاق وابل شتائمه دون أن يتوقف إلى أن أطلق آخر رصاصة في جعبته، وتأكد من أنه أصابها في العمق.
لم تنبس بكلمة واحدة، وبقيت تحدق في الأرض، فاشتعلت شرارات عينيه مزيداً من الاشتعال حتى لقد كادت تضرم النار في الغرفة والبيت، فأمسك بكتفيها ودفعها دفعة قوية، فارتطمت بالحائط، وخرج آمراً تابعيه باللحاق به مع أحمد.
وصل صوت تصفيق الباب إلى أذنيها كانفجار قنبلة رجَّ كيانها والبيت كله.

عندما وصلت، في صباح اليوم التالي، إلى مكتب المحامي عبد الرزاق الذي كانت تتدرب عنده، رأت الرقيب يخرج من غرفة أستاذها. صوّب إليها نظرة أصابتها في روحها، فغصت بلعابها، وكادت تختنق وتقع مغشياً عليها، لكنها استجمعت قواها وتماسكت عندما فكرت في أن هذا اليوم هو يومها الأخير الذي تدخل فيه هذا المكتب. كانت تلك هي المرة الأخيرة التي ترى فيها الرقيب خليل، فقد سمعت فيما بعد من بعض أهالي السجناء أن سيارته انقلبت به وبثلاثة من رفاقه أثناء عودتهم من حفلة عرس، فمات هو ورفاقه الثلاثة.
كان الأستاذ عبد الرزاق جالساً وراء مكتبه، سانداً جبينه بيديه. رفع رأسه عندما دخلت غرفة المكتب وقال:
- لقد قال لي الرقيب خليل يجب أن أفصلك من العمل وإلا سيحول حياتي إلى جحيم. لم أجبه بأي شيء ولن أقدم على أية خطوة قبل أن أسمع منك القصة يا ثريا.
لم تتردد لحظة واحدة في إخبار قصتها، وأضافت:
-أنا لا أقوم بأي نشاط سياسي، وإنما أنتظر خطيبي السجين، وأريد العيش بكرامتي، وإن كلفني ذلك رأسي، وليس لقمة عيشي فقط. إنني لن أحمّلك مسؤولية اختياري، لذلك سأقدّم على استقالتي، وأخرج من هذا المكتب دون عودة.

والتفتت لتذهب إلى مكتبها، وتكتب طلب استقالتها، إلا أن أستاذها المحامي استوقفها، وطلب منها البقاء في عملها وكأن شيئاً لم يكن، فقد قال:
- سيكون عملنا دون جدوى يا ثريا إن لم ندافع عن حقوقنا، ونحن المعنيون بالدفاع عن حقوق الآخرين.

وفي موعد الزيارة التالية ذهبت لزيارة رياض كما اعتادت أن تفعل طوال السنوات الماضية، إلا أن الزيارات كانت قد مُنعت عن رياض، فتوسلت إلى أم جوان لتسأل زوجها عنه وعن سبب منع زيارته.
دخل الزائرون، وأغلق السجن الذي سرق منها حبيبها وأخاها بوابته في وجهها، فأين لها أن تعثر على علي بابا ليهمس لها كلمة سرّ قادرة على فتح بوابات مستعصية لم يؤثر فيها ما ردّده قلبها «افتح يا سمسم»؟ تهاوت على طرف الرصيف، فانتبهت حينها لكيس الأغراض في يدها، فهي لم يخطر ببالها أن تعطيه لأم جوان لتأخذه إلى مَن في الداخل، فقد توقف عقلها عن عمله عندما سمعت: «لا توجد زيارات لرياض عثمان»

جلست وحيدة في ظل ذلك المبنى تحدق إلى السماء، وتحاول قراءة الأحداث الأخيرة على صفحتها لعلّها تتمكن من استيعابها، فتغلق السحب غلافاً سميكاً عليها.
تذكرت فجأة تهديد الرقيب «سأدعك أنت وخطيبك تندمان على اليوم الذي جئتما فيه إلى هذه الدنيا»، فهاجمتها فكرة جهنمية كادت تبددها.. قتلوه!!!
كيف ستعيش من دونه؟ هي التي تتحدث معه في خيالها عن أمور حياتها كلها متأكدة من أنه يسمعها، تتمنى له أحلاماً سعيدة قبل أن تغمض عينيها، وصباحاً هادئاً عندما تفتحهما، لا تنزل لها لقمة إن شعرت بجوعه، لا تسمع أغنية إلا إذا عرفت أنه سيحبها، لا تلبس ثوباً جديداً إلا لتزوره به. لقد مضت سبع سنوات وهو يسكن قلبها إلى أن أصبح جزءاً منه، ولم يمض يوم إلا وفكرت فيه، وعاشت معه وله. ومضت خمس سنوات على اعتقاله وهي تنتظر ساعة تراه فيها دون أن تتغيب مرة واحدة. لن ستقف في المطبخ في عشية يوم الزيارة؟ وكيف ستقضي يوم الزيارات؟ وأين ستزوره، إن لم يكن في هذا المكان؟ وكيف ستعيش دون المخاطرة بتهريب أغراض ممنوعة إلى الداخل، وتهريب أوراق ممنوعة إلى الخارج؟

حطت حمامة بالقرب منها، فسألتها:
«هل أتيت لي بخبر منه؟»
فاستدارت الحمامة، ونقرت فتاتاً من الأرض.
«إذن، أتيت خالية الوفاض! طيري إليه، وأخبريه أنني أحتاجه، وأحتاج وجوده في حياتي.»
التقطت الحمامة حبة أخرى، وطارت باتجاه السماء.
راقبت الحمامة بعينيها، ورأتها تصغر وتصغر كلما ابتعدت إلى أن تحولت إلى نقطة تلاشت في بياض السحب.
أمسكت بالقلب الفضي في عنقها، وضغطته بين أصابعها وهي تدعو ربها من كل قلبها أن لا يُسمعها خبر موته.

فُتحت بوابة السجن. فركضت إلى أم جوان بركبتين مرتجفتين، وأمسكت يدها وراحت تحدق إليها بعينين خائفتين دون أن تجرؤ على السؤال. فطمأنتها أم جوان قائلة:
- لا تخافي يا ثريا، إنه حي يرزق، لكنه لا يستطيع المشي بسبب كسر في ركبته. لقد ثبتوا ساقيه على طولهما، وتركوا مسافة خالية تحت ركبتيه، وقفز أحد منهم فوقهما، فانكسرت اليمنى.

عادت بكيس أغراضها إلى البيت، مكسورة الجناحين، تفكر في خطيبها المقعد وأخيها الغائب. حمدت الله، عندما رأت أحمد عائداً من التحقيق دون أن تبالي كثيراً بوجهه المتورم.

جفلت من نومها على صوت باب يُغلق في تلك الليلة. بقيت في سريرها تنصت بانتباه علّها تعرف مصدر الصوت، وعندما لم تسمع أي صوت آخر يزعج صمت الليل، تسللت من غرفتها وهي ترتجف حتى نقي عظامها من فكرة هجوم الرقيب على البيت. أشعلت ضوء غرفة الجلوس، فرأت باب غرفة أحمد مفتوحاً، فأسرعت إلى غرفته، لكنها لم تجده نائماً في سريره، فتذكرت الليلة التي جلبته فيها صباح من ملعب القرية، فهرولت إلى الغرف الأخرى والمطبخ والحمام ثم إلى الباب الخارجي. نزلت السلّم حافية القدمين، ووقفت أمام باب البناية ونظرت إلى يمينها ثم إلى شمالها، فشاهدت أحمد يبتعد عن البيت، فركضت خلفه وأدركته عند رأس الشارع، وسألته:

- إلى أين أنت ذاهب يا أحمد؟

لكنه لم يجب، فأمسكت يده، وهمست له:

- تعال معي، سنعود إلى البيت.

وقادته إلى البيت، وغرفته، وسريره دون أن يستيقظ.

أقفلت الباب الخارجي، وأخذت المفتاح معها إلى غرفتها، وخبأته تحت وسادتها، وأصبح إقفال الباب من عاداتها قبل النوم.

عاد عصام في المساء حاملاً كيساً يحتوي على زجاجات الخمر. أطاع حياة بالجلوس إلى طاولة العشاء وهو يشعر بمرارة حديثة في حلقه وجمرات متقدة في قلبه. وتظاهر بتناول بعض اللقيمات متجنباً الكلام معها والنظر إليها. وضع زجاجة الخمر أمامه، وملأ كأسه بصمت، وجلس على الكنبة السوداء يحدق في الفراغ وشرارات غضب تلمع في عينيه أحياناً، وانطفاءات حزن عميق في أحيان أخرى، ينصت إلى ألمه والصمت الثقيل وقرقعة النار المشتعلة في المدفأة، ويشعر بنفسه مثل سفينة تائهة تتلاعب بها الأمواج دون أن تعرف على أي من الشواطئ سترسي.

نقلت حياة الطعام كما هو إلى المطبخ، وغادرت إلى غرفة النوم، واستلقت حاضنة لعبتها أحلام في الطرف الداخلي من السرير الزوجي: الطرف الذي استلقت فيه ليلة الأمس، وانتظرت عودة عريسها طويلاً. تناهى إلى سمعها موسيقا كمانه بعد برهة من الزمن، كان الكمان يئن، يبكي لحناً أكثر حزناً من كل الألحان الحزينة التي سمعتها من قبل، فأخذ قلبها يئن مع أنينه، ويبكي مع بكائه إلى أن توقف الكمان فجأة، وقرع أذنيها صوت ارتطامه بالحائط مثل انفجار قنبلة، فتخيلت قطعه تتطاير وتتناثر في أرجاء غرفة الجلوس، حتى لقد ودّت أن تذهب وتلملم قطعه، وتعيد تكوينه من جديد، وتمحي آثار شروخه حتى، لكنها فكرت: «ما ينكسر، لا يعود أبداً مثلما كان.»

كان ضوء خافت يخيم على الغرفة وهي مستلقية على ظهرها، مادة رجلها اليمنى على طولها، ومثنية اليسرى تحت أختها اليمنى، ملتحفة بلحاف سميك تاركة رأسها فقط يخرج من تحته، ومثبتة عينيها على السقف نصف المعتم. يخترق أذنيها العاريتين صوت ريح تنوح كأنما تندب فقدان عزيز عليها، وتطرق نافذة غرفتها راغبة في الدخول، وحملها على أجنحتها، والطيران بها إلى ما لانهاية.

شدّت اللحاف إلى فوق رأسها راغبة في صمّ أذنيها عن نواح الريح، وأغلقت عينيها راغبة في الهروب من مصيبتها، فأبحر خيالها ورسا عند أحد صباحات عيد الأضحى المبارك. استيقظت في صباح العيد على أصوات المصلّين في جامع القرية وهم يرددون تكبيرة العيد بترنيمة محببة «الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، الله أكبر الله أكبر ولله الحمد» واجتازت ساحة الدار بابتهاج وهي تسوّي ياقة قميص بيجامتها. وقفت في باب المطبخ، وراقبت أختها ثريا تطبخ الرز بالحليب كعادتها أيام الأعياد: تحرك محتوى طنجرة الألمنيوم بملعقة خشبية كبيرة، تتوقف عن التحريك، تفتح

الخزانة المقابلة لموقد الغاز، تخرج منها زبادٍ صغيرة وتصّفها بانتظام على طاولة المجلى، ثم تعود إلى موقد الغاز وهي غارقة بأفكارها.

خمّنت أن أختها ثريا تفكر في رياض، فدنت منها بخطى هادئة، وقبلت أذنها اليسرى، ووضعت رأسها على كتفها وهي تقول:

- كل عيد وأنت بألف خير والذي يشغل بالك بألف خير أيضاً.

فجفلت ثريا، لكنها أدارت رأسها وأجابت:

- وأنت بألف خير يا أم الخطوات السحرية. لم أشعر بك وأنت تدخلين.

والتفتت إليها، وقبلتها على خدها تهنئها بالعيد، ثم قالت:

- اجلبي لي أطباقاً إضافية من خزانة الغرفة، فهذه الزبادي لا تكفي.

فقدمت فروض الطاعة برفع يدها إلى رأسها وخبط قدمها اليمنى على الأرض، ثم هرولت إلى الغرفة، وعادت بعد لحظات معدودات بأطباق صغيرة مصفوف بعضها فوق بعض، ووضعتها بجانب الزبادي المصفوف بعضها بجانب بعض.

بعد أن أنهت تنظيف المطبخ، ذهبت إلى غرفة أحمد الذي كان ما يزال نائماً في سريره مخبئاً رأسه تحت وسادته، ومكوّماً لحافه بين ساقيه. كانت ثريا تجلس بجانبه، وتوقظه بصوت هامس وهي تمسح على كتفه، فأخرج رأسه من تحت الوسادة وهو يهمهم، ثم استدار على ظهره، وأغلق عينيه من جديد. فقالت لثريا:

- إنه لا يفهم بالكلام الحلو يا ثريا، ابتعدي عنه فأنا أعرف كيف أوقظه.

وسحبت اللحاف من فوق أحمد بطريقتها المشاكسة، ورمت اللحاف على الأرض، ثم ضربته على ساقه، وشدّته منها حتى كاد يقع من سريره وهي تقول بلهجتها المعتادة أثناء الحديث معه:

- قم أيها العبقري الكسول، فقد أوشك الناس على العودة.

رفس أحمد برجله في الهواء وهو يقهقه بصوت محشرج بين نوم ويقظة ويقول:

- إن قمت من السرير، لكسرت ضلعاً من ضلوعك.

فتظاهرت بتجنب الرفسة وهي تقول ضاحكة:

- أنت لا تستطيع أن تكسر بيضة فما بالك بضلع من أضلعي. قم أيها العبقري الكسول، واشرب قهوتك قبل أن نذهب.

عندما خرجوا من البيت، كان الفجر يلقي بضوئه الفضي على القرية وأهلها، ويحث العصافير على الخروج من أعشاشها والوقوف على أغصان الأشجار لتنشد أناشيد العيد في الهدوء السائد، وكان نسيم الصباح يداعب وجهها وهي تشابك ذراع ثريا، وتمشي بجانب أحمد على الطريق المترامية على جانبيها حقول الزيتون والمؤدية إلى مقبرة القرية.

كان أهل القرية ينتشرون بين شواهد القبور، ويعيّدون موتاهم بقراءة آيات من القرآن الكريم أو برفع الأيادي والدعاء، وكان الأطفال يمرحون مرحاً صاخباً دون أن يدركوا أنهم سيرقدون تحت التراب في يوم ما كالراقدين الآن.

قرفص أحمد بجانب قبر والده، وأخرج الكتاب الكريم من محفظة قماش من الساتان الزهري، وبدأ يقرأ بصوت هامس بعد أن قبّله ثلاث مرات. قرأت ثريا الفاتحة، وفتحت علبة الغُريبة لتوزعها على زائري القبور.

فتح عصام الباب بهدوء، وفتحت حياة عينيها على اتساعهما، فاصطدمتا بعتمة ما تحت اللحاف. لقد كانت مستلقية حاضنة لعبتها أحلام، غامضة عينيها ومطلقة العنان لخيالها يجوب في الماضي، ويجلب العيد وأجواءه إلى غرفة نومها

وتحت لحافها، فبعد يومين سيحل عيد الأضحى ضيفاً على الناس جالباً معه طقوسه وأفراحه، ولأنها تعرف أنها لن تستيقظ في قريتها على تكبيرات المصلين، ولن تهنّئ أختها ثريا، ولن تشاكس أخاها أحمد، لذلك تترك خيالها يبحر إلى هناك، ويجلب العيد وإياهما إليها.
وقف عصام في فتحة الباب، فتسرب ضوء غرفة الجلوس إلى غرفة النوم. ثم تقدم بخطوات مترنحة، ووقف عند نهاية السرير وهو يقول:
- اجلسي، أريد أن أسألك سؤالاً.
جلست بحركة سريعة تاركة اللحاف يغطي نصفها السفلي، ونظرت إلى عيني عريسها فرأت انطفاءات يأس فيهما لم تستطع عيناها امتصاصها:
- ماذا فعلت لك لكي تعاقبيني هذا العقاب؟ ولماذا تزوجت مني وأنت لا تحبينني.. لماذا؟
أرادت أن تقول أنها تحبه ولم يخطر ببالها في لحظة من اللحظات أن تعاقبه عقاباً مثل هذا العقاب، لكنه أدار ظهره إليها، وخرج من الغرفة ساحباً الباب وراءه دون أن يغلقه، فبقيت متيبسة مكانها من عدم التصديق أن لا يصدق حكايتها.

عاد عصام إلى غرفة الجلوس، وارتمى على الكنبة السوداء، وعاد يبحث عن حلمه الضائع في كأسه دون أن يعثر عليه، هو الذي أدلى دلوه متوقعاً أن يحصل على ما يسكّن ظمأه وينعش روحه، وعندما رفعه، وثبت منه نارُ أحرقت روحه: أكانت تضحك عليه كل المدة الماضية وتتسلى به لقضاء وقت فراغها؟ أكانت تخفي وراء قناع براءتها مكرها الذي لم يره، إلا عندما خلعت قناعها بنفسها بعد أن بلغت مرادها؟ كيف أوهم نفسه بأنها ستدخله روضة من رياض الدنيا؟ أكان يحلم حلم إبليس في الجنة؟ أبنى صرح آماله من الرمال موهماً نفسه بأنه صرح بازلتي متين، فتداعى عند أول تدفق للموج؟ أم أنه شيَّد قصراً وهمياً في الهواء مقنعاً نفسه بأنه قصر منيع، فهُدم على رأسه عند أول هبة ريح؟

كان قد مضى على وصوله معها إلى بيتهما الزوجي حوالي خمس عشرة ساعة، عاش أثناء هذه المدة كلها في حيرة لم يعرفها من قبل: أيسامحها على خيانتها أم يخرج من حياتها؟ أيستطيع أن يلمسها بعد أن جرحت كبرياءه؟ أيستطيع أن يبني معها حياة عائلية مبنية على الثقة؟ ألن يلاحقه كابوس استضافتها لعشيقها إن خرج من البيت؟ وكيف له أن يحضنها وهي تخرج من حضن رجل آخر؟ وكيف له أن يقبِّلها من شفتيها وبصمات شفتيه ما تزال عالقة بهما؟

لقد استمع أخيراً إلى عقله، وقرّر أن يخرج من حياتها إلى الأبد ليخلي الطريق أمامها وأمام عشيقها. أمسك رأسه بكلتي يديه وهو يحاول أن يقنع نفسه بأن القرار الذي اتخذه هو قرار سليم وصحيح، فتمنى أن يأتي النهار سريعاً ليضعه قيد التنفيذ قبل أن يعود ويغير رأيه ومن ثم قراره، لكن الليلة بقيت تمكث على قلبه مصممة أن لا تتركه إلا بعد أن تهزمه حتى النخاع.

كانت حياة ما تزال جالسة في مكانها على حافة السرير، تلعن نفسها، وتشن حرباً ضارية عليها: لماذا لم تغرز السكين في صدرها قبل أن يضع مروان يده القذرة عليها ويحول حياتها إلى جحيم؟ ولماذا خانتها شجاعتها بعد ذلك؟ ولماذا لم تصر على إلغاء عرسها والبقاء في بيت أهلها لتجتر فجيعتها إلى آخر يوم في حياتها؟ ظهر وجه متجهم وقرع صوته رأسها: «أنت خائنة وعاهرة، تلوثتِ ولوثتِ سمعتنا»، وظهر وجه آخر معترض وقال: «أنت ضحية، الجبان هو الذي لوثك». اختلط الصوتان، وتحولا إلى مطرقتين تتناوبان الطرق على رأسها، وتندمجان بزمجرة الرعد خارج البيت فتضاعفت الأصوات وتحولت إلى قعقعة معركة حامية تخترق أذنيها، وتشق طبلتيهما، وتعصف بكل خلية

من خلاياها، والأسئلة تظهر أشباحاً ترقص أمامها، وتهزأ منها، ثم تعود إلى مكانها لتدور كدوامة هائجة بين جدران رأسها: لماذا...ولماذا...ولماذا دون أن تجد جواباً؟
رفعت رأسها فجأة وحدقت إلى نفسها في المرآة، وضعت إحدى يديها على بطنها والأخرى على ساقيها، ونظرت إلى منطقة ما بين يديها وفكرت:
- ليتني أستطيع أن أقطع هذا الجزء الذي كان السبب في بليتي وأدفنه تحت الأرض!
وبصقت على أنوثتها في المرآة وهي تحتقرها، وتحتقر نفسها. سمّرت نظرتها في بلاط الغرفة وهي تتمنى أن تنشق الأرض وتبلعها مع قذارتها أو يظهر شخص أسطوري من الأرض ويخنقها، إلا أن الأرض لم تبلعها ولا قفز الشخص الأسطوري من جمودها، فتحول الضوء الخافت إلى سواد حالك أمام عينيها وهي تسأل نفسها كيف لها أن تزيل الألم الذي ينهشها، وينهش عريسها؟ وأين لها أن تعثر على نقائها السابق قبل أن يلوثها مروان بقذارته؟ وكيف لها أن تعيد الربيع الذي حل في داخلها وقتاً قصيراً، ورحل رحيلاً أبدياً منذ اللحظة التي وضع فيها مروان القذر يده القذرة عليها؟
تذكرت بحسرة ذلك اليوم الذي ذهبت فيه مع زملائها وزميلاتها وطلابهم في رحلة مدرسية وتعرفت فيه إلى عصام، فعندما وصلت في ذلك الصباح إلى المدرسة، رأت عصام واقفاً مع زميلاتها وزملائها وحقيبة كمان تتدلى من كتفه.

توقفوا في قلعة سمعان، واستمتعوا بمشاهدة براعة الأيدي التي عمّرتها ونقشتها في أيام ماضية، واستمعوا إلى دليل سياحي أخبرهم عن تاريخ القلعة، وعن كاهن قضى أكثر من أربعين سنة من حياته متنسكاً فوق صحن عمود من عواميدها. وعندما تركوا القلعة بعد الظهر، استراحوا في منطقة خضراء تقف الجبال بشموخ على طرفها، وتنساب جداول مياه عذبة عبر مروجها، وتمتد حقول الرمان على حدودها. في ظلال الأشجار الوارفة وبالقرب من النهر، شكّل صوت الكمان والبزق وخرير الماء اوركسترا جميلة كيّفت الأشجار حركتها على ايقاع ألحانها المتطايرة باتجاه القلوب. ثم عزف عصام عزفاً فردياً، فترك موسيقاه تندمج بحفيف الشجر وصمت السهل، وتُدخل المستمعين إلى أجواء الماضي البعيد بهدوئها وهيبتها. وعندما أنهى عزفه، وضع كمانه في حقيبته، وتقدم باتجاهها، وجلس بالقرب منها. شرب كوب ماء بارد، وسألها وكوبه الفارغ ما زال في يده:
- هل أعجبك عزفي؟
فأجابت:
- عزفك جميل. هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها عزف كمان حقيقي، فالعزف على الكمان ليس دارجاً عندنا مثل العزف على البزق، هل التحقت بدورة موسيقا؟
- نعم، عندما كنت في الخامسة عشرة من عمري التحقت بدورة موسيقا، ودرست فيما بعد معهد الفنون الموسيقية، لكنني للأسف اضطررت إلى التوقف عن الدراسة بسبب ظروف خاصة.

صاحت الأنسة خديجة سائلة الجميع بصوت عالٍ وكأنها لا تريد أن يكمل حديثه:
- ما رأيكم في أن نلعب كرة الطائرة؟
- موافقون.
- دعونا إذن نشكل فرق من شخصين، ونضع قانوناً يوجب فوز الفريق الذي يلعب أطول مدة من دون أن يوقع الكرة.
اختارها عصام أن تكون شريكته في اللعب، وحين جاء دورهما، قذف الكرة إلى الأعلى، وضربها برؤوس أصابعه باتجاهها، فأعادت الكرة إليه بنفس الطريقة، فبقيت الكرة تطير بينه وبينها أكثر من نصف ساعة دون أن تمس الأرض، ورؤوس المراقبين والمنتظرين أدوارهم تتحرك يمنة ويسرة مع حركتها. وعندما حان الوقت لإعلان نتيجة المباريات، وقفت الأنسة خديجة بينه وبينها، وأعلنت برفع يده ويدها أنهما بطلي العالم لكرة الطائرة لهذه السنة، فأعقب إعلانها تصفيق الجمهور.

سألها عصام بعد مضي برهة من الزمن:
- هل أنت عضوٌ في نادٍ رياضي، فأنا لم أتوقع أن تلعب فتاة بهذه المهارة، إن لم تكن رياضية.
فأجابته بالنفي، وخطت إلى الأمام راغبة في الانضمام إلى المجموعة الواقفة بالقرب منهما، إلا أنها توقفت عن السير ورجعت تقف في مكانها عندما قال لها:
- أرجوك أن تبقي قليلاً يا حياة... أريد أن أسألك: هل أنت مخطوبة أو متزوجة أو مرتبطة؟
- لا، أنا غير مرتبطة.
- لا أريد أن أكذب عليك، وأقول لك أنني أحببتك من أول نظرة وأريد الزواج منك، فأنا لا أؤمن بالزواج الذي يؤسَس على نظرة، لكنني لا أخفي عليك أنني ارتحت إليك كثيراً وأشعر أنني أعرفك منذ زمن بعيد... أتمنى أن توافقي على أن نلتقي في مكان تحددينه أنت لنعرف هل يناسب أحدنا الآخر.
أحست بجدية كلامه، فقالت:
- إنني باقية طوال هذا الشهر بحلب، لكنني في الشهر القادم سأذهب مع أخي وأختي لقضاء العطلة الصيفية في القرية.
- هل نستطيع أن نلتقي؟
- حدد المكان والزمان.

كانت ثريا قد ذهبت مع أحمد إلى الطبيب في ذلك اليوم نفسه، فوصف الطبيب لأحمد أدوية استطاع بها بلع لقمته على نحو أفضل. كان أحمد قد فقد الكثير من وزنه في المدة الماضية بسبب فقدان شهيته، وعدم استطاعته بلع لقمته التي قال أنها تبقى عالقة بين حلقه ومعدته دون أن تعرف طريقاً إلى النزول، وكأن معدته تغلق بابها في وجهها غير راغبة في استقبالها، وإن استقبلت جزءاً منها فلا تستطيع هضمه. كان يعزي سبب توعكه الصحي إلى تركيزه في دراسته استعداداً لامتحانات تخرجه، لأنه لم يكن يشعر بالألم في جسده، سوى تعب بسيط ووجع في الرأس في بعض الأحيان بسبب معدته شبه الفارغة.

أخبرتهما عن عصام بتردد وخجل، وسألتهما:
- هل أخطأت في قبول لقائه غداً؟
فقال أحمد:
- يجب أن تكوني حريصة على نفسك، فأنت لا تعرفين عنه أي شيء سوى أنه قريب زميلتك في العمل وعازف كمان، وأفضِّل أن يأتي لزيارتنا.
وقالت ثريا بدموع في عينيها وابتسامة على وجهها:
- ها أنتما كبرتما، وستتزوجان وتتركاني وحدي!
فاسترجعت أسلوبها المعتاد عندما تتكلم مع أحمد وهي تسأله:
- وهل قررت أخيراً أن تطلب يد ابنة عمك المحترمة يا عبقرينا؟
- نعم، فأنا اتفقت مع نسرين على أن أطلب يدها بعد شهرين عندما أضع شهادتي في جيبي، وأن نتزوج بعد أن تنتهي هي من السنة الثالثة وإلى أن تنجب طفلنا الأول، ستكون قد أنهت دراستها الجامعية... بالمناسبة هي ستأتي بعد غد لزيارتنا.

وبعد يومين جاءت نسرين من المدينة الجامعية لزيارتهم، ففتحت لها الباب ورحبت بها قائلة:
- أهلاً بك يا عروس المستقبل القريب. لقد جئتِ في الوقت المناسب، فالمطبخ مليء بالجلي.
- آه منك يا حياة، ومن استقبالك الرائع!

- أيوجد استقبال أروع من هذا الاستقبال؟ هيا شمِّري أكمامك وادخلي المطبخ.
- اتركيني على الأقل ألتقط أنفاسي من صعود السلم!
- التقطي أنفاسك على راحتك وأنت تجلين.
- آه، أين ثريا لتخلصني منك؟ ألم تعد من زيارة رياض بعد؟ اعتقدت أنها ستكون قد عادت الآن!
وظهرت ثريا في تلك اللحظة في الباب الخارجي وهي تحمل علبة آيس كريم وتقول:
- ها أنا قد جئت يا نسرين.
- تعالي وخلصيني من حياة، أو أعطيها علبة الآيس كريم هذه لتذهب إلى المطبخ عسانا نتخلص منها.
فضحكت ثريا وأعطتها علبة الآيس كريم وهي تقول لها:
- اسكبيه في أطباق يا حياة قبل أن يذوب.
فأجابت:
- أمري إلى الله!
وذهبت إلى المطبخ وعادت بعد لحظات بأطباق الآيس كريم ووقفت أمام أخيها وهي تقول:
- أحلى آيس كريم لأحلى عريس.
فأجابها أحمد مازحاً:
- آه يا صغيرتي! متى ستتعلمين الأصول؟ عليك أن تضّيفي أحلى عروس أولاً، فهي الضيفة.
فضيَّفت العروس طبقاً وهي تقول:
- تفضلي يا أحلى عروس، يا الله سأتسامح معك وأعاملك مدة خمس دقائق معاملة ضيفة، ولكن بعد انقضاء هذه المدة ستقومين بلملمة الأطباق وجليها، لا لشيء إلا لتكتسبي خبرة في البيت الذي ستعيشين فيه غداً.
كانت قد نقلت مشاكستها إلى نسرين أيضاً باعتبارها تكمّل أحمد، وكانت نسرين قد اعتادت أسلوبها ذاك منذ زمن طويل، وكانت تعرف أنها تمزح الآن أكثر من أي وقت مضى لتدخل الفرحة إلى قلب ثريا القادمة من زيارة خطيبها، وقلب أحمد المضرب عن الطعام وهو على أبواب امتحانات تخرجه، فأجابت:
- أنا عندي حلُ يا حياة، سأبحث لك عن عريس وأتخلص منك قبل أن أتزوج أخاك، لأنني أخاف أن تطرحيني أرضاً وتجلسي على بطني وتضربيني كما فعلت مع شيرين عندما كنا أطفالاً، هل تتذكرين؟
لم تكن نسرين قد أنهت جملتها بعد، عندما سمعوا صوت الجرس.
هرولت إلى الباب، ودُهشت عندما رأت عصام، فهي لم تتوقع أن يزورهم في البيت بتلك السرعة، فقد كانت قد التقت به يوم الأمس واتفقت معه على موعد في يوم الغد، لكن عصام لم يقدر على انتظار الموعد الثاني فجاء يطلب من أحمد وثريا موافقتهما المبدئية على خطبتها قبل أن يأتي والداه لطلب يدها بشكل رسمي. وعندما خرجت معه عند مغادرته، همس لها:
- مجيئي الآن لا يلغي موعدنا غداً، فأنا لا أصدق متى يأتي غداً لأراك.

صارا منذ ذلك الوقت يلتقيان في مقصف الحديقة العامة، يجلسان إلى طاولة بجانب شجيرات خضراء، وقرب نافورة تدفع الماء باتجاه السماء، فيعود إلى البركة على شكل خيمة مائية تنشر انتعاشاً في المكان. وفي موعد اللقاء الأخير قبل ذهابها لقضاء عطلة الصيف في القرية، شرب كل منهما كأساً من العصير، ثم قاما يمشيان الهوينى بين الشجيرات والورود، ويخططان لبيتهما الزوجي وأثاثه، فحلّ ربيع في داخلها أشرق قلبها شمساً حانية أذابت ثلجاً تراكم ذات شتاء على تلال نفسها، فظهر مرجها، وانتعشت أزهارها، وتحول دمها إلى غدائر عذبة تسقي روحها، فقد بارك الأهل حبهما، وأرسلوا دعاءهم ملائكة تحميهما.
سألها عصام:

- كيف تريدين أن تكون غرفة الجلوس؟
فنظرت إلى السماء بعينين حالمتين وأجابت:
- أحلم بغرفة جلوس كبيرة تقف فيها كنبتان سوداوان وطاولة من زجاج.
قالت ذلك وتخيلته يجلس على الكنبة السوداء وأمامه الطاولة الزجاجية، ويعزف على الكمان وهي تجلس قبالته وتمتع عينيها برؤية وجهه وتمتع أذنيها بسماع موسيقاه.
- وماذا عن غرفة النوم؟
توقفت عن المشي، وجلست على المقعد الخشبي تحت الشجرة العملاقة، ونظرت إلى الأزهار المزروعة أمامها وقالت:
- أنت تستطيع أن تختار موديلها، لكنني أريدها أن تكون بيضاء اللون.
- وغرفة الأطفال؟
- بناتنا سيكن حالمات، لذلك يناسبهن الأثاث الأبيض والجدران الزهرية.
أدار عصام رأسه إليها، فرآها وكأنها طفلة صغيرة تحلم أن تكبر وتصبح أماً لبنات وصبيان، فشعر بأنه يعود طفلاً صغيراً ليلعب معها ويكبر لها، رغم أنه كان يدرك أنه شاب بالغ يجلس بجانب فتاة بالغة ويستعد لدخول بوابة المستقبل وترك الماضي إلى الأبد. قال متظاهراً بالعتاب:
- هل معنى ذلك أن أولادنا الصبيان سيكونون قليلي الإحساس؟!
فأجابت:
- طبعاً لا، سنختار اللون الأبيض أيضاً لأثاث غرفتهم، ولون البحر والسماء لجدرانها ليكبروا على الاتساع واللامحدود.
وعطفت رأسها إليه فجأة، وكأنها استفاقت من حلم جميل:
- لم أسألك بعد: كم ولد وبنت تريد أن أنجب لك؟
- دزينة أولاد، أي ستة صبيان وست بنات.
فانطلقت ضحكتها طيوراً حامت فوق رأسيهما وهي تسأله:
- هل تعني ما تقول؟
فجاراها في ضحكتها، ثم قرر:
- أحلم بأربعة أولاد.
- هذا معقول جداً... تُرى كيف سيكون وضعنا بعد خمسين سنة؟
- ستكون ظهورنا منحنية، وأفواهنا خالية من الأسنان، وشعورنا بيضاء ووجوهنا ملأى بالتجاعيد.
- ألن تضجر مني بعد ذلك العمر كله؟
- إن ضجرت من نفسي، سأضجر منك أنت أيضاً يا حياة. فأنا أحبك أكثر من نفسي وسأبقى على حبك إلى آخر يوم في حياتي.

وصمتا وراحا يحدقان أمامهما ويفكران في حياتهما بعد خمسين سنة إلى أن قالت وهي تقوم من مكانها:
- حان الوقت لأن أذهب إلى البيت.
- سأوصلك إلى موقف السيرفيس.
وسارا باتجاه الشارع العريض الذي كان قد بدأ يتزين بأضوية مختلفة الألوان. توقف عن السير وقال:
- لا أعرف كيف سينقضي كل هذا الوقت وأنت بعيدة عني يا حياة، وأنا الذي أشتاق إليك وأنت معي. سأتصل بأحمد لأتفق معه على موعد آتي فيه مع والديّ إلى القرية لنطلب يدك من عمك.
وقبّلها فجأة من شفتيها. تمنت أن تدوم تلك اللحظة إلى ما لانهاية، لكنها ابتعدت محاولة طبع اللحظة في ذاكرتها.

تكررت مشاعر تلك اللحظة مرات ومرات إلى أن وصلت إلى البيت، وسمعت ثريا تقول لأحمد:
- أنا يقلقني هذا الألم الذي تعانيه، أطعني يا أخي ودعنا نذهب إلى طبيب آخر.
- إن هذا التعب والألم إنما مردهما إلى أنني بذلت جهداً زائداً في الامتحانات، وأنا متأكد من أنني سأعوض ما فقدته من وزني وأتخلص من التعب والألم عندما أشم رائحة القرية.
فتدخلت تشاكسه قائلة:
- قل عندما أكون بجانب نسرين صباحاً ومساءً.
فقال أحمد:
- أسمعينا سكوتك يا صغيرتي. وجهزي نفسك للسفر غداً بعد أن نعود من زيارة رياض.
- وهل ستذهب مع ثريا لزيارة رياض يا عبقرينا؟
- أريد أن أرى ابتسامته عندما أخبره بإصدار روايته.
- يبدو أن الظروف الصعبة تفجر المواهب. أتمنى أحياناً أن أُسجن لأستطيع كتابة الروايات مثل رياض.
فنهرتها ثريا بحزم:
- لا تتمني مثل هذه الأمنيات المجنونة يا حياة، وإلا سأزعل منك.

خرجوا من بيتهم، وقصدوا بيت العم طاهر في ساعة ما قبل الغروب، في الساعة التي كانت فيها النسوة قد بدأن بسقاية مزروعاتهن من الخضروات والفواكه في الحدائق الملاصقة لبيوتهن، وعاد الأولاد إلى لعبهم في حارات وساحات القرية، واجتمع العجائز والعاطلون عن العمل بالقرب من أسوار البيوت ليخوضوا الأحاديث عن أهل القرية وشؤونها. رأتهم صباح التي كانت جالسة أمام باب بيتها، فقفزت من مكانها، وركضت إلى ثريا، وقبلتها قبلات سريعة متتالية، ثم أخرجت علبة دخانها من جيبها، ورفعتها في وجهها وهي تقول:
- هذه هي السيجارة الوحيدة الباقية عندي يا ثريا، ولا أجرؤ على تدخينها خشية الانقطاع في الليل. منذ الصباح وأنا أطلب من والدي ثمن علبة دخان، لكنه يفضّل موته على أن يمدَّ يده إلى جيبه ويخرج منه قرشاً واحداً، إذا تعلق الأمر بي.
فأخرج أحمد نصف سجائر علبته وأعطاها إياها وهو يقول:
- خذي هذه السجائر لتدخني على راحتك.
وقالت لها ثريا:
- أنا لم أنسَ دخانك والفستان القطني الذي طلبتِه مني في المرة السابقة. تعالي غداً لعندي لتستلمي أغراضك.

وأكملوا طريقهم إلى بيت العم طاهر. كانت زوجة العم طاهر وبناتها الثلاث يجلسن على كراسي خشبية واطئة خلف كومة من البندورة، وكانت هيفين تغسل قطع البندورة، وتلقيها في الوعاء أمام أمها وأختيها فيقطّعنها إلى قطع متوسطة الحجم. انضمت ثريا إليهن وهي تقول:
- لو كنت أعرف أنكن ستحضّرن دبس البندورة، لجئت باكراً.
سحبت زوجة عمها وعاءً امتلأ للتو، وصفته بجانب الأوعية الأخرى بجانب الحائط وهي تقول:
- ذهب عمك إلى السوق ووجد البندورة رخيصة، فاشتراها من دون علمي.
ثم قالت:
- يا إلهي، ما هذا الضعف الذي أرى أحمد عليه! لقد أفنى المسكين عيونه وصحته في سبيل هذه الدراسة الظالمة... هل تعرفين يا ثريا أنا أريد أن أفرح بخطبته على نسرين، وأقيم حفلة أدعو إليها كل الأقرباء والأصدقاء، لكن عمك يصرُّ على أن تكون حفلة الخطبة حفلة عائلية، ويقول أنه يترك قرار حفلة العرس لي، وأستطيع أن أدعو إليها من أشاء.

عندما انتهين من العمل، كانت النجوم تزين السماء، ووجه القمر المكتمل يضيء الأرض، ونسيم المساء يحرك أوراق الشجر بهدوء. سحبت زوجة عمها ثريا من يدها، وأجلستها بجانبها وهي تقول:

- لقد تجاوزت السادسة والعشرين يا ثريا، وما زلت تضيعين شبابك وتحرقين عمرك في انتظار شخص لن يعود. يجب أن تعودي إلى صوابك وتفكري في نفسك قبل أن يفوت الأوان، وأنا أريد أن أساعدك في ذلك شرط أن تطيعيني... أنا عندي عريس لك تحلم به كل الفتيات؟ إنه جمال، ابن أخي. لقد طلب مني قبل فترة أن أخطبك له، لكنني رفضت ونصحته بأن يبحث عن فتاة أخرى، لكنه جاء البارحة، ورجاني مرة أخرى أن أكلمك بشأنه، وهو يقول أنه على استعداد لأن ينفذ كل طلباتك، حتى وإن كان لبن العصفور.

- إنني اخترت طريقي منذ زمن طويل يا مرة عمي وأنت تعرفين ذلك، فأنا أعطيت رياض كل عواطفي ولم يبقَ لدي ما أعطيه لرجل آخر، وإنني سأظلم نفسي إن فعلت غير ما أشعر به، وسأظلم رياض بخيانتي له وسأظلم جمال بزواجي منه.

- أنت بهذا التفكير لا تظلمين إلا نفسك يا ثريا، ولا تضرين إلا نفسك.

- اطمئني يا مرة عمي، أنا لا أظلم نفسي ولا أضرها.

- أنت تضيّعين فرصة لا تأتي غير مرة واحدة في العمر يا ثريا!

- أعرف أن كل فتاة تحلم بالزواج من إنسان مثل جمال، لكنني أحلم بالزواج من رياض وأنتظر عودته، وسأبقى في انتظاره حتى وإن بقي العمر كله غائباً.

فسألت سميرة عاتبة:

- هل كتبوا لك سحراً يفقدك عقلك إلى هذه الدرجة ولا تفكري في نفسك؟!

فقالت ثريا دون أن تجيب على سؤال زوجة عمها:

- إن الناس لا يحترمونني، ولا يحترمون الشخص الذي ألبس خاتمه في إصبعي، ويعاملونني معاملة فتاة تنتظر عريساً، وأنا لا أستطيع أن أتخلى عن ذاكرتي وتجربتي من أجل أن أخوض تجربة جديدة، لأنني ببساطة لا أملك قدرة الأفعى التي تترك جلدها وراءها، وتكتسي بجلد جديد دون أن تحزن على ما تخلت عنه لحظة واحدة.

كانت الشمس في أوج غضبها وكان قيظها يشل حركة الناس، ويحوّل الأرضيات الإسمنتية إلى أفران حامية، ويجبر الأشجار على أن تنام واقفة وتحلم بغسق قادم لتستيقظ وتتحرك على إيقاع نسيمه.

كانت مستلقية على الأرض العارية في غرفتها، تسترجع المشاعر التي خلّفها عصام عندها بملامسة شفتيه لشفتيها، وتنصت إلى أغاني قلبها، وتشاهد رقص أحلامها وازدهار آمالها على شاشة ذاكرتها.

وكانت ثريا تجلس على زاوية سريرها، وتفكر في الجفاف الذي أصاب عالمها وفتّح ثغوراً عميقة في أراضيه، وتحدق في صورتها وصورة رياض (التي رسمها قبل أكثر من سبع سنوات والتي شقها الرقيب خليل في غرفة التحقيق، وداسها بحذائه في غرفتها، وأحدث ثقباً في عينها وثقباً في خد رياض)، كانت تحدق في الصورة وقلبها يهمس للذي أضرم ناره في كيانها وغاب في الغياهب، ويسأله هل سيعود ليطفئها أم سيبقيها مشتعلة إلى أن تجعل من صاحبتها رماداً؟ كانت تخاف أن تضعف في لحظة من اللحظات وتستجيب لهم، فتفقد نفسها وتضيع في متاهات الدنيا، فهم يغرونها بوعود ذهبية بعد أن كانوا يرهبونها بوعيد جهنمي، ويصفونها بالمجنونة لانتظارها شخصاً لن يعود.

وكانت صباح تسند ظهرها إلى الحائط، وتحضن ركبتيها بذراعيها وخيالها يجوب في عوالم لا يعرفها إلا الله، فهي كانت قد اعتادت أن تقضي معظم أوقاتها عند ثريا لشعورها بأنها تستطيع ترتيب فوضى داخلها واسترجاع نفسها، عندما تكون بالقرب منها.

تناهت إلى سمعهم طرقات متتالية على الباب الخارجي، فركضت ثريا حافية القدمين على الأرض الإسمنتية لأرض الدار وفتحت الباب، وإذا بمروان يظهر أمامها ماسكاً في يده عصاً سميكة وقد اشتعلت في عينيه نارٌ يريد إطفاءها بقتل أخته صباح، فقد قال:

- أين هي، لأريح العالم منها.

وهاجم على صباح رافعاً عصاه ليهوي بها على رأسها، فاعترضته ثريا وهي ترفع يديها الاثنتين أمامه وتقول:

- أرجوك أن تهدِّئ من روعك، فهي أختك ولا يجوز أن تعاملها هذه المعاملة.

هدأ مروان، ولكن ليس بسبب ما قالته ثريا بل عندما وقفت هي في باب الغرفة، فقد أخذ يحدق إليها بعينيه اللتين انطفأت النار فيهما وتركت وراءها جمرات مشتعلة. مسح براحة يده العرق المتصبب من وجهه ورقبته وهو ما يزال يحملق في وجهها إلى أن شعرت بالاشمئزاز من شكله، وقد بقي يحملق فيها إلى أن قالت له ثريا:

- أرجوك أن تغادر، فلا يجوز أن تبقى وأحمد غائب عن البيت.

غادر مروان، وعادت صباح معهما إلى الغرفة، وقالت بعد أن جلست على الأرض:

- إنني أخذت في يوم الأمس علبة سجائر من كروز دخانه، وعندما كشف النقص هاجم عليَّ، وضربني على مرأى من عيون أهلي الذين جلسوا يراقبونه ويشجعونه على كسر رقبتي. إنهم لم يعاتبوه عندما سرق مئات الآلاف من الليرات، فقد عرف كيف يغلق أفواههم ببضعة قروش. هل صدقت الآن يا ثريا أنهم يكرهونني ويريدون قتلي، وأنها ليست مجرد هلوسة من هلوساتي؟ لا أقول لك أنني سوية تماماً، فأنا أعرف أنني أفقد توازني في بعض الأحيان، وأتبع توجيهات أصوات أسمعها، رغم أنني أعرف أنها أصوات وهمية. فأنا أسمع في أغلب الأحيان صوت وفاء وهي تستنجد بي، وتكرر جملة وحيدة: «تعالي، إنني في حاجة إليك.» فأقتفي أثر صوتها إلى أن أصل إلى مكان رقودها دون أن تتوقف عن تكرار جملتها، فلا أعود أعرف أهي راقدة في القبر أم في داخلي، وأسمع في بعض الأحيان صوتاً غريباً وهذا ما يخيفني أكثر، ويدفعني لإطاعته أكثر. أشعر بأناس ذوي سلطة صارمة يعيشون في داخلي وبالقرب مني، يظهرون من بين ذرات الغبار وأشعة الشمس مثل حقيقة ساطعة، فتخيفني وجوههم الغريبة: فهي وجوه دون أجساد، ودون رؤوس حتى، تجهم مرة، وتهزأ مرة، وتفتح أفواهها مرة أخرى، وكأنها تريد ابتلاعي لتهضمني في أعماقها اللامرئية. تحضنني حيناً بذراعين أخطبوطيين تنموان من أنوفها فجأة، وتأمرني حيناً بالجلوس مكتفة اليدين، فأطيع ولا أجرؤ على الحركة إلى أن يقف دمي عن السيل في عروقي، وتتخشب أطرافي، ويرحمني النوم ويخطف مني نفسي التي لم تعد نفسي. أعرف أن معظم ما يحدث معي ليس حقيقياً، وأصمم في أوقات صحوي أن لا أتركه يسيطر عليَّ مرة أخرى، لكنه عندما يعود يكون أقوى مني، ويوهمني بأنه الحق وكل ما تبقّى باطلاً، فلا أعود أميّز الحقيقة من الوهم. إنني أعيش تحت أنقاض نفسي وأرغب في الخروج، لكن الأثقال تشلني. أنتظر يداً حانية تنتشلني، لكنني أراها تكوّم عليّ ما لم يُهدَم بعد. أصرخ، لكن صوتي لا يخرج من دائرتي الصغيرة، ويعود صداه ليلطم أذنيَّ دون رحمة. أمدُّ يدي لأمسك بصيصاً يلوح من شق صغير، لكنه يتحول إلى نار تحرقها. إن أغلب الناس يحاولون طمري أكثر، ويتلذذون بوضعي وهم يعتقدون أنني لا أفقه شيئاً، ألأنهم يريدون أن يؤكدوا لأنفسهم أنهم أسوياء العقل والروح؟ أم يريدون أن ينتقموا لرغباتهم الضائعة من خلالي؟ أم يرغبون في أن ينفّثوا عن سادية تعرضوا لها في يوم من الأيام؟ ويريد بعضهم أن يكونوا أكثر رحمة، ويظنون أنهم يساعدونني، ولا يعرفون أنهم بشفقتهم المريضة يطاردونني أكثر إلى العالم الذي أحاول الهروب منه، فهم يعاملونني مثلما يعاملون حيواناً مشرداً جاء إلى باب بيتهم، فيرمون له كسرة خبز، ويديرون له ظهورهم، وينهمكون من جديد بمشاغلهم. صدقيني يا ثريا، لم يعاملني أحد معاملة سوية، ولم ينظر إليَّ على أنني صباح دون أن يستهزأ بي أو يشفق عليَّ شفقة مريضة إلا أنت، حتى أمي تغيّر معاملتها لي، فهي تتلذذ حيناً، وتشفق عليّ حيناً، وتتمنى موتي حيناً آخر لأرتاح أنا وأريّحها هي. أرجوك، خذيني معك وسأكون خادمة لك. خذيني لأشعر بأنني ما زلت أنا، ولأسترجع نفسي السابقة إليَّ... إنني في

حاجة دائمة إلى حنانك، ولا تكفيني الجرعات التي تمنحينني إياها من وقت لآخر، لأن مفعولها ينتهي بعد القليل من غيابك.

فأجابتها ثريا وهي تحضنها بكل قوتها وتبلل رأسها بدموعها:

- ليتني أستطيع يا صباح... ليتني أستطيع.

ذهبت لفتح الباب، بعد أن وصل صوت الجرس من جديد. أدخل مروان رأسه من شق الباب بعينين تشبهان عيني ذئب جائع يستعد للانقضاض على فريسة، فانتفضت مبتعدة وهي تقول:

- ستعود صباح بعد قليل إلى البيت.

لكنه لم يكن قد عاد من أجل أخته، فقد عاد ليقول لها:

- عندما شاهدتك البارحة سحرني جمالك، وكل ما فعلته اليوم كان من أجل أن أراك وأقول لك أنني أريد أن أتزوجك.

اشمأزت من كلماته وعينيه المسعورتين، فدفعته إلى الوراء، وأغلقت الباب في وجهه وهي تقول:

- أنا مخطوبة.

غرز صوته طبلتي أذنيها بعد أن اخترق الباب:

- سأخطبك في الوقت القريب.

ابتعدت عن الباب، ورجعت إلى الغرفة وهي تتمنى أن يتركوا القرية في الحال.

وقفت أمام المرآة بعد أن صفّفت شعرها وزينت وجهها بماكياج يناسب لون فستانها الزهري الذي اشترته لمناسبة خطوبتها على عصام. دارت حول نفسها كعادتها، عندما تلبس فستاناً جديداً تعرض جمالها لعيني أختها ثريا، متأكدة من أن الشمس التي أشرقت في داخلها ستبقى مضيئة إلى آخر عمرها. ثم توقفت وقبّلت ثريا، ورجتها أن تفك حصار الحرمان الذي كانت قد فرضته على نفسها منذ اعتقال رياض قبل أكثر من سبع سنوات، وحرّمت على نفسها الماكياج والخروج إلى الرحلات، والذهاب إلى الحفلات، والحفلة الوحيدة التي حضرتها خلال تلك السنوات كلها، كانت عرس أخته. لقد أمسكت قلم أحمر الشفاه بيد، وطوقت ثريا بذراعها الأخرى وهي تتوسل إليها:

- أرجوك يا ثريا أن تسمحي لي بوضع قليل منه على شفتيك.

فأجابت ثريا:

- لك ما تريدين يا حياة، فأنا لا أستطيع أن أرفض لك طلباً في مثل هذا اليوم.

وأخذت منها القلم، لكنها قبل أن توصله إلى شفتيها وضعته من جديد لتلبي نداء جرس الباب متوقعة استقبال العريس وأهله أو أحمد وعائلة عمها الذين لم يكونوا قد وصلوا من السوق بعد، لكنها استقبلت أمها وطفلاً رأته من قبل وطفلة أصغر منه تراها لأول مرة. ارتبكت ثريا وهلة، لكنها استعادت توازنها، واستقبلت أمها استقبال ضيفة رسمية. ركضت إلى أمها تحضنها، وتخبرها بحفلة خطبتها ومجيء عصام وأهله الوشيك، ثم سألتها:

- هل أنت في زيارة أقرباء زوجك مثل المرة الماضية؟

- لا، زوجي أُحيل على التقاعد، فانتقلنا وسكنا هنا من جديد... أنت كبرت يا حياة وها أنت ستتزوجين! هل ستكون حفلة خطبتك حفلة كبيرة؟

- لا، إنها حفلة عائلية.

- هل بإمكاني أن أحضر الحفلة؟

سألت أمها ذلك وهي تنظر إلى ثريا، فأطرقت ثريا إلى الأرض فعادت أمها تقول:

- هل تخجلين من حضوري الحفلة يا ثريا؟

فأجابت ثريا بصوت هادئ دون أن ترفع عينيها عن الأرض:

- لا.

- لا يهم، سأذهب إلى البيت.
غادرت

وصل أحمد مع خطيبته نسرين وعائلتها، وأعادوا معهم أجواء الفرح التي غادرت بمجيء ومغادرة أمها وطفليها. كان ما يزال يتألق رغم مرضه وفقدان نصف وزنه، وكأنه يستمد قوته من النظر إلى عيني نسرين، ومن مشاهدتها جالسة بجانب خطيبها عصام وهالة الفرح تحيط بهما، ومن السعادة التي تتألق على وجه ثريا وهي تقوم بخدمة الضيوف.
لحقت سميرة بثريا إلى المطبخ، وأغلقت الباب وهي تقول:
- اسمعي كلامي يا ثريا وقولي نعم لنحتفل بخطبتك على جمال في الأسبوع المقبل. أرجوك أن تعودي إلى صوابك وتعيشي حياتك قبل أن يفوتك قطار العمر وتندمي على هدر شبابك في انتظار شخص لن يعود... لماذا فقدت عقلك إلى هذه الدرجة يا ثريا، لماذا؟ فأخته مريم التي أنجبتها نفس البطن، وأرضعتها نفس الصدر، لم تؤجل زواجها إلى حين عودته. انظري إليها كيف تتباهى مثل الطاووس بالذهب الذي يكسيها وبسيارتها الواقفة أمام باب البناية.

كانوا يضعونها بين سندان وضعها ومطرقة حاجاتها الشخصية، ويريدون إقناعها بالزواج والإنجاب وتأسيس أسرة، غاضين النظر عن وضعها الخاص لاعتقادهم أنها تستطيع تغييره بسهولة إذا رغبت في التخلي عن ذاكرتها وقناعاتها والانضمام إلى القطيع الذي تخلّفت عنه، ألأنهم كانوا يتوقعون منها أن تحذو حذو أمها، وإن رفضوا تصرف أمها وعابوا عليها زواجها؟ ولكن كيف سيكون بمقدورها أن تترك يداً غير يد رياض تلمس جسدها وتستمتع بتقاسيمه؟ وكيف سيكون بمقدورها أن تهزهز أرجوحة طفل لا يكون رياض أباه؟ أمسكت بالقلب الذي يتدلى من رقبتها وهي تقول لزوجة عمها:
- أرجوك يا مرة عمو أن لا تعودي إلى هذا الموضوع مرة أخرى لأنني لن أتزوج إلا من رياض.
وخرجت بصينية الحلوى من المطبخ.

كانت واقفة أمام طالباتها، عندما جاءت الآنسة خديجة قبل انتهاء الحصة بقليل تخبرها أن هناك مَن ينتظرها في غرفة المعلمين. استغربت حين رأت مروان يقف مع المدير. عرَّفته بهما على أنه ابن قريتها، وخرجت معه إلى الممر قبل أن تمتلئ الغرفة بالمعلمين والمعلمات. قال:
- انظري إلى بذلتي يا حياة، أليست جميلة؟ اشتريتها في هذا الصباح، إذا وقفت بين المعلمين سيظن الجميع أنني معلم أيضاً. واشتريت أيضاً بيتاً فخماً وسأبدأ مشروعاً محترماً بالقسم المتبقي من نقودي من أجل أن أليق بك وبعائلتك.
أجابت:
- أنا أحب خطيبي ولا أريد الزواج من غيره.
وهمت بالعودة إلى غرفة المعلمين، فاعترض طريقها:
- وبماذا هو أفضل مني؟
- الزواج قسمة ونصيب....
لم يمهلها لإتمام كلامها، فقد كان لا يرغب في سماع ما لا تشتهيه أذناه:
- عندي بيت ونقود كثيرة ستعيّشنا ملوكاً طوال حياتنا.
وصل عصام في تلك اللحظة، فقد كان قد اتفق معها على تناول الغداء في المطعم، فسألها:
- هل الأستاذ زميلٌ جديدٌ لك.
- لا، إنه أخ صباح، كان في المدرسة لأمر ما وجاء يسلم علي.
فصافحه عصام مصافحة لقاء ووداع.

اختفى مروان من فكرها، ما إن غاب عن عينها.

كانت تظن أنها تلبس حبها تعويذة في رقبتها تحميها وتحصّنها من سهام العالم والناس، وتمهّد طريق السعادة أمامها، وتزيل كل العثرات منها. لم يخطر ببالها لحظة واحدة أن تعويذتها نفسها ستصاب في يوم من الأيام بداءٍ مستعصٍ على العلاج.

جاء مدير المدرسة، بعد مضي عدة أيام، يخبرها أن مروان يريد التحدث إليها، فتركت حصة الرسم في منتصفها، واتجهت إلى غرفة المعلمين حيث كان ينتظرها، وبدأت حديثها قائلة:

- لا أريد أن تزورني مرة أخرى، فأنت تسبب لي احراجاً بين زملائي وزميلاتي.

فأجاب:

- إذا التقينا في مكان آخر، فلن أزورك هنا.

حاولت التحكم بغضبها، وقالت:

- نحن لا تربطنا أية علاقة لكي نلتقي هنا أو في مكان آخر، ولن تربطنا أي علاقة في المستقبل أيضاً، لذلك توقف عن هذه المحاولات العقيمة.

قال بصوت هادئ:

- أريد أن تكوني زوجة لي، وستكونين.

فشعرت بغضبها يغلي في داخلها، وكان عليها أن تصبه عليه قبل أن يفور ويحرقها:

- إن كنت تظن أن كل الفتيات رهن إشارة من إصبعك، فأنت مخطئ. يجب أن تفهم أنني لست سلعة للبيع لتشتريها بنقودك المسروقة، ويجب أن تفهم أيضاً أنني لن أتزوجك، حتى وإن كنت غير مخطوبة ولم يبقَ رجل واحد على وجه الأرض، وأنني سأفضل العنوسة طوال حياتي على أن أكون زوجة رجل مثلك. لا تريني وجهك مرة أخرى، وإلا سأطلب من آذن المدرسة والمعلمين أن يرموك مثل الكلب إلى الشارع.

قالت دفعة واحدة كل ما أرادت قوله، وخرجت مصفقة باب غرفة المعلمين وراءها.

لبست السماء ثياب حدادها، ودنت من الأرض تسقف البيوت والأبنية. كان بياض خجول يحاول شق ثوبها كأنما بدأت الشمس تتململ في سجنها البعيد، وأخذت تصارع الغيوم القريبة لتحصل على حريتها، وتضحِك السماء من جديد وتُنسيها حزنها.
كان أحمد جاثياً على السجاد السميك الذي يكسي أرض غرفة الجلوس، ولهيب النار المشتعلة في المدفأة يشع من نافذتها الصغيرة، ويضيء وجهه وهو يصارع الألم الذي التهم أحشاءه، ورسم هالتين سوداوين حول عينيه، ولم يُبقِ من قوته سوى الضعف، ومن حيويته سوى الوهن، ومن قامته سوى الجلد والعظم. كان ينتظر ثريا إلى أن تجهز ليذهبا بالتحاليل الطبية التي أجراها قبل يومين إلى عيادة الطبيب الجديد بعد أن عجزت كل المسكّنات التي وصفها له طبيبه القديم عن تسكين ألمه لأكثر من عدة ساعات. جهزت ثريا فنزل معها من البيت، وخرجا من البناية فهاجمتهما الريح الشمالية التي كانت تجتاح الشوارع وتحرك الأشجار القليلة العارية، وركبا سيارة أجرة تحركت وقصدت عيادة الطبيب.

كانت حياة تقف أمام المرآة في غرفتها، تقلم حاجبيها استعداداً ليومها الأكبر. هرولت باتجاه الباب، عندما سمعت صوت الجرس معتقدة أن أختها أو أخاها قد عاد ليأخذ شيئاً نسيه. أسرعت إلى إغلاق الباب عندما رأت مروان، لكنه وضع قدمه بين الباب وإطاره، ودفع الباب بقوة وحشية جعلتها تتعثر إلى الوراء، ودخل وهو يقول:
- جئت لأبارك لك عرسك.
تظاهرت بوجود أخيها في غرفته، فصاحت:
- أحمد، جاءك ضيف.
- لا تتعبي نفسك، فأنا رأيت أحمد وثريا يركبان سيارة أجرة ويغادران. إنني أراقب البيت منذ سبعة أيام وأنتظر الفرصة المناسبة، وقد جاءت الآن.
- أرجوك أن تغادر.
أمسك ذراعيها بقبضتيه وهو يقول:
- الآن تقولين أرجوك؟ ألم تكوني تريدين أن ترميني إلى الشارع مثل الكلاب؟ بمن ستستقوين الآن؟ ألم أقل لك أنني أريدك أن تكوني زوجة لي وستكونين؟

استخدمت كل قوتها في فك ذراعيها، وصفعته على وجهه وهي تقول:
- أنت وضيع وحقير.
وركضت إلى المطبخ تخرج سكيناً كبيرة من الدرج، فلحق بها، وقبض على معصمها، وانتزع السكين من يدها، فأمسكت بيدها الأخرى سكيناً أخرى، والتفتت بحركة غاضبة، وهوت بها على ذراعه، فكتم صرخته وأمسك بمعصمها بقوة حيوان جريح، وراح يضغط عليه إلى أن وقعت السكين من يدها. فصرخت تستنجد بالجيران، لكنه أسرع إلى إغلاق فمها بيده كاتماً صرختها من بدايتها، وتحول إلى حيوان مفترس ينقضّ على فريسة تحاول الإفلات والهرب دون جدوى، ويمسكها بين مخالبه وقد أعماه جوعه وجرحه، فازداد وحشية فوق وحشيته، وإثارة فوق إثارته، وشراسة فوق شراسته.
تركها بعد أن شبع من لحمها ودمها، وشعر بالرضا عن قوته، وابتعد وهو يسحب سحاب بنطاله ويغلق حزامه ويقول باستخفاف:
- سأغادر بإرادتي أنا، وليس بإرادتك أنت يا آنسة حياة.
وخرج مصفقاً الباب وراءه.

لقد ضرب البرقُ عالم داخلها، فأطفأ شمسه، وأمات أزهاره بعد أن أدلق فرحته منه، كما يُدلق الماء من الدلو. جلست على أطلال نفسها فاقدة عذريتها، وصدى صوت قريب يقرع رأسها: «أريد أن تكوني زوجة لي، وستكونين»، وصدى صوت بعيد «يا بنت العاهرة». استحت من الجدران التي شاهدت عريها، فتمنت أن تقفز نار المدفأة من النافذة الصغيرة لتحرق ما تبقى منها، وتحولها إلى رمادٍ تحمله ريح هوجاء، وتبعثره أينما حلت، لا إلى رمادٍ يوضع في جرة فخارية ويُحتفظ به ذكرى، أو يُنثَر في مكان أحبتهُ أثناء حياتها ليتحول مزاراً لأحبائها.
قامت منكسرة الذات بعد أن تشظت أحلامها في قلبها، وتناثرت هباءً أعمى بصرها وملأ رئتيها حتى الاختناق.
وأمسكت بالسكين الملقاة على الأرض، ووضعت رأسها على معدتها، وضغطتها، فخانتها يدها، فسجدت على الأرض تجهش بالبكاء، وتلعن مروان وأخته صباح، وتشتم نفسها على جبنها في إنهاء جسدها وإلحاقه بروحها التي ماتت ما إن وضع مروان يده القذرة فوق جسدها.
ودت أن تهرب من الوحوش البشرية التي تلبس جلوداً حربائية، وتخفي أنياباً تحت أسنان نظيفة ومخالب تحت أظافر مقملة بعناية، وتخلع جلودها في وقت يناسبها، وتكشر عن أنيابها، وتخرج مخالبها وتنشبها في لحم فريسة غافلة وتلتهمها دون رحمة. ودت أن تهرب إلى برارٍ بعيدة وتعيش مع وحوش حقيقية ربما ترحمها، ولا تأكلها لحماً وترميها عظماً. لأول مرة كرهت جمالها، واحتقرت أنوثتها، وشعرت بالغثيان من جسدها، فدخلت الحمام، وبقيت فيه دهراً تحاول تطهير نفسها بدموع عينيها وبمياه الصنابير دون جدوى.

كان الطبيب في العيادة يحاول اكتشاف علة أحمد بإرسال كاميرا صغيرة عبر فمه إلى معدته التي ثارت وقامت بانقلاب عليه، ويراقب ما تصوره الكاميرا على شاشة الكمبيوتر. وبعد أن أنهى هذا الفحص الطبي، أنعم النظر في نتيجة التحاليل، ثم كتب وصفة طبية، وقال لأحمد:
- اذهب لشراء هذا الدواء من الصيدلية.
وقال لثريا عند خرج أحمد من العيادة:
- تفضلي بالجلوس.
جلست ثريا على طرف الكرسي، وشابكت أصابع يديها بعضها مع بعض وهي تنظر إلى الطبيب الذي قال:
- إنني أمارس هذه المهنة منذ خمسة وعشرين عاماً، وما أزال أجد تبليغ أهالي المرضى بمثل هذا الخبر من أصعب الأمور.
فدق قلبها في حلقها، وشعرت بدمها يخرق قانون الجاذبية الأرضية ويتدفق من أسفل جسمها إلى صدغيها وهي تنظر بعيون وجلة وشفاه مختلجة إلى وجه الطبيب.
- آسف أن أقول لك أن لديه سرطان.
شعرت بدمها ينزل فجأة، ويهرب من جسدها ساحباً وراءه وعيها، فوقع رأسها على صدرها، وأغلقت عيناها بابهما، وأسندت يداها جبينها وهي ترى عالمها ينهار أمام عينيها المغلقتين. رفعت رأسها فجأة وقالت:
- ستعالجه، وسيشفى ويعود كما كان وأفضل، أليس كذلك؟
- لو كان السرطان في مراحله الأولى، لاستطعت استئصال الجزء المريض من معدته، لكنه للأسف منتشر في جسمه كله، ولن يفيده أي علاج.

فقدت السيطرة على نفسها وعقلها، فجثت على ركبتيها تقبّل يد الطبيب، وتتوسل إليه أن ينقذ أخاها، وتعده بأنها ستبيع كل شيء وتدفع له ثمن العلاج، وإن لم يكفِ ستنزل إلى الأسواق وتدق الأبواب لتتسول الباقي، وإن لم يكفِ ستدفع له عمرها مقابل شراء صحة أخيها. ثم سجدت على أرض العيادة تتوسل إلى الله أن يبقيه لها وأن يُنزل حلاً

من السماء، فهي تحتاجه، تحتاج الذي لم يفرح بشهادته بعد، تحتاج الذي لم يفرح بخطيبته بعد، تحتاج الذي لم يفرح بشبابه بعد.
رفعها الطبيب، وأجلسها على الكرسي وهو يحاول تهدئتها وإقناعها بقدَره:
- إنك بتصرفك هذا لن تفيديه بشيء وإنما ستزيدين من آلامه التي هو بغنى عنها. إن كنت تحبينه فعلاً فيجب أن تخلقي له أسباب الراحة ليعيش الأسابيع الباقية من عمره بمعاناة أقل.
- سآخذه إلى طبيب آخر.
- حتى وإن أخذته إلى أطباء أوروبا سيقولون لك ما قلته لك أنا. أنصحك بأن لا تصرفي نقودك وطاقتك في زيارة الأطباء.

خرجت حياة من الحمام وهي تشعر بأن قذارة العالم كلها ما تزال عالقة بجسدها وروحها، وتبكي عذريتها الضائعة مجاناً. حضنت لعبتها أحلامها بين ذراعيها، وكومت نفسها على السرير بشعور مَن وقع في مستنقع قذر، وغطته الأوحال والأشنة اللزجة من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وعبرت مساماته وخلاياه ولحمه ودمه، ووصلت إلى روحه ولوثتها.
أرادت أن تختبئ في صدر أختها ثريا التي جلست على السرير وقد احترقت في نار مصيبتها، وانتثر رمادها في بحار دموعها المنتظرة أنهار دموع أختها الصغرى دون أن تدرك تلك الأنهار انتظار البحار لها، فتسيل على سهول خدّي حياة وطرقات روحها الوعرة دون أن تجد مصباً يحتويها ويأخذها في حضنه.

قبرت حياة رأسها في حضن ثريا التي لفّت ذراعيها حول رأس أختها الصغرى، وبكتا معاً بحرقة جديدة وبألم طازج بكاءً لم تبكياه من قبل وبانكسار لم تعرفانه من قبل. كانت ثريا تبكي أخاها وهو يصارع الموت في ربيع عمره دون أن يعرف أن سراديب القبور تنتظره لتجعل من جسده اليافع وجبة شهية لديدانها، تبكي عمرها الضائع وحبيبها التائه في متاهات الدنيا، تبكي أباها الذي رحل رحيلاً لا عودة بعده، وأمها التي هجرت حياتهم هجرة لا رجوع بعدها، تبكي تشردهم على عتبات البيوت في زمن مضى ووحدتها بعد أخيها في زمن قادم، ولا تعرف ما حدث لأختها حياة بعد أن تركتها وحدها في البيت، وتظن أنها تبكي حزناً على فراقها وفراق أخيها المشاكس. وكانت حياة تبكي عذريتها المسلوبة إلى الأبد وأحلامها المتناثرة فوق رأسها هباءً منثوراً بعد أن تشظت في لحظة حمقاء، تبكي مصيبتها وأيامها الماضية والقادمة، وتظن أن أختها ثريا تبكي حزناً على بقائها وحيدة في هذه الغرفة ونومها على هذا السرير من دونها، ولا تعرف ما أخبرها الطبيب عن موت أخيهما الوشيك.
كانت كل منهما تهرب من رعب الكوابيس النهارية إلى حضن الأخرى باحثة عن الأمان المفقود. بكتا إلى أن جفت دموعهما، وهدَّهما الشقاء، وعطف عليهما النوم وأدخلهما عالمه وإحداهما تلف الأخرى.

كان أخوهما أحمد المصاب بداء مستعصٍ على العلاج يرقد في غرفته مستنزف القوى، يصارع ألمه ولا يعرف أنه يصارع موته في أيام كان من المتوقع أن تفتح له الدنيا ذراعيها، وتأخذه في حضنها، وتباركه برعايتها، بدلاً من أن تدير له ظهرها، وتحول سريره إلى تابوت يضمه، وتحول البيت إلى تابوت أكبر يضم ثلاثتهم.

امتلأ البيت بالأقرباء ينتظرون العريس وأقرباءه. استعاد أحمد بعضاً من قوته بعد أن تناول مسكنات من عيار ثقيل وصفها له طبيبه الأخير. عاشت حياة منذ لحظة مصيبتها تردداً وألماً لم تعشهما من قبل، وأسئلة تطرق رأسها، وأجوبة تمد لها ألسنتها أشباحاً مخيفة، تريد أن تخبر أحداً بمصيبتها وتخاف من أن تحدث مصيبة أكبر: إن أخبرت أحمد سيقتله ويذوي خلف القضبان، وإن أخبرت ثريا ستضيف ألماً جديداً إلى آلامها دون أن تقدر على إعادة الساعة إلى الوراء وتغيير ما حدث. اتصلت بعصام مرات ومرات دون أن تحصل على جواب.

كانت ثريا تخبئ ألمها لكي لا تعكر فرحة أختها وتحول عرسها إلى مأتم، لكن الجدران بدأت تضيق عليها وتضغط على أنفاسها وتكاد تخنقها، فقررت أن تفتح قلبها لشخص يحمل معها ولو جزءاً بسيطاً من العبء الذي يهدُّ كاهلها، فدعت عمها إلى غرفتها، وأغلقت الباب. جلست قبالته، أمالت رأسها، ونظرت في حضنها، وأخذت تطوي محرمة ورقية كانت في يدها ثم تفردها وتطويها من جديد، وساقها اليمنى ترتجف تحتها دون توقف وهي تحاول الكلام ولا تجد الكلمات المناسبة. تحولت نظرتها من حضنها إلى بقعة على الأرض بجانب حذاء عمها، وبقيت تحدق في تلك البقعة طويلاً، وكأنها تحاول قراءة مقدمة مكتوبة تزيغ كلماتها وتهرب إلى أن بدأ عمها يتململ قلقاً. بدأت تفتت المحرمة الورقية، عندما حاولت الإمساك بالكلمات الهاربة، فخرج صوتها صدى لألم عميق:
- أحمد لديه سرطان.

إن ثقل الكلمات القليلة التي حطت على قلب عمها جعل لون وجهه يمتقع ونظرته تتحجر، وكأنه تلقى ضربة قوية على خلفية رأسه، لكنه استفاق سريعاً وقال:
- سنعالجه عند أحسن الأطباء، وسنأخذه إلى أوروبا وإلى آخر العالم إن تطلب الأمر ذلك.
- إنه منتشر. أحمد سيموت يا عمي، سيموت.
قالت ثريا ذلك وهي تجهش بالبكاء وتجثو أمامه وتضع رأسها على ركبتيه، غير مدركة أن أختها العروس تسمعها.
- أنت تكذبين، أحمد لن يموت.
صرخت حياة وقد تملكها الجنون، هي التي تمنت الموت فزار أخاها، هي التي استحقت حكم الإعدام فنزل بأخيها.
لقد انفجر بركان آلامها وهاج غير ناوٍ على الركود إلى أن يحرقها بحممه وهي تكرر:
- أي جريمة اقترفنا لنستحق هذا العقاب؟ أي جريمة اقترفنا لنستحق هذا العقاب؟
استدعى صراخها الحضور إلى الغرفة، فأعادهم العم طاهر إلى حيث كانوا، وأغلق الباب خلفه.

تهاوت حياة على ركبتيها، وخبأت وجهها في السرير. أبعدت يد ثريا المواسية عن كتفها بحركة عصبية نزقة دون أن تتمكن كل الدموع التي أهطلتها عيناها من جرف ألمها. رفعت رأسها فجأة بعد برهة من الزمن تحدق أمامها بعينين حمراوين، وكأنها تتحدى شخصاً ظهر من العدم وتقول له:
- سألغي عرسي.
- هدِّئي من روعك يا أختي. إن أهل عصام في الطريق إلينا، ولا يمكن أن تلغي عرسك الآن.
- قلت لك لن أتزوج، لن أتزوج، لن أتزوج.... حان الوقت لأن نواجه أنفسنا بشجاعة ونعترف بأننا خُلقنا للحرمان فقط، للحرمان فقط. ألم نُحرم من أبينا وأمنا؟ ألن نُحرم من أخينا بعد قليل؟ ألم تُحرمي من حبيبك، وعشت، وتعيشين في انتظار أبدي؟ ألم أُحرم أنا من نقائي؟
فسألت ثريا برعب:
- كيف حُرمت من نقائك؟

ضربت حياة بسؤال ثريا عرض الحائط، وأكملت أن عليها أن تقبل بشقائها وتتعايش معه:
- ألم تطلبي مني على مرِّ السنوات أن أتأقلم مع ظروفي؟ وها أنا سأطيعك الآن، وأتأقلم مع فجيعتي، وأعلن على الملأ أن لا أعراس ولا أفراح من الآن فصاعداً.
ضمتها ثريا إلى حضنها وأغلقت فمها بصدرها الذي تحول إلى بركة تجمع الدموع الهاطلة وتبتلعها في جوفها وهي تهمس:
- أرجوك يا أختي أن تهدأي، أرجوك أن لا تشعري أحمد بموته الوشيك.

فتح أحمد الباب وقال:
- ما بالك تبكين هذا البكاء يا صغيرتي؟ فهذا يوم يجب أن تفرحي فيه لا أن تبكي.
رفعت حياة عينيها المغرورقتين إليه، فرأت موته ومصيبتها في عينيه، فقالت:
- لا أريد الزواج.
فقال أحمد مازحاً:
- ستبقين طفلة ولو أنجبت عشرين طفلاً! هل تظنين أن كل الأمور مثل لعبتك أحلام، تلعبين بها وقت تريدين، وترمينها وقت تملين؟
وضعت رأسها على صدره الهزيل متمنية أن تسحب السرطان من جسده، وتنشره في جسدها وهمست:
- أنا خائفة.
طوق رأسها بيديه النحيلتين والدموع تلمع في عينيه:
- لا داعي إلى الخوف ياحياة، عصام يحبك. هيا جهزي نفسك قبل أن يصل عريسك وأهله.

أطاعته وهي ممتلئة بالضياع والانكسار.

قادت ثريا أحمد إلى غرفته بعد أن عادوا من حفلة زفاف حياة وعصام. قبلته من جبينه بعد أن استلقى في سريره، وقالت له:
- سآخذ غداً إجازة من دون راتب لكي أعتني بك إلى أن تشفى، ولكن يجب عليك أن تعدني أنت أيضاً بأن تعتني بي عناية جيدة بعد أن تتماثل للشفاء بإذن الله.
وعقفت خنصرها، فأمضى وعده ببصمة خنصره.

صُدمت نسرين صدمة كبيرة حين سمعت خبر مرض أحمد وموته الوشيك، لكنها استفاقت من صدمتها سريعاً وقالت لثريا:
- يجب أن أتزوجه يا ثريا. أرجوك أن تكلمي أبي ليسمح لي بالزواج منه وتحقيق حلمي الذي لازمني منذ أن كنت صغيرة، فأنا أحببته عندما لم أكن أعرف معنى الحب. أريد أن أتزوجه ولا يهمني إن كان زواجنا سيدوم شهراً، أو يوماً، أو حتى مجرد ساعة واحدة، فهو سيكفي ليمدَّ روحي بغذاء أقتات منه، كلما هاجمني الحنين إليه.
- فكري جيداً يا نسرين، لا أريدك أن تتخذي قراراً قد تندمين عليه في المستقبل، وليس من الضروري أن تكوني زوجته لكي تساعديه وتكوني بجانبه.
- لكنني أريد أن أكون زوجته، أرجوك يا ثريا أن تكلمي أبي في هذا الأمر.
- سأكلمه غداً.
- لا يا ثريا، اذهبي إليه الآن، فلم يعد في الوقت متسع.
- إن الوقت متأخر يا نسرين، ومن الجائز أن يكون نائماً.
- أعرف أنه غير نائم، أرجوك يا ثريا اذهبي إليه الآن.
فذهبت ثريا إلى الغرفة التي اعتاد عمها أن ينام فيها عندما كان يقضي ليلة في الأسبوع عندهم، وأخبرته برغبة ابنته، فتدخلت زوجة عمها قبل أن يجيب زوجها:
- الحمد لله على أننا اكتشفنا مرضه ونحن ما نزال على البر، وأنت تقولين أن نسرين تريد أن تتزوجه! نسرين ما زالت صغيرة، ولا تفقه ما تقول تحت تأثير صدمتها.
وقالت لابنتها في الصباح التالي:

- جهزي نفسك يا نسرين لتذهبي معنا إلى القرية.
- أنا عندي دوام في الكلية ولا أستطيع أن أذهب إلى القرية.
- وأنا أقول جهزي نفسك.

لملمت ثريا أطباق الفطور وأخذتها إلى المطبخ، ثم نادت زوجة عمها إلى هناك، وقالت لها:
- أرجوك يا مرة عمي، اتركي نسرين تذهب إلى كليتها ولا تحرميها من دراستها.
- أنا أعرف طيش ابنتي وعنادها أكثر من أي شخص آخر، وأنا لن أسمح لها بأن تهدر شبابها وهي ما زالت في أول عمرها. سأمنعها من ذلك بكل الوسائل، حتى ولو بإضاعة سنة من دراستها.

دخل العم طاهر المطبخ وقال لزوجته:
- اتركي نسرين وشأنها يا سميرة.
فاهتاجت من هذا الكلام، فنفشت ريشها مثل دجاجة تستعد للهجوم على من سيلحق الأذى بصغارها، وأخذت وضعية الدفاع والاستبسال حتى الموت، مهددة بالهلاك لكل من يتجاوز الخط الأحمر:
- هل يعجبك أن تتزوج ابنتك رجلاً على سرير الموت، وتعيش بقية عمرها أرملة؟! فليذهب الحب إلى الجحيم، إن كان سيسبب شقاء ابنتي.

ظنت ثريا أنها شاهدت طيف أخيها بجانب الباب، فخرجت خائفة من أن يكون ظنها في محله. لم تره فاطمأنت، وأغلقت الباب، وقالت لزوجة عمها:
- أنا أعدك بأنني سأمنع زواجهما بكل الوسائل، وأعدك بأنني لن أتركهما وحدهما أبداً إن جاءت لزيارته. أتوسل إليك يا مرة عمي أن لا تضيفي عذاباً جديداً لعذابات أخي بحرمانه من رؤية خطيبته.
- طيب، سأتركها على شرط واحد وهو أن لا تسمحي لها بالنوم هنا في البيت وأن لا تتركيهما وحدهما قط. أنا أحمّلك مسؤولية أي مكروه يحدث لابنتي يا ثريا، ولا تعرفين ما سأفعله إن تزوجته.

خرج الجميع بعضهم مع بعض. كان العم طاهر وعائلته سيذهبون إلى القرية، وثريا إلى عملها في مكتب المحاماة، ونسرين إلى غرفتها في المدينة الجامعية. ركبت نسرين باص النقل العام، وراقبت والدها وعائلته يركبون سيارة أجرة، وثريا تركب سيارة أجرة أخرى. لقد أعقبت السيارتين بعينيها إلى أن اختفتا في زاوية الشارع، فنزلت من الباص في الموقف التالي، ورجعت أدراجها إلى البيت.
قال أحمد عندما فتح لها الباب:
- أنا فرح بعودتك يا نسرين، فأنت ستؤنسين وحدتي وتطردين مللي من المكوث في البيت والاستلقاء في السرير.
وأكمل عندما جلست قبالته على الكنبة الأخرى:
- أشعر بأنني مصاب بمرض خطير. أيمكن لمرض في المري أو المعدة أن يسبب كل هذا الألم وكل هذا الهزال؟
فأجابت نسرين بسؤال وهي تقوم من مكانها، وتجلس بجانبه، وتضع يدها على ركبته:
- هل أقترح عليك دواءً يشفيك مباشرة؟
فأجاب وهو يضع يده فوق يدها:
- إليَّ به يا نسرين.
أدنت وجهها من وجهه وهي تقول:
- يجب أن تدفع لي قبلة على الحساب ثمناً لدوائي العجيب.

قبّلها من خدها وقد عقد الاستغراب لسانه، فهي اعتادت أن تخرج روحه إلى أن يخطف منها قبلة أو عناقاً، ثم سألها عن اسم الدواء، لكنها لم تجب بأية كلمة فهي لم ترضَ عن قبلة الخد، فقد هزت رأسها علامة عدم الرضا وهي تشير بإصبعها إلى شفتيها.
- أنا لا أصدق عينيّ يا نسرين. أرجوك، قولي ما تريدينه بالكلام!
لكنها بقيت تشير بإصبعها إلى فمها، وتغلق عينيها، وتقرّب شفتيها من شفتيه. وقالت بعد أن حصلت على ما تريد:
- الدواء الشافي هو أن تنزل معي إلى أقرب مأذون وتتزوجني، أريد أن ندخل السعادة إلى قلوب الجميع بمفاجأة زواجنا، فأنت تعرف أنني صاحبة نزوات، وقد أخبرتني نزوة من نزواتي أن أقلد حياة وأتزوج بعد أن اكتشفت أنني لا أستطيع الصبر أكثر من هذا، وأريد أن أحمل اسمك، وأنام في حضنك.
وقامت من مكانها وهي تشده من يده:
- تعال معي بسرعة لتكون ثريا أول من نفاجئها عند عودتها.

بقي صامتاً لا يحرك ساكناً، فقد تأكد من الشعور الذي ظل يراوده منذ الصباح. فقال غائباً بعد برهة طويلة من الزمن:
- كانت أمك تقصدني أنا، أليس كذلك؟ الرجل على سرير الموت، وابنتها التي ستعيش بقية عمرها أرملة.
راوده الشك منذ اللحظة التي سمع فيها زوجة عمه تقول ذلك في المطبخ، وقطع طلب نسرين شكه باليقين، وتأكد من أن زوجة عمه كانت تقصده وتقصدها، فسأل:
- كم بقي لي؟
لم تجب نسرين على سؤاله وإنما قالت:
- أرجوك يا أحمد، يجب أن تكون أقوى من المرض ويجب أن تغلبه من أجلي. عاهدني بأننا سنتزوج، وننجب أطفالاً، ونعيش معاً سنوات طويلة.
- عودي إلى غرفتك في المدينة الجامعية.
قال ذلك، واتجه إلى غرفته وهو يفكر في أنه يدير ظهره لعروسه، ويمضي في طريق لم يخترها، وإنما وجد نفسه على بدايتها على حين فجأة. لاح له عبر غبش عينيه ابتسامة من أحب وحلم بها سيدة منزله وحياته، فارتسمت ابتسامة حزينة على ثغره الجاف سرعان ما توارت عندما تشكل وجه مخيف من ذرات الهواء. فها هو سيلبي النداء الذي تناهى إلى أذنيه قبل أن يحقق حلمه بأن يصبح رجلاً يأخذ أختين يتيمتين تحت جناحه إلى أن يسلمهما مثل كنزين ثمينين إلى زوجيهما، ويصبح خالاً لأولاد يلهون حوله ومعه.

بآمال ماتت فجأة تهاوى على سريره كأنما يتهاوى في تابوت سيُغلق ويحمل إلى مقبرة القرية، فتصور نفسه راقداً بجانب والده الذي سبقه في تلبية نفس النداء، وتذكر يوماً بعيداً عندما أركبه والده على المقعد الخلفي لدراجته، ومشى بها على الطريق الصخرية وهو يمسك المقود وينصحه بأن يبعد رجليه عن سياخ الدولاب، وعندما نسي نصيحة أبيه عند مطب على الطريق وهو يحاول المحافظة على توازنه، أطبقت السياخ فكيها على قدمه التي بكت دماً، وبكت عيناه دمعاً وهو يصرخ بأعلى صوته، بينما أبوه يُعقم جرحه ويربط قدمه.

لم يسمع صوت الباب يُفتح. التفت على صوت نسرين، فرآها واقفة بجانب سريره عارية من ملابسها وتقول:
- أريد أن أمنحك جسدي وروحي، فأريد أن أكون زوجتك، عشيقتك، حبيبتك، لك أن تختار الاسم الذي يعجبك.
فقام من سريره، والتقط قميصها الملقى على الكرسي وغطاها به متجنباً النظر في عينيها وجسدها، وقال:
- البسي ثيابك يا نسرين.

وترك الغرفة دون أن تتركه أيام الماضي البعيد، عندما كان الأهل يفرحون بكلام نسرين البريء، ويسألونها «من يكون هذا الصبي؟» فتجيب: «إنه زوجي» دون أن تدرك معنى هذه الكلمة، فأصبحت منذ ذلك الوقت جزءاً منه يدافع عنها، ويحميها، ويرعاها. كان يلعبان معاً؛ يبنيان بيتاً من حجارة صغيرة، ويدشنانه على أنه بيتهما، ويلعبان لعبة العرس فيصبح العريس وهي العروس، فيلبسها إسوارة وخاتماً وطوقاً صنعهم من أعشاب وأزهار برية، ويجلس أحدهما بجانب الآخر متظاهرين بوقار العريس والعروس، ويراقبان رفاق اللعب ورقصهم وتصفيقهم وغناءهم احتفالاً بعرسهما. وبعد انتهاء العرس كان يفترش الأرض بجانبها، ويحكي لها حكايات، أو يستمع معها إلى حكاية حلمهما وسط زقزقة العصافير وركض رفاق اللعب.

- هل ترفضني؟ سألت نسرين بعد أن لبست ثيابها، ولحقت به إلى غرفة الجلوس وجلست بجانبه على الكنبة.

فتحت ثريا الباب قبل أن يجيب على سؤالها. كانت ثريا قد أخذت إجازة من عملها من دون راتب بضعة أسابيع.
أخرجت من حقيبتها شهادة أحمد التي حصل عليها قبل بضعة أشهر، وقد أطرتها في طريق عودتها بإطار خشبي.
أزالت لوحة الشروق على البحر التي لم تعرف مكاناً غيره منذ أن علقها والدها عندما جاء عريساً مع عروسه وسكن هذا البيت، وعلقت شهادة أخيها مكان اللوحة.
ثم تظاهرت بالجوع وقالت لنسرين:
- تعالي معي إلى المطبخ لتساعديني في تحضير الغداء.
وأغلقت باب المطبخ وراءهما، وقالت لها عاتبة أشد العتاب:
- ألم تسمعي ما قالته أمك في الصباح؟ هل نحن في حاجة إلى مشاكل جديدة يا نسرين؟
- من الممكن أن أتفهم موقف أمي يا ثريا، فهي لم تجرب شعور الحب، لكنني لا أستطيع أن أتفهم وأقبل موقفك أنت، أنت التي تعرفين معنى الحب والألم... آه، لو يجعلني زوجته ليلة واحدة أو حتى مجرد ساعة واحدة، لو يدعني أعتني به وأخدمه، لكنت أسعد إنسانة على وجه الأرض.
- أرجوك يا نسرين أن تتصرفي بشكل طبيعي لئلا يعيش أيامه الباقية مع شبح الموت ورعبه.
فتح أحمد باب المطبخ في تلك اللحظة وهو يقول:
- لا داعي أن تخبئي عليّ أكثر من هذا يا ثريا، فأنا أعرف كل شيء وأنا راضٍ بقدري.
فتهاوت ثريا على الأرض، وانفجرت بالبكاء. فقرفص بجانبها، ووضع يده على كتفها يواسيها:
- لا أزعل لأنني سأموت يا ثريا، بل لأنني سأتركك قبل أن أسلمك إلى زوجك وأطمئن عليك، مثلما اطمأننت على حياة.

بقي الليل يشن حربه على عصام الجالس على كنبة غرفة الجلوس، وبقي صخب الريح يثقب قلبه ويمتزج بصخب عواطفه. أغلق عينيه علّ النوم يخطفه، وينسيه غدر عروسه الجالسة على بعد أمتار منه، ولا يستطيع الاقتراب منها بعد أن أصابته بسهم خيانتها. كان يودّ أن تنتهي ليلته، ويأتي النهار ليعيدها إلى بيت أهلها، ويعود هو إلى بيته ليجتر آلامه، ويعيش حياة من دون حياة، مغترباً عن كل شي حتى عن نفسه، فاقداً الثقة بكل الناس، الأعداء منهم والأحباء، فكلماتها القليلة ما زالت توخز قلبه في كل ثانية منذ مساء الأمس، وستبقى تطعن روحه إلى آخر ساعة في عمره.
سمع صوتاً في داخله يسأل: «ولكن ألا يمكن أن تكون صادقة فيما قالت؟» لكنه فتح عينيه قبل أن يجيب على السؤال، وقام من مكانه مصمماً على تنفيذ قراره مباشرة، فهو لا يستطيع انتظار الصباح خوفاً من أن يهزمه حبه لها، ويجعله يضعف، ويعدل عن قراره. اتجه إلى حيث تجلس حياة، وقال لها:

- اذهبي إلى غرفة الصبيان.
ذهبت إلى غرفة الصبيان التي كان قد أثثها بالأزرق لأولادهما في المستقبل.
- افتحي درج الخزانة.
فتحت درج الخزانة.
- أخرجي الدفتر وشقي صفحة منه، وخذي القلم أيضاً.
أخرجت الدفتر الذي كان قد اشتراه لها لتكتب فيه لجنينها عندما تحبل منه. وشقت صفحة بيضاء، وأمسكت بالقلم بيدها الأخرى.
- تعالي.
عادت إلى غرفة النوم.
- اجلسي أمام خزانتك.
جلست أمام خزانتها الواطئة، لم تنظر في المرآة لكي لا تبصق على نفسها.
- اكتبي كل شيء عن علاقتك بعشيقك، واكتبي خاصة كم مرة ذهبت إلى بيته، وكم مرة دخلت سريره. اكتبي الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة. وإذا انتهيت، اتركي الورقة والقلم مكانهما على الخزانة، والبسي ثيابك لأنني سأوصلك إلى بيت أهلك الآن، وأعدُّ أنني لم أعرفك في يوم من الأيام.
قال ذلك وخرج إلى غرفة الجلوس دون أن ينتبه إلى هيجان العاصفة في الخارج، فعواصف داخله كانت أكثر هيجاناً.
كتبت:
«أول البارحة اغتصبني مروان غصباً عني. كان يلاحقني منذ مدة، ويصر على أن أتزوجه. حاولت أن أزيحه عن طريقي بكل السبل، لكنني لم أفلح. أقسم بالله العظيم أنه لم يلمسني برضائي رجل غيرك.»

أخبرت عريسها أنها أنهت كتابة قصتها وهي تتذكر عندما أتت معه قبل العرس بأسبوعين لترى هذا البيت وتعطي انطباعها عنه. لقد أراها عصام غرفة الجلوس والمطبخ والغرف الأخرى، وعندما وصل معها إلى باب غرفة النوم، وقف بجانبها وهو يقول:
- سأذهب غداً لشراء غرفة نوم بيضاء كما تحلمين.
ولفَّ ذراعيه فجأة حول خصرها، وأدارها في حضنه، ووضع شفتيه على شفتيها. فشعرت بأنفاسه تختلط بأنفاسها، وبيديه تمسحان ظهرها، وبصدره يضغط صدرها. كانت تلك هي المرة الأولى التي يحضنها رجل بتلك الطريقة، ويُسري شعوراً غريباً عبر كيانها وخدراً من نوع خاص كاد يدخلها عالم الإغماء، حتى لقد فكرت فيما بعد: «إن كانت مجرد قبلة أشعرتها بتلك النشوة، فكيف ستشعر إذن عندما تستلقي بين ذراعيه على مثل ذلك السرير؟» أبعدته برفق وهي تحاول كبت رغبتها وتقول:
- وعدتني بأنك لن تلمسني يا عصام.
- أنا آسف جداً يا حياة، صدقيني أنني لم أكن أنوي ذلك، لكنني لم أستطع مقاومة نفسي في لحظة من اللحظات. سأذهب إلى المطبخ لأعدُّ القهوة.
قال ذلك وأسرع خطاه باتجاه المطبخ. فقالت وهي تلحق به:
- لا، أنا سأعدُّها.

فتحت حقيبة ملابسها، فهي لم تكن قد رتبت ثيابها في الخزانة بعد. أخرجت فستانها الأسود، ووضعته على حافة السرير، وخلعت قميص نومها. دخل غرفة النوم في تلك اللحظة، ورآها تنحني على فستانها، فأسرع بالرجوع إلى الوراء خشية أن يضعف من رؤيتها وهي نصف عارية. عاد بعد مضي من الوقت وهو يتجنب النظر إليها. أمسك بالورقة، وطواها مرات عديدة، وثبتها بين القلم ونتوئه، ووضعهما في جيب بنطاله. ثم اتجه إلى غرفة الجلوس من

جديد، وفتح باب الشرفة، فترنح إلى الوراء من مهاجمة الريح له، لكنه عاد ووقف بثبات في الباب المفتوح، وحدق في سواد الليل كأنما يتحداه ويخبره أنه سينفّذ قراره رغم مكوثه، ثم صفق الباب في وجه الريح، وعاد ووقف في انتظارها عند الباب الخارجي.

خرجا من البيت. كان المطر يهطل بغزارة، وكانت الريح تعوي وتأرجح الأشجار وتحولها إلى أشباح مخيفة. شقا طريقهما وسط عتمة مدّلهمة تغطي الدنيا، والريح تهاجمهما من كل الاتجاهات كأنما تريد تعريتهما من ثيابهما. دخل سيارة أجرة وحيدة منتظرة زبائن الليل بجانب الرصيف، وجلس على المقعد الأمامي، وأمر السائق بعد أن أخذت هي مكانها في المقعد الخلفي بإيصالهما إلى مقصدهما.

انتفضت ثريا من نومها، عندما سمعت جرس الباب بعد منتصف الليل، فقد حدست بسماع مصيبة من القادم، فذلك الوقت لم يكن الوقت الذي يذهب فيه الناس لزيارة بعضهم بعضاً. فأسرعت إلى القيام من سريرها وهي تفكر في جميع المسنين والمرضى في محيطها، وتسأل نفسها: «مَن منهم انتقل إلى رحمة الله؟» عرفت أن أحمد كان مستيقظاً من الألم قبل أن يتناهى رنين الجرس إلى أذنيه، عندما رأته يسبقها إلى فتح الباب.

قرأ أحمد الورقة التي كتبتها حياة قبل قليل وهو يشعر بيد خفية تدلق قدر ماء مغلي فوق رأسه، فهاجمته فكرة متوحشة أنسته ألمه المتوحش وموته الوشيك.
سألته ثريا بقلب مرتجف عما قرأ، لكنها لم تحصل على أي جواب، وكأن صوتها لم يستطع اختراق أذنيه، فانتزعت الورقة من يده، فتسمّرت نظرتها على الكلمات القليلة وهي تتذكر حياة عندما اهتاجت يوم الأمس، عندما سمعت بخبر موت أحمد الوشيك، ثم ألحت على إلغاء عرسها وسألت سؤالاً وراء سؤال بهستيريا لم تعهدها فيها من قبل إلى أن سألت: «ألم أُحرم من نقائي؟» كيف أعمتها مصيبتها بأخيها عن الاستفسار عما قالته أختها، وأصمّتها عن سماعه؟

قال أحمد لعصام:
- أنا آسف جداً عما تسببت لك أختي من عذاب، وأرجوك أن تعذرني لأنني لم أعرف بعارها قبل أن تلوثك أنت أيضاً هذه اللطخة المستعصية على الزوال.

دخلت حياة غرفتها. أخرجت لعبتها أحلام من حقيبتها وعصرتها بين ساعديها، وتهاوت على السرير وهي تتكلم من دون صوت: «كفي أيتها الريح عن نواحك ولا تضيفي أوجاعاً إلى أوجاعي، كفي عن ندائك، فأنا لن أنوح مع نواحك، ولن أمتطي جناحيك لتحمليني إلى حيثما تشائين. وأنت أيها الضوء توقف عن شن حربك عليَّ وانطفئ لتمحي العتمة ملامحي وتبددني، كأنني لم آتِ ولم أعش في هذه الدنيا. وأنت أيها السرير تحول إلى نعش يخفيني في ظلمته ولتدخل الريح حينها، وتحمله إلى جزيرة بعيدة، وترميني مضغة سائغة للحيوانات المفترسة».
بقيت تعصر لعبتها أحلام إلى أن خطفها النوم، فراودها الحلم الذي رأته في ليلة من ليالي طفولتها دون أن تستطيع إكماله حينها، ويئست من استدعاءه فيما بعد (الحلم الذي كانت تتحول فيه إلى نحلة برتقالية منقطة بالأسود، وتقف على تويجة زهرة بيضاء وهي ترغب في الطيران إلى رفيقاتها اللاتي كن قد غادرن الخلية قبلها، ولم تستطع) لقد أنجزت أخيراً ما لم تنجزه حينها: فقد حملتها أجنحتها إلى رفيقاتها المحلقات في السماء والسابحات في أشعة الشمس الوهاجة، وانضمت إليهن، وطارت معهن في درب ذهبي باتجاه الجبال البعيدة.

ظنت أنها سمعت صوتاً يناديها، ففتحت عينيها وهي تتذكر صوت أمها الذي أيقظها من نومها في ذلك الصباح البعيد وقطع عليها حلمها حينذاك، لكنها لم تستطع رؤية أي شيء بسبب الضوء الذهبي الذي ما يزال يغشي بصرها ويجلب ربيعاً إلى قلبها على غفلة من فصلها الشتوي، فأطرفت عينيها مرات عديدة، فعاد شتاؤها إلى قلبها وهاجمت عتمته الضوء المبهر وابتلعته في جوفها، فرأت ثريا جالسة بجانبها وتقول لها:
- أحمد يريدنا أن نذهب معه إلى القرية.

ذهب ثلاثتهم إلى القرية دون أن ينبس أي منهم بكلمة واحدة. وصلوا بعد الظهر إلى الباب الذي طالما دخلوا وخرجوا منه.
فتح أحمد بمفتاحه، وترك الباب موارباً. استدار إلى أخته حياة التي كانت تحضن لعبتها أحلام إلى صدرها، فتكورت الدموع في عينيه وتدحرجت على خديه وهو يفكر: «لن يرحمنا الناس من ألسنتهم، ولن يصدقوا أنك ضحية ذلك المجرم». ثم اقترب منها، وقبّلها من صدغها وهو ما يزال يفكر: «منذ أن قتل قابيلُ هابيلَ، استطاع المرء أن يقتل مَن حملته نفس الرحم، وأرضعته نفس الصدر، ويجب أن أستطيع أنا أيضاً».
أخرج بجمود إنسان آلي مسدسه الذي أعطاه عمه في يوم مضى بعد أن توقف عن قضاء ليلة في الأسبوع عندهم ليشعره بالأمان من غدر الدنيا والناس، ونصحه بعدم استعماله إلا في الحالات الضرورية، ولم يضطر إلى استعماله قط، حتى تلك اللحظة.
أضاء البرق.
وضع فوهة المسدس على مكان قبلته، وأغمض عينيه، وهمس:
- لأنني أحبك، يجب أن أخلصك من العذاب.
وضغط على الزناد.
فامتزج صوت رعد غاضب بصوت طلقة يائسة طرحت حياة مع لعبتها أحلام أرضاً، وسمّرت أحمد واقفاً، وأقعدت ثريا أمام الباب دون أن يسعفها الوقت لأن تأخذ أختها في حضنها، وتحميها بدمها وروحها.

مضى شهر من الزمن، تراكمت خلاله آلام ثريا إلى أن وصلت عنان السماء، وأكلت قلبها إلى أن اخترقت أعماقه المظلمة.
كانت تقف بجانب قبر أختها حياة، وتراقب بعيون جافة جثمان أخيها أحمد يُوارى الثرى إلى يسار والده، وسكين الموت تحز في قلبها دون أن تطعن طعنة الرحمة. نظرت إلى جانبها الأيمن: «خذ أيها التراب هديتك التي انتظرتها منذ أن خُلق أول إنسان منك. فها هي قد جاءتك بكامل شبابها وجمالها، مغسولة بالمسك والعنبر بدلاً من الماء، مزينة في ثوب زفافها بدلاً من قطعة قماش كئيبة لتبقى عروساً أبدية، لتبقى حورية خيالية إلى أن تفنى الأرض ومن عليها. ها هي قد جاءتك لتطفئ شهوتك، وتشبعك أنت وديدانك، وتهنّئ عينيك بهدوء النوم، فانفض عنك غبار الحنين، وأغدق عليها بأمانك وحنانك.»
التفتت عيناها إلى جهة أخيها: «كانت شهوتك متأججة، وكان جوعك عصياً على الإشباع، لم تكتفِ بها، فحلّلت أخاها على نفسك، وحرمته عليَّ. ناديته ولم يتردد في تلبية ندائك، فعانق حنينك، ورماني في هاوية حنين أزلي. آه أيها العدو الصديق! زرعتُ وكبّرت، فجئت أنت وقطفت الثمار، وتركت لي الأشواك. أكانت معركة بيني وبينك عليهما أعدتَ لها العدة، وهاجمت، ولم تتوقف إلا بهزيمتي وانتصارك؟ أم أنني قدمتهما هدية لك لتمنحهما أماناً لم أستطع أنا منحهما، فأودعتُهما كنزين ثمينين في صندوقك لتحميهما من أيدي الدنيا وناسها؟»

لم تستطع عيناها أن تذرفان دمعة واحدة على أختها وأخيها. لم تكن ترَ أحداً من المعزّين، فقد كانت تدفن آخر بقاياها مع أخيها ليؤنس وحشته، ويزيل همومه، ولتعود هي خالية الوفاض إلا من خيال نفسها وخواء قلبها.
هزتها نسرين تدعوها لذرف الدموع معها دون أن يتحرك لها ساكن ودون أن تخرج من صمتها، فهي لو بقيت تجلد نفسها بسلاسل حديدية، كمن يندب ذكرى موت الحسين، لما نُزفت قطرة دم من ظهرها. ولو بقيت تلطم وجهها، كنواحات المقابر، لما استفاقت من خدر قلبها وعقلها. ولو بكت كل حياتها، لما استطاعت دموعها أن تجرف آلامها، فابكي أيتها البحار عنها، واضربي بملوحة دمعك شطآن الجزر القريبة والبعيدة، واذرفي أيتها السماء أمطارك على دموع الأنهار، وتحولي معها إلى سيولٍ تعيد الخضرة إلى الأراضي القاحلة لتمتنع دموعها هي من الهطول على سهول روحها وتتركها للجفاف والقحط.

ظلت بسكونها وتحديقها، فقد تبددت من وقت وقوفها أمام باب بيتهم، وهدر رعد غاضب، وامتزج بصوت طلقة يائسة اخترقت روحها، فبعثرتها في أماكن مجهولة وأقاصٍ مستحيل الوصول إليها. وقد أدخلتها إهالة التراب على أخيها عالم الغيبوبة، رغم صدرها الذي يعلو ويهبط ليبرهن على أنه ما يزال يحتوي نفَساً في داخله، ورغم عينيها المفتوحتين اللتين هجرتهما الحياة وتركتهما مثل عيني صورة ملتقطة بالأبيض والأسود.
أطاعت اليد التي قادتها إلى البيت، مثل إنسان آلي ينفِّذ دون وعي.

ظلت أنوار الأيام تشرق دون أن تستطيع النفاذ إلى قلبها وإزالة اللون الرمادي الذي استوطنه منذ يوم لم تعد تتذكره، فالذين كانوا يضيئون قلبها رحلوا وتركوها في ظلمة أيامها ولياليها، فلم تعد تميّز في أي زمن عاشت أو تعيش، متحولة إلى جثة صماء بكماء عمياء، دون طعام أو شراب، دون نوم أو يقظة، منيعة ضد بكاء نسرين، محصَّنة ضد مواساة عمها وزوجته سميرة، غير شاعرة بدموع أمها سامية وعناقات مريم وتوسلات صباح.
أحضر عمها طبيباً فحصها، فعلّق على ساعدها كيس سيروم يغذيها دون أن تعي ما يجري حولها.

بقيت أربعة أشهر طريحة الفراش، وخواء تام يحتل داخلها وقد هجرها الكلام والدموع والأحلام والكوابيس.

كان قمر البدر يضيء البيوت والطرقات، وكانت النجوم تزين عتمة السماء. وكان الناس نياماً يحلمون بشروق شمس الصباح، وكانت أشجار الزيتون المزروعة على طول الطريق الترابية والممتدة في حقول واسعة على يمين الطريق وشمالها، تنصت إلى صمت الليل وهسيس الجداجد، وتشهد على خطى ثريا التائهة وهي تتجه لزيارة مَن يرقد تحت شجرة السنديان الضخمة.
جلست عند الشواهد الثلاث، وقرأت في ضوء القمر على الشاهدة النصفية: المرحوم عدنان نور الدين، وعلى الشاهدة اليمنى: المرحومة حياة عدنان نور الدين، وعلى الشاهدة اليسرى: المرحوم أحمد عدنان نور الدين.
رغبت في نبش قبريهما ليخرجا، ويجلسا معها الجلسة المربعة بركب ملامسة لركبتيها، ويتفقوا ببصمة خناصرهم على الهروب من عالم الموت إلى عالم بعيد مجهول.
نظرت إلى يمين حياة... إنه مكان قبر ينتظر!!
استلقت في المكان الفارغ بجانب أختها، مثلما كانت تستلقي بجانبها على سريرهما منذ الليلة التي هربت فيها أختها حياة من مطاردة الكوابيس إلى حضنها.

لقد مرَّ الليل من عندها دون أن يلتفت إليها، فانبلج الفجر، وانتصر ضوؤه الفضي على عتمة الليل. فوقف عصفور وحيد على غصن شجرة ضخمة وحيدة، مزروعة في أرضٍ وحيدة ينشد أغنية حزينة، توقف منتظراً رد العصافير

الأخرى دون جدوى، فعاد ينشد مرثية أكثر حزناً ذرف لها الفجر نداه على أوراق الأشجار وتويجات الأزهار واخضرار الأعشاب.

أضاءت النجمة الشرقية القبور الحجرية الثلاثة، والقبر البشري الوحيد. أعلن صياح الديَكة قدوم الصباح واصلاً من القرية إلى المقبرة، وحاثاً أموات ما تحت الثرى وما فوقه على النهوض دون جدوى. خلخل صوت راعي القرية وكلابه وقطيعه، صمت الصباح وهم يجتازون المقبرة باتجاه المراعي القريبة دون الالتفات إلى القبور.

قامت ثريا من رقدتها بجانب أختها، وجلست ووضعت يدها على شاهدة قبرها، فحطت يد عمها فوق كتفها وهو يقول لها:
- إنني أبحث عنك منذ الفجر. هذا لا يجوز يا ثريا، يجب أن تطلبي لهما الرحمة والمغفرة بدلاً من تعذيبهما وتعذيب نفسك بهذا الشكل.
وأمسك يدها، وقادها إلى البيت من دون كلام.

هاجمت صباح غرفة ثريا بشعر منكوش، وعينين جاحظتين، وفستان ملطخ بدم منثور؛ صباح التي رأت ذات يوم الوجه الحقيقي للدنيا، فلم تقدر عيناها على رؤية حقيقتها، ولم يقدر عقلها على قبول ظلمها، فهربت إلى عالم الجنون تحتمي به وتبحث عن عدل ضائع فيه، وحين عثرت عليه، طلب منها أن تثأر له من الذين ضيّعوه، فأعادته وطبقته على مَن يحمل نفس مورثاتها، ويجري في عروقه ما يجري في عروقها. أمسكت كتفي صديقتها ثريا بيديها المدماتين، وراحت تهزها من سباتها وهي تردد:
- قتلته يا ثريا، قتلت مروان.. غرزت السكين في قلبه.. أخذت بثأرك وثأر حياة.

لم تسمع ثريا صوت صباح، ولم تشعر بيديها المدماتين تضغطان على كتفيها وتهزان كل جسدها. لم ترَ عينيها الجاحظتين، ولا شعرها المنكوش، ولا الأثر الأحمر الذي تركه دم أخيها على خديها ورقبتها وصدرها، فقد كان جسدها في عالم وروحها في عالم آخر، غارقة في سبات شتوي طويل دون انتظار فصلٍ يوقظها ويعيد الحياة إلى ينيها وقلبها.

كانت صباح تعرف أنهم سيعتقلونها ويزجونها في السجن، فكانت تريد أن توقظ صديقتها ثريا من سباتها لتدافع عنها، فراحت تهزها بكل قوتها وتقول:
- ألست محامية تدافعين عن الحق، وتدفعين الظلم عن المظلومين؟
بقيت تهزها بكل قوتها وتطلب منها أن تستيقظ من سباتها الطويل، وتكسر قناع الإنسان الآلي وتخرج منه دون جدوى إلى أن شعرت بأن عليها أن توقظ صديقتها بالقوة، فوجهت صفعة مدوية إلى وجهها، فانتبهت ثريا إلى عينيها الجاحظتين وشعرها المنكوش. فكررت صباح بأعلى صوتها أنها انتقمت لها ولأختها، وأوفت بوعد أخذته على نفسها منذ زمن بعيد:
- قتلت مروان.. غرزت السكين في قلبه.. أخذت بثأرك وثأر حياة... ألم أقل لك: الذي يرشك بالماء سأرشه بالنار؟
تذكرت ثريا في حالة ما بين الوعي واللاوعي وقت انتقالهم من القرية إلى بيتهم القديم في حلب، ورأت صباح جالسة أمام الباب، ساندة ظهرها إلى الحائط، ومرفقيها إلى ركبتيها، ووجهها إلى كفيّها، وتذرف دموعاً غزيرة. قرفصت أمامها في محاولة لمواساتها، فقالت لها صباح والدموع تخنق صوتها:
- أرجوك يا ثريا أن تأخذيني معك، وأعدك بأنني سأطيعك في كل شيء. أرجوك يا ثريا، خذيني معك.

فأجابتها:
- إن أهلك لن يرضوا أن تعيشي معي يا صباح، وأنا خائفة من أن يسببوا لي مشاكل لن أستطيع تحملها.
فوعدت صباح:
- مَن يرشك بالماء، سأرشه بالنار.
فقالت لها:
- لا أريدك أن تفكري بهذا الشكل يا صديقتي. فأنا سأعود إلى القرية كلما سنحت لي الفرصة. يجب أن تعديني بأنك لن تتخلي عن الحلم يا صباح، فهم يستطيعون أن يحرموك من أشياء كثيرة، ولكن لن يستطيعوا أن يخطفوا منك أحلامك.

لم تكن تعرف آنذاك أنهم سيخطفون أحلامها هي، ويطاردونها إلى سبات طويل يمنع صراخ صباح من الوصول إلى أذنيها.

أمسكت سميرة بذراع صباح، وسحبتها إلى الباب الخارجي تطردها وتطرد معها بليتها، خوفاً من الاتهام بأنهم هم الذين حرّضوا المجنونة على قتل أخيها. دفعتها إلى الخارج، وصفقت الباب وراءها، فتلقفتها يد شرطي اقترب حينها، وقادها إلى حيث جثة أخيها مروان.

كانت ثريا تهرب من عالم الأحياء إلى عالم الأموات وتتوق إلى أن ينضم جسدها إليهم، كما انضمت روحها. كانت تقصد شجرة ضخمة وحيدة تظلل الذين غادروها وتركوها لأنياب الوحدة تنهش قلبها وتذيقها مرارة الفقدان لتحبك أغنيتها من آلامها، وتغنيها ملء قلبها، فتتوقف العصافير عن أناشيدها، وتصغي إلى أغنيتها، وتتذوق مرارتها في عظامها ونقيها، فتذرف الدموع سيولاً علّها تجرف التراب عنهما، وتبعث الروح فيهما.
جلست من جديد عند الشواهد الثلاث دون أن يسعفها هذه المرة هلال القمر على قراءة المكتوب على الشواهد. كانت الليلة أكثر ظلاماً من الليالي الأربع عشرة الماضية منذ زيارتها الأولى. وكان صمت هذه الليلة يختلف عن صمت الليالي الماضية، ويضفي على الظلام رهبة إضافية، ويحوِّل حفيف أوراق الشجرة الضخمة إلى أنين خافت، وهسيس جداجد الليل إلى لحن غامض.
شعرت فجأة بقبضتين قويتين على ذراعيها، فانكمشت تحت تأثير قوتهما وهي تسمع صوتاً غير بشري يخترق أذنيها، وينشر الرعب في كيانها:
- لا أريد أن أراك هنا مرة أخرى، أتفهمين؟
كاد الرعب يفقدها وعيها، فبقيت متيبسة بفزع إلى أن انفكت القبضتان عن ذراعيها. التفتت إلى خلفها، فرأت شخصاً مغطىً بالأبيض، من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، ينزل ببطء ويختفي تحت الأرض. اعترتها رغبة في صراخٍ لا يسمعه الأحياء، وإنما الراقدون تحت التراب لعلهم يأتون لنجدتها، لكن رعبها جفف حلقها، وعقد لسانها،

وحثَّ أرجلها على الهرولة بخطى متعثرة على الطريق الترابية باتجاه البيت، وأشجار الزيتون تتراءى لها مكتسية بأثواب أشباحٍ تطاردها.

دخلت سريرها، وغطت نفسها ببطانيتها وأوصالها ما تزال ترتعد. وبعد وقت طويل غطت في النوم، فحلمت لأول مرة منذ موت حياة، حلمت برياض يقف خلف القضبان، ويحكي معها دون أن يصل صوته إليها.
فتحت عينيها على صوت نسرين:
- ثريا إلى متى ستنامين؟ لقد اقترب الغروب!
فتكلمت أخيراً، بعد أربعة أشهر ونصف شهر من وفاة أحمد، فقد سألت:
- في أي يوم نحن؟
فأجابت نسرين سعيدة بسماعها تنطق ولو بجملة صغيرة:
- إنه يوم الثلاثاء.
- يجب أن أعود إلى البيت، فأنا لم أزر رياض منذ زمن طويل.
بعد أن عجز عمها عن إقناعها بالبقاء في القرية، طلب من نسرين أن تسكن عندها في البيت، بدلاً من المدينة الجامعية.

عادت ثريا إلى الدار التي تركها صاحبها أرملة وأولادها ثكلى، عادت عازمة على أن تسدَّ فوهات جراحها، مصممة على أن تطرد آلامها، كما تُطرد الأرواح الشريرة، وعندما ذهبت محاولاتها أدراج الرياح، استسلمت وتركت نفسها لآلامها، وبدأت تجتر فجائعها بصمت، فهي خرجت من رحم الآلام، ورضعت من صدرها، ونامت واستفاقت في حضنها، وأصبحت ابنتها الوفية، وها هي أمها تهرم عندها، فتخفض لها جناح الذل، وتعاشرها بالمعروف، ولا تقول لها أفٍ إلى أن تسبق إحداهما الأخرى إلى جوف الأرض.
طلبت من نسرين أن تقيم في الغرفة التي اعتاد عمها النوم فيها، عندما كانت تظن أن مصيبتها بموت أبيها وزواج أمها من أكبر المصائب التي حاقت بها، وأدركت بعد الكثير من المصائب أن تلك الفترة كانت أجمل فترات عمرها، فقد كانت وقتها مليئة بالطموحات والآمال لأخيها، وأختها، ونفسها.

عادت إلى عملها من جديد، وطلبت من أستاذها المحامي أن يدافع عن صباح، فلم يكن بمقدورها الوقوف في المحكمة والدفاع عمن أخذت بثأرها وثأر أختها، فحصل أستاذها على تخفيف الحكم لصباح بسجنها في مصحة الأمراض العصبية بدلاً من إعدامها أو الحكم عليها بالمؤبد. خصصت يوماً في الأسبوع لزيارة صباح، واستأنفت عادتها في زيارة دار الأيتام. كانت تنطلق من ألمها وتخلق الفرح على وجوههم، وتنطلق من يأسها وتزرع الأمل في قلوبهم، وتعيش معهم حياتهم بأفراحها وأتراحها، ناسية نفسها ومتناسية مقولة «فاقد الشيء لا يعطيه»، فقد كانت تعطي كل ما تفتقده، وتنغلق على نفسها عندما تقترب منها يدٌ حانية، مثلما تنغلق «الوردة الخجول» على نفسها عندما تلامسها يد غريبة. وفي المساء كانت تفتح كتاب ذاكرتها على إحدى الصفحات فتقرأها، وتعيش أحداثها من جديد، كما عاشتها في الأيام الخالية، فقد كانت تجلس الجلسة المربعة على السرير، وصورة أخيها إلى جانبها الأيمن، وصورة أختها إلى جانبها الأيسر، وصورتها وصورة حبيبها التي رسمها بيديه البعيدتين قبالتها، وتترك نفسها شجرة لبلاب تتدلى أغصانها حتى تكاد تلامس الأرض وهي تعيش مع الغائبين في متاهات ما فوق الأرض وما تحتها.

كانت قد مضت على عودتها إلى البيت سنة ونصف سنة، وكانت تشعر منذ عودتها بشيء يتغير في جسمها ويسبب هجمات تعرّق مفاجئة، ويسبب نوبات غضب في أحيان قليلة، ونوبات كآبة في أحيان كثيرة، فقصدت عيادة الطبيب

متمنية أن يخبرها أن السرطان قد نهش جسدها، وانتشر بانتشار عروقها، وسيلحقها بأخيها وأختها خلال أيام أو أسابيع، لكنه بعد أن كشف عليها، وأجرى التحاليل اللازمة، وسألها عن عادتها الشهرية، قال:
- إنه سن اليأس، وأكمل بمهنية باردة، توجد نسبة نادرة من النساء تصل إلى سن اليأس في عمر مبكر. هل تعرضت لصدمة معينة؟

انتابتها رغبة في أن تضحك بأعلى صوتها؛ أن تضحك حتى البكاء وتبكي حتى الضحك، ثم أعقبتها رغبة أخرى وهي أن تخرج من عيادة الطبيب، وتركض في الشوارع بين السيارات والباصات لعلّ واحدة منها تعطف عليها، وتدهسها بدواليبها، وتخلصها من آلامها التي فقدت ملامحها، وتحولت منذ زمن لم تعد تتذكره إلى كتلة ثقيلة تضغط على قلبها، لكنها قمعت رغبتها كعادتها، وسيطرت على نفسها وهي تجيب بهدوء:
- لا.

خرجت ثملة من عيادة الطبيب، وكأنها شربت خمور العالم كلها، وانقادت لخطوات أقدامها وهي ترغب في صرخة تمزق آذان الأموات علّهم يقبلونها بينهم، وتصمُّ آذان الأحياء علّهم يتركونها وشأنها. شعرت بأعماقها تحترق، وبدموع مكبوتة تضغط على حنجرتها وهي تسمع صدى فكرة في أذنيها «احترقي.. احترقي وتحولي إلى رماد.» حاولت إبعاد تلك الفكرة باستجلاب أفكار أخرى إلى رأسها، إلا أن كل الأفكار الأخرى كانت ضعيفة وهشة، فلم يكن بمقدورها مقاومة الفكرة الطاغية التي استوطنت رأسها دون أن تتزحزح من مكانها.

وصلت إلى البيت، ودخلت المطبخ. فتحت الثلاجة، وأفرغت زجاجة ماء بارد في حلقها دون أن ينطفئ ما هو مشتعل في داخلها. سمعت صوت أحمد، فاستدارت والزجاجة الفارغة ما زالت في يدها، فتراءى لها عندما دخل المطبخ قبل سنوات، وأخرج من وراء ظهره أول كتاب ترجمه رياض، فأمطرت خديه وجبينه بقبلاتها فرحة بأروع كتاب جلبه لها، وفكرت بصوت عالٍ وهي تقلب صفحات الكتاب بانتشاء في أنها ستكون أسعد إنسان على وجه الأرض، إن استطاع نشر كتاب رياض الثاني الذي كان يوشك على إنهاء ترجمته، مثلما استطاع نشر الكتاب الذي بين يديها، فأجاب أحمد وهو ينحني أمامها:
- أنت أشيري، وعبدك سيلبي.
فأجابت:
- أنت لست عبدي، وإنما تاج رأسي.
فتدخلت حياة الواقفة عند المجلى وفي يدها طبق وليفة:
- دعيه يكون عبدك، لن ينقص منه شيء.
ضرب أحمد حياة على كتفها، فوقعت الليفة من يدها، وأمسك ذراعها يجبرها على الانحناء أمامها ليبرهن على أن كليهما عبدان لها.
ابتسمت ابتسامة مريرة، عندما توارى خيالهما من أمام عينيها، وظهرت الجدران محلهما: «مالك أيتها الجدران لا تحركين ساكناً، وكأن شيئاً لا يعنيك، وكأنك لم تعرفيهما البتة؟» وقذفت بالزجاجة الفارغة على الجدار، فتشظت عليه، وتبعثرت في المطبخ.

اتجهت بخطى ضائعة إلى غرفتها، وأغلقت بابها في وجه الزمن لينساها وتنساه. وجلست تنظر إلى صورة أختها: «إلى أي الأعماق ستغطس لتبحث عن حوريتها، أو على أيٍ من الشواطئ ستعثر عليها جالسة بغنج، وذيلها السمكي يمدها بما تحتاجه من الماء والملوحة؟» تخايل لعينيها وقوف أُختها الصغرى أمام المرآة، عندما كانت تتربع على حدود ما بين الطفولة والبلوغ، بعد أن لبست ثيابها الجديدة، فبدت مثل شجرة زيتون أينع ثمرها وتألق منادياً يداً حانية

تقطفه. خطت حياة إلى الأمام، ووقفت في وسط الغرفة بقامتها المتناسقة، وشعرها المائل إلى الشقار والمسدل على أكتافها والمؤطر وجهها الأبيض الذي لاح مثل ماء غديرٍ صافٍ. ودارت حول نفسها، ثم مشت إلى الأمام وإلى الخلف تقلد عارضات الأزياء، ثم توقفت وفتحت ذراعيها، اليمنى إلى الأعلى، واليسرى إلى جنبها وهي تسأل:
- ما رأيكم؟
سألت ولم تنتظر الجواب، فقد خلعت سترتها الجديدة بحركات مغناج، وألقتها على كتفها وهي تروح وتجيء أمامهم، ثم توقفت، وابتسمت ابتسامة عمّقت غمازاتي خديها فأنارتا وجهها مزيداً من الإنارة، ورجعت بخطواتها الاستعراضية إلى المطبخ الذي سمته حينها بغرفة القياس. وخرجت بعد لحظات وهي ترتدي بيجامتها الجديدة، ووقفت وسط الغرفة، وانحنت وهي تقول:
- انتهى عرض الأزياء لهذا اليوم.

قامت ثريا من جلستها، واتجهت إلى خزانة أختها الصغرى، وفتحت بابها وراحت تنظر إلى محتواها: كانت صور الفنانين والفنانات تغطي الجهة الداخلية من الباب مع قصاصات الجرائد والمجلات عن أخبارهم الشخصية والفنية. وكانت فساتينها وقمصانها وبناطيلها متدلية من التعاليق، وكنزاتها الصوفية مطوية بترتيب على الرف العلوي، وبيجاماتها وأرواب نومها مصفوف بعضها فوق بعض على الرفوف الجانبية. أخذت من الرف العلوي علبة الإكسسوارات؛ علبة الموزاييك التي كانوا يضعون فيها الضيافة في الماضي إلى اليوم الذي رأت فيه حياة أن تلك العلبة تناسب إكسسواراتها أكثر، فأفضت العلبة من الشوكولا، وملأتها بأطواقها وأساورها وخواتمها الملونة التي ـانت تغيرها حسب ألوان ثيابها.

قرفصت أمام الخزانة، ومدَّت يدها وأخرجت من قعر الخزانة كتاباً من كتب الأطفال التي كان والدها قد اشتراها لحياة عندما كانت طفلة صغيرة، فوضعتها حياة في خزانة ملابسها، وعاندت الجميع في أن تضع تلك الكتب في خزانة الكتب في غرفة الجلوس. كانت تقرأها بين الحين والحين، حتى بعد أن كبرت وتجاوزت العشرين من العمر بقيت تقرأ كتب الأطفال، وحكاية «ساندريلا» على وجه الخصوص، وعندما اهترت الكتب، أعادت لصق الصفحات المشقوقة، وجلّدت الأغلفة بجلد شفاف يستطيع أن يحميها من أثر الزمن، راغبة في الاحتفاظ بالنسخ القديمة، ورافضة رفضاً قاطعاً شراء نسخ جديدة بديلة.

تراءى لها خيال رياض في قرفصائها وهو يقف بظهره إلى بوابة السجن؛ يغمض عينيه، ويبتسم ابتسامة تنير وجهه، ويشم رائحة الهواء بعمق، فارتسمت على محياها ابتسامة شاحبة لابتسامته، ثم قامت من قرفصائها، وحملت الصورة المؤطرة بالفضي، وراحت تنعم النظر فيها ثم بالجدار أمامها وهي تود أن يسمع بما يدور في خلدها:
«قامت الأرض ولم تقعد حتى ألقت كل ما في جوفها من زلازل وبراكين، وقعدت السماء ولم تقم حتى أفرغت كل ما في أحشائها من أمطار وعواصف. لقد طال انتظارها، ولم تظهر سفينة نوح لتكون نجاتها وبر أمانها، فإلى أين المفر؟ وإلى أين المهرب؟ فهي سليلة الملاحم المنسية والبطولات المهزومة، سليلة الحب المنكسر والمراثي الحزينة، سليلة العداوات الطويلة والموت المجاني. قادمة من أرحام لامبالية وعقول صخرية. قادمة من وهم فرسان يحلمون أحلاماً هاربة بكسر قضبان لا تنكسر وفتح أقفال لا تنفتح. هي ابنة أرضٍ يسكنها مَن لا يترك الأفراح نقية والأحلام عذراء، مَن لا يترك البيوت هادئة والقلوب صافية، فلأي الأفراح ستُطلق الحناجر وتُعزف الألحان؟ ولأي الأشخاص ستبتسم العيون وتخفق القلوب؟»

كانت تعرف أنها سجينة ماضيها وغير قادرة على كسر قضبانه والهروب منه. كانت تتمنى أن تصاب بفقدان الذاكرة لعلّها تتحرر من سجنها، وتدخل حالة من فوضى المشاعر. أعادت صورة رياض، وأخذت صورة حياة، ورجعت

بذاكرتها إلى ذلك اليوم الشتائي، عندما كانت في بيت عمها، وركضت إليها صباح، مثل ريح عاصفة، تعانقها وتقبلها بلاتها السريعة المتتالية وهي تقول:

- لم أصدق أذنيَّ عندما سمعت بوجودك في القرية يا ثريا، ولا أصدق عينيَّ وأنا أراك أمامي.

كان ذلك في نفس اليوم الذي خطبت فيه لرياض، وكانت تلك هي المرة الأولى التي تسمع فيها صباح تشتكي من أخيها مروان الذي كان قد أُطلق سراحه، فقد قالت صباح:

- هو أيضاً انضم إلى أبي أمي وزوجة أخي ليحولوا حياتي إلى جحيم. إنهم لن يرتاحوا، إلا بعد أن يجننوني.

فقاطعتها سميرة باستخفاف:

- أيعني أنك لست مجنونة بعد؟!

كانت عادة زوجة عمها سميرة أن لا تغسل فنجانها إلا بعد أن تقرأه أو تترك أحداً يقرأه لها، وكان زوجها يقول لها في كل مرة:

- لا يعلم الغيب إلا الله يا سميرة، إلى متى ستؤمنين بهذه الخرافات؟

فكانت تجيب زوجها:

- نريد أن نتسلى قليلاً يا طاهر، ونعرف هل سنستقبل ضيوفاً أم سنذهب نحن أنفسنا في طريق.

قرأت صباح فنجان سميرة، ثم أمسكت فنجان حياة، وحدقت فيه، وراحت تديره في كل الاتجاهات ووجهها يتجهّم، ثم مسحت بإصبعها نصف القهوة اليابسة منه، وأعادته إلى الصينية دون أن تنطق بحرف واحد. فسألتها سميرة عاتبة:

- هل جاءتك نوبة من نوباتك أم أنك سمعت صوتاً من الأصوات التي تسمعينها يأمرك بمسح الفنجان بدلاً من قراءته؟

لم ترغب صباح في الكلام، رغم إلحاح سميرة على أن تقرأه أو أن تقول ما قرأته، وغادرت كأنما تحاول الهروب من إلحاح سميرة وهي تتمتم بكلمات غير مفهومة، وتغلق الباب دون أن تنظر خلفها.

- هل قرأتْ صباح ما سيحدث لحياة؟ سألت ثريا نفسها وهي ما تزال تمسك بصورة أختها الصغرى، وتشعر بألم ثقيل يضغط على قلبها.

لقد اعتادت خلال حياتها أن تدفن أوجاعها في أعماقها، وتبدو قوية ومتماسكة إلى أن ظنت في لحظة من اللحظات أن قلبها تحول إلى حجر. لم تكن تعرف أن أوجاعها ستخرج في يوم من الأيام من قبرها، وتلاحقها بكفن أسود وهيكل خالٍ من العظام وملامح ممحية، وتتربع على صدرها، وتضغط على قلبها مثل كابوس ثقيل.

لم تستجب نسرين لطلب ثريا بالسكن في غرفة أبيها. لقد سكنت غرفة أحمد لتنام في سريره، وتشم رائحته، وتقلّب صفحات كتبه، وتكتب بأقلامه في دفاتره، وتعيش مع ذكريات طفولتهما وشبابهما.

أخرجت من درج طاولته قلماً من أقلامه، وخطت به على ورقة بيضاء من أحد دفاتره وهي تتذكره عندما طارد دجاجات الجدة فرحاً بقوقأتها ورفرفة أجنحتها، وأمسك بإحداها في آخر الأمر، واقترب منها وهو يحاول منع الدجاجة من الانفلات والهرب، ووضعها في حضنها الصغير، فأفلتت الفريسة نفسها في تلك اللحظة، وأوقعتها على مؤخرتها.

نظرت نسرين إلى الصفحة، فوجدتها ما تزال بيضاء، فسألت نفسها: هل جفَّ حبر القلم أم انتهى لكثرة الرسائل التي كتبتها له في الفترة الماضية؟ بقيت تحدق في اسمه محفوراً على شكل أثر أبيض على ورقة بيضاء إلى أن انتبهت لجرس الهاتف فركضت ترد عليه.

هرولت باتجاه غرفة ثريا، وفتحت الباب ناقضة اتفاقاً ضمنياً بينهما بعدم الاقتراب من مكانها المقدس، عندما تكون ثريا في إحدى حالاتها الشبيهة بحالات الصلاة، وقالت لها:

- احزري من يريد أن يتحدث إليك على الهاتف؟

أرادت ثريا أن تجيب:

- رياض.

لكنها امتنعت خشية أن تضحك نسرين عليها، فقد يأس الجميع من عودته منذ زمن طويل، وانتظرت صامتة إلى أن قالت نسرين بحماسة:

- إنه رياض، لقد أُطلق سراحه قبل ساعة واحدة، وهو يريد أن يتكلم معك. أسرعي! تعالي وكلميه!

دق قلبها في حنجرتها وهي تنهض عن السرير. وقفت، لكن أرجلها لم تسعفها على الوصول إلى سماعة الهاتف، فضحكت ضحكة حبلى بالبكاء، وتهاوت على طرف السرير وهي تفكر في ثلاثاءٍ قبل أكثر من تسع سنوات، لبست في صباح ذلك الثلاثاء فستاناً بنفسجياً اشترته خصوصاً لذلك اليوم، وأسدلت شعرها الأسود، وثبتت غرته بحبسة صغيرة، ولونت شفتيها بأحمر خفيف. نظرت إلى نفسها في المرآة، ورضيت عن هندامها شاعرة بنفسها عروس زمانها، فرفعت القلب الفضي الملامس أطراف قلبها، ووضعته على شفتيها وهي تتخيل الفرحة التي سترتسم على وجه رياض، عندما تخبره بموافقتها على الزواج منه، وتحدد موعداً يأتي فيه لطلب يدها من أخيها.

خرجت من البيت قاصدة الكلية وهي تعيش حلم يقظتها: تراه جالساً بجانب أخيها أحمد يطلب يدها منه، ويجلس والده مع عمها بعد أسبوع، ويتفقان على موعد الزفاف، ثم تشاهد نفسها تعيش مع أحبائها الثلاثة في بيت واحد يتسامرون، ويمزحون، ويلعبون الورق والشطرنج.

كانت محاضرة ذلك اليوم عن الأحوال المدنية. فاستمعت إلى دكتور المادة، وحلم يقظتها يدغدغ قلبها: سيذهبان معاً إلى قسم الأحوال الشخصية لتسجيل زواجهما والحصول على «دفتر عائلة» باسمه في الصفحة الأولى، واسمها في الصفحة الثانية، وسيعودان بعد سنة ليضيفا اسم طفلهما الأول إليه. تمنت أن تنتهي المحاضرة سريعاً لتهرول إليه، وتخرج معه من الجامعة، وتمشي بجانبه على مرأى من عيون الناس، لكنها لأول مرة منذ لقائهما الأول لم ترَه جالساً في انتظارها، فجلست هي في انتظاره على كرسيها المعتاد، وقلبت صفحات كتابها، واحتست فنجان قهوتها وهي تتوقع أن يظهر في أية لحظة بقامته الطويلة وشعره الأسود وبشرته البيضاء. خرجت، وبحثت عنه بين الزحام، ثم عادت إلى المقصف، وشربت فنجاناً آخر من القهوة، وخرجت من جديد. مشت في الممر العريض وهي تنظر إلى وجوه الطلاب والطالبات لعلها تراه بينهم، ثم توجهت إلى بوابة الكلية وخرجت، ووقفت تنظر إلى حيث يصل نظرها باحثة عنه دون جدوى. مشت باتجاه ساحة الجامعة، وعبرت المكتبة العامة وهي تشعر بعرق ينقطع في قلبها وينزف دماً ودمعاً. جلست على المقعد الخشبي تحت الأشجار الباسقة تراقب المارة علّه يظهر بينهم، لكن دون جدوى، فقامت واجتازت المساحة الخضراء والأسئلة تلون قلبها بالسواد: «هل سئم انتظارها ورمى حبها وفكرة الزواج منها؟ أم قرر أن يكرس كل وقته للدراسة استعداداً لامتحانات تخرجه في الشهر القادم؟ هل مات أحدُ في القرية، واضطر إلى الذهاب فجأة دون أن يستطيع إخبارها؟ أم أنها أخطأت في فهم الموعد؟»

عادها صوت نسرين إلى الواقع وهي تقول:

- اسرعي يا ثريا، فالرجل ينتظرك.

فأجابت:

- أخبريه أن موعدنا ما زال قائماً.

سألت نسرين:

- عن أي موعد تتحدثين يا ثريا، عن أي يوم، وأية ساعة؟

فأجابت باختصار:
- هو يعرف.

خلعت ثياب حدادها لأول مرة منذ وفاة أختها حياة، ولبست فستانها البنفسجي الذي لبسته مرة واحدة فقط، عندما ذهبت ذات ثلاثاء قبل أكثر من تسع سنوات للقاء حبيبها، ولم تلبسه قط منذ ذلك الوقت. لوّنت شفتيها بأحمر خفيف، وأسدلت شعرها، وثبتت غرته من الأمام بحبسة صغيرة، مثلما فعلت حينها: هل كان يراد لها عدم الوصول إلى نهاية طريقها؟ أم كانت تلك الفكرة الغامضة تسكنها أنها من هؤلاء الغير الجديرين بعيش متع الدنيا؟ ولكن ألم تفعل كل ما ي وسعها لتعيش متع الدنيا؟ أكان ذلك السعي من أجل نفسها أم من أجل غيرها؟

دخلت مقصف كلية الحقوق، رأته يجلس إلى نفس الطاولة التي اعتادا الجلوس إليها في أيام أصبحت في عداد الذكريات، وهو يتصفح كتاباً أمامه. لقد اُجتثت في يوم بعيد من منبتها، وزُرعت في أرض قاحلة، فتلاءمت معها واعتادتها حتى أصبحت جزءاً منها، ولا تعرف كيف ستشعر إن نُقلت فجأة وزُرعت في واحة خضراء بمياهٍ رقراقة وظلال وارفة، هل ستتلاءم معها وتفرح بها؟ أم أنها ستفقد توازنها، ويصبح الارتباك سيدها؟
جلست قبالته، مثلما كانت تفعل في أيام خالية. لقد أغمضت جفنيها في ليالٍ لامتناهية على الحلم بلقائه من دون قضبان، وفتحتهما عليه، فقد كان حلماً يافعاً يتجدد مع كل شروق دون أن يدرك أنه سيصل سن الشيخوخة وقد يشتهيه جوف الأرض. التقت عيونهما مباشرة دون حواجز ودون شبكات حديدية، فحدق كل منهما إلى الآخر بصمت إلى أن قالت بصوت مبحوح وهي تعقد ساعديها على الطاولة:
- الحمد لله على سلامتك.
ذهب لإحضار فنجانين من القهوة. قال بعد أن وضع فنجانها أمامها:
- لقد انتظرنا موعدنا طويلاً.
- تسع سنوات، وسبعة شهور، وثلاثة أسابيع، وخمسة أيام.
- قلتِ لي في السجن أنك أتيت إلى موعدنا قبل اعتقالي لتخبرينني بموافقتك على زواجنا.
أتت إلى موعدهما وهي مليئة بالأحلام، أتت وقلبها يرقص في صدرها. جلست هنا على كرسيها هذا، وانتظرت ظهوره طويلاً، فهي لم تكن تعرف حينها أن الدنيا ستبتلعهما، كما ابتلع الحوت النبي يونس، وتحتفظ بهما في جوفها المظلم إلى أن تسأمهما وتلقيهما منه لتأتي إلى موعدها ممتلئة بألم ينخرها من الداخل، ويغطيها مثل لحاف قريب من الخارج.

قال:
- سنسمي ابنتنا حياة وابننا أحمد... آه، كم أريد أن يضمنا بيت نعيش فيه من دون قضبان، ونتكلم من دون خوف.
كانت تريد له أن يعيش من دون ألم ويتنفس من دون ألم، لذلك كان عليها أن تبعده عن نفسها. أجابت:
- لن يكون بمقدوري أن أمنحك صبياً تسميه أحمد، ولا بنتاً تسمّيها حياة.
- لا يهم الأطفال يا ثريا، المهم أن نتزوج ونعيش حياتنا مثل كل البشر.

قال ذلك وتلألأت عيناه، فاستحالتا مرآتين رأت نفسها على سطحهما، فجفلت من تجاعيد آلامها وشيب أوجاعها وشحوب عمرها. لقد سرقت الدنيا شبابها، وتركت في قلبها ألماً لن يمكّنها من أن تمنحه الحب بسعادة، فأجابت:
- لا أستطيع أن أتزوجك.
- أنت جزءٌ مني وأنا جزءٌ منك يا ثريا! ما هذا الكلام الذي تقولينه؟ وإن كنت تنوين قول هذا الكلام، فلماذا لم تخبريني به وأنا في المعتقل؟ ولماذا انتظرتيني كل هذه السنوات؟

لزمت الصمت دون أن تجيب على سؤاله.
- أعرف أن حزنك عميق يا ثريا. دعيني أحمله معك، كما حملت أنت حزني معي كل السنوات الماضية. صدقيني، إن الدنيا جميلة إذا عرفنا كيف نستمتع بها.

حاولت قصارى جهدها أن تستمتع بمتع الدنيا، وتاقت إلى أن تفتح لها الدنيا حضنها وتقبلها كابنة مدللة، لكنها كلما حاولت الارتماء في حضنها، اصطدمت بظهرها، وعلى قدر محاولاتها جاءت خيباتها، فهي أحبت أباها فخطفه عزرائيل الموت، فوجهت حبها إلى أمها فخطفها رجل غريب. ذهب حبها إلى أختها فسرقتها سراديب القبور، فالتفتت إلى أخيها فهاجمه سرطان أودعه متاهات ما تحت الأرض. أحبته هو فخطفته متاهات ما فوق الأرض. كانت تخاف عليه من حبها الذي أصبح مثل القطة التي تأكل أولادها.
أجابت:
- حاولت كثيراً، ولم أنجح. أرجوك يا رياض أن لا تبحث عني ولا تحاول الاتصال بي.
فقال رياض وهو يضع يده فوق يديها المتشابكتين:
- أنت تظلمينني، وتظلمين نفسك يا ثريا!

لم يكن بمقدورها أن تأخذ من الحكماء حكمتهم لتزيل عتمة الموت التي سكنتها منذ زمن لم تعد تتذكره، كان عليها أن تضع قلبها في ثلاجة الدنيا وتتركه يتجمد، وكان عليها أن تستسلم، وترفع راية هزيمتها، وتعيش في وحدة دائمة، وترسل له دعاءها ملائكة ترافقه وتحميه من كل شر.
أجابت:
- الدنيا هي التي ظلمتنا يا رياض.

كان الحلم بلقائه من دون قضبان، والزواج به، وإنجاب الأطفال منه، وقضاء بقية عمرها معه، حلماً نقياً، فعندما كانت تستحضر مشاهده في خيالها، كان الألم يهجرها، مثلما تهجر الشياطين مكاناً يُقرؤ فيه القرآن، لكن الألم تسلل إلى حلمها النقي ذاك، وشابه بشوائبه الثقيلة فوقع منها، وضاع.
قامت من الكرسي الذي حملها شهوراً عديدة، عندما ظنت أن الدنيا بدأت تبتسم في وجهها وتأخذها في حضنها، ووقفت بجانب الطاولة التي أسندت مرفقيها، وحملت فنجان قهوتها وكتبها وصورها التي رسمها رياض.
ألقت نظرة إليه، وخرجت، واختفت في عتمة نهارها.